فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

الأحاديث القدسية

المجلد الثانى

اعداد وتقديم

عادل أبو المعاطى



حرمة الظلم

[٢٨] يقول الحق سبحانه

فى الحديث القدسى:

« يَا عِبَادى ، إنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِى ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنكُمْ مُحرَمًا ، فَلاَ تَظَالَمُوا » (١)

أَصْلُ الظلم هو محبة الانتفاع بجهد الغير ، فعندما تظلم واحدًا فهذا يعنى أنك تأخذ حقَّه ، وحقُّه ما جاء به بجهده وعرقه ، وتأخذه أنت بدون جَهْد ولا عرق ، ويتبع هذا أن يكون الظالم قويًا .

لكن ، ماذا عن الذى يظلم إنسانًا لحساب إنسان آخر ؟

إنه لم ينتفع بظلمه ، ولكن غيره هو الذى انتفع ، وهذا شَرٌّ من الأول ، لأنه ظلم إنسانًا لنفع عبد آخر ، ولم يأخذ هو شيئًا لنفسه .

إذن : فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كَدٍّ ، وإما أن تنفع شخصًا بجهد غيره.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد في مسنده (٥/ ١٦٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٩٣) والبخاري في الأدب المفرد (ص١٧٢، ٤٩٠) من حديث أبي ذر رضى الله عنه.

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة ، فلا يدخل فى بطنك إلا ما عرقت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه.

وهذا أمر دائر بين الحق والباطل.

والباطل زائل ، وهو الذى لا يدوم ، فهو ذاهب.

أما الحق فهو الثابت الذى لا يتغير.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾ [البقرة]

فلا تأكل بالباطل ، أى لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبته الله بحكم.

فلا تسرق ، ولا تغتصب ، ولا تخطف ، ولا ترتشِ ، ولا تكُنْ خائنًا فى الأمانة التى أنت مُوكل بها ، فكلُّ ذلك إنْ حدث تكون قد أكلتَ المال بالباطل .

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تُعفى غيرك مما أبحْتَهُ لنفسك ، وسيأكل غيرُك بالباطل أيضاً .

وما دُمْتَ تأكلُ بالباطل ، وغيرُك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعًا نَهْباً للناس جميعاً ، لكن حين يُحكم الإنسان بقضية الحق فأنت لا تأخذ إلا بالحقِّ ، ويجب على الغير ألاَّ يُعطيك إلا بالحقِّ.

وبذلك تخضع حركة الحياة كلِّها لقانون ينظم الحق الثابت الذى لا يتغير.

لماذا ؟

لأن الباطل قد يكون له عُلُو ، لكن ليس له استقرار .

ويضرب لنا الحق سبحانه مثل الحق والباطل ، فيقول :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا[1] رَّابِيًا[2] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[3] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحَسَّة ما نستطيع أن نُميِّزَ من خلاله الأمور المعنوية .

فالحق سبحانه يُنزل من السماء ماء فيسيل فى الأودية ، والوادى هو المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية .

وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقى المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض.

---

(١) زبد الماء: ما يعلوه عند جيَشَانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . وزبد المعادن : خبثها ونفايتها .

(٢) ربا الشيء يربو : زاد ونما. وارتفع وعلا على وجه الماء .

(٣) جفأ الوادى غثاءه : رمى بالزبد والقذى . وكذلك جفأت القدر: رمت بزبدها عند الغليان . (لسان العرب ـ مادة : جفأ) .

ويأخذ السَّيل فى طريقه أشياء كثيرة مثل جذور النباتات ، وبقايا ما يحمله الهواء ، والحق سبحانه يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ، لأنها غُثَاء .

وساعة يطفو الغُثَاء ، فإياك أن تفهمَ أن ذلك عُلُو ، إنه عُلُو إلى انتهاء ، كذلك فَوْرَة الباطل .

إياك أن تظن أن الزَّبَد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان عُلُواً على ما فى القِدْر .

لا ، إنه تطهير .

وعلى هذا ، فالحركة الحلال لا يكفى فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألاَّ تكون فى الباطل؛ لأن الذى يسرق إنما يتحرك فى سرقته ، ولكن حركته فى غير شَرَف ، وهى حركة حرام .

إذن: كل مسروق فى الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغَصْب ، والتدليس[1] ، والغش ، وعدم الأمانة فى العمل ، والخيانة فى الوديعة ، وإنكار الأمانة .

كل ذلك باطل ، وكل حركة فى غير مَا شرع الله باطل ، حتى المعونة على حركة فى غير ما شرع الله ، كل ذلك باطل .

(١) المدالسة: المخادعة. وقد دالس ودلَّس فى البيع وفى كل شىء إذا لم يبين عيبه. والتدليس فى البيع: كتمان عيب السلعة عن المشترى . (لسان العرب ـ مادة : دلس) .

ويقول الحق سبحانه :

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾

[آل عمران]

والحق سبحانه لا يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن مُلكه.

وهو سبحانه لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد.

وللظلم مظاهر ، كأن تأخذ إنساناً بغير جُرْم ، أو أن تعاقب إنسانًا فوق الجرم ، أو ألاَّ تعطى إنساناً مُستوى إحسانه .

والظالم يريد بظلمه أن يعود الأمر بالنفع له ، فإنْ كان يريد أَخْذ إنسان بغير جُرْم فهو يفعل ذلك ليروى حقْداً وغلاً فى نفسه .

وقد يُلفِّق لإنسان جُرْماً ، لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يُهدِّده فى أيِّ مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلاً ، أو يضعه فى السجن حتى لا يفضحه .

إذن: لا يمكن أن يذهبَ إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أنْ يُحقِّقَ منفعةً أو يدفعَ عن نفسه ضَرَراً ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضرراً يقع من خَلْقه عليه .

إنه مُنَزَّه عن ذلك ، فهو القاهر فوق عباده.

والحق سبحانه إذا نظرنا إليه ـ وهو قوة القوى ـ إذا أراد أن يظلم ـ وحاشا لله أنْ يظلم ـ فماذا يكون شكل ظُلْمه؟

إن الظلم يتناسب مع قـوة الظالم ، فقوة القُـوَى عندما تظلم فَظُلْمـها لا يُطاق .

ثم ، لماذا يظلم ؟

وماذا يريد أن يأخذ ، وهو مَنْ وَهَب ؟

إنه سبحانه مُسْتـغنٍ ، ولن يأخذ من هذا ليعطى ذاك ، فكلهم بالنسبة له سواء ، لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، كلهم متساوون .

فلماذا يظلم؟

إن الظلم بالنسبة لله مُحَالٌ عقلياً ، ومُحَالٌ منطقياً .

إن الحق سبحانه ينفى عن نفسه الظلم فى قوله :

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]

ولم يَقُلْ: وما ربُّك بظالم للعبيد .

قـالوا: لأن الله لو أباح لنفسـه الظلم فلن يكون ظالمـاً فقط ، وسـيكون ظلاَّماً ؛ لأن الظلم سيتناسب مع قدرته وقوته .

ونحن قلنا: إن هناك أشياء تسمى مبالغات مثل قولك: فلان آكل . فكلنا آكلـون. لكـن إذا قلـتَ : فلان أَكُـول أو فـلان أكَّال ، فـمـعناها أنه يبـالغ فى الأكل ، إما بزيادة الكمية التى يأكلها من الطعام ، فيبالغ فى الحدث فى ذاته ، وإما أنْ يأكل خمسَ مرات فى اليوم مثلاً.

إذن : المبالغة فى الوصف ، إما أن تكون بتضخيم الحدث أو بتكراره. فأنت تقول مثلاً: فلان نَاجِر. أى: أمسك قطعة من الخشب وقَدُومًا وأخذ يَنْجر فيها ، ولكنه ليس نجَّاراً ؛ لأنه لا يعمل إلا أشياء بسيطة جداً ، وليست عنده خبرة النجارة ، لكن النجار حِرْفته النجارة .

إذن : المبالغة فى الحدث تنشأ من أمرين:

من تضخيم الحدث فى ذاته ، أو من تكراره .

وحين يقول الله تعالى:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

فهو لم يَقُل : بظلام للعبد ، ولكن للعبيد ، فلو أنه سبحانه ظلم هذا العبد ، وذاك ، وغيره .. الخ .

فهذا التكرار فى الظلم يتناسب معه كلمة ظَلَّام ، وليس كلمة ظالم .. وحاشَا لله أن يظلم .

والله سبحانه لم يمتنع عن الظلم لأنه لا يستطيع أن يظلم ، ولكن لأنه لا ينبغى له أن يكون ظالماً ، لأن الظالم يأخذ حق غيره لنفسه ، والله يملك كل شىء فى الوجود ، فلا يمكن أن يظلم ولا ينبغى له .

إذن: عدم ظلمه سبحانه ليس عن ضعفه عن الظلم ، ولكن لتنزهه عنه .

ولذلك يقول الحق تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

وكلمة «ما كان» تختلف عن كلمة «ما ينبغى» ، فساعةَ تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن تفعل ، ولكن حين يُقَال «ما كان لك أن تفعل» ، أى: أنك غير مُؤهَّل لفعْل هذا مُطْلقاً .

ومثال ذلك: أن يقال لفقير جداً «ما كان لك أن تشترى فيديو» ؛ لأنه بحكم فَقْره غير مُؤهَّل لشراء مثل هذا الجهاز.

لكن حين يُقال لآخر: «ما ينبغى لك أن تشترى فيديو». أى: عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقْر هو الذى يجب أن يمنع الشراء.

إذن : فهناك فَرْق بين نفى الإمكان ، ونفى الانبغاء .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة ، إذن : فهو ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه لو ظلم كلّ عَبْد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد ، ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه ؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد .

ورسول الله ﷺ يقول :

«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

والظالم من البشر جاهل:

والظالم من البشر جاهل ، لماذا؟

لأنه قوّى الذى ظلمه ولم يُضْعِفه ، فالظالم يظلم ليُضعِف المظلوم أمامه ، فنقول له: أنت غبىّ ، قليل الذكاء ، لأنك قوّيته على نفسك ، وفعلتَ عكس ما تريد .

ولنوضح ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن جميعاً عيال الله ، فالواحد منَّا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه ، فقلْب الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضى ابنه المظلوم .

إذن : فالولد الظالم ضَرَّ أخاه ضرراً يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعاً يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

وما دُمْنا جميعاً عيال الله ، فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحداً من خَلْقه يظلم آخر من خَلْقه ؟

لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يُقوِّى الظالمُ المظلومَ ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه ، فلو كان ذكياً لما ظلم ، ولَضَنَّ على عدوه أنْ يظلمه ، ولَقالَ : إنه لا يستأهل أن أظلمه ، لأنه عن طريق ظلمى له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهى أن يجعله فى كَنَفه[1] ورعايته مباشرة .

---

(١) كنف الله : حفظه ورحمته وبره . والمكانفة : المعاونة . وكنفتُ الرجل: حُطته وصُنْته . (لسان العرب ـ مادة : كنف) .

وقد نجـد واحداً يظلم من أجل نَفْع عاجل ، ويـنسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبداً ممن خلقه .

ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرد من خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق وداريتَ نفسك ، وحاولتَ أنْ تحقق النفْع العاجل لنفسك .

لكن الخالق قَيُّوم ، لا تأخذه سِنَةٌ[1] ولا نوم .

وكأنَّ الحق سبحانه يُطمئننا بأنْ ننام مِلْءَ جُفوننا ، لأنه سبحانه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم .

والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾ [آل عمران]

لأن الظلم لا ينشـأ إلا عن إرادة نفعـية بغيـر حَقٍّ ، أو إرادة الضرر بغـير جُـرْم ، والله غنيٌّ عن ذلك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

ويقول أيضاً :

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران]

---

(١) السِّنَة : النعاس من غير نوم . والوسن : أول النوم . والوسنان : النائم الذى ليس بمستغرق فى نومه . (لسان العرب ـ مادة : وسن) .

فنحن الذين نظلم أنفسنا ، بأن نُورِدها موارد التهلُكة والعذاب الذى لا مَنْجاة منه ، دون أن نعطيها شيئاً .

فالدنيا ـ كما قلنا ـ عالم أغيار ، والنعمة التى أنت فيها زائلة عنك ، إما أنْ تتركها بالموت ، أو تتركك هى وتزول عنك ، وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط ، كلُّ شىء زال وبقيتْ ذنوبك تحملها إلى الآخرة .

ولذلك ، فإن كلّ مَنْ عصى الله وتمرّد على دينه قد ظلم نفسه ؛ لأنه قادها إلى العذاب الأبدىّ طمعاً فى نفوذ أو مال زال بعد فترة قصيرة ، ولم يَدُمْ .

فكأنه ظلمها بأن حَرَمها من نعيم أبدىّ ، وأعطاها شهوة قصيرة عاجلة ، لكن الذى يظلم نفسه ظُلماً شديداً وبيِّناً هو الذى يرتكب إثماً دون أن يأخذَ متعة فى الدنيا .

فلا هو أخذ متعةَ دنيا ، ولا أخذ متعة آخرة . مثل الذى يتطوع لشهادة الزور ، فهو يأخذ عذاباً فى الآخرة ، ولم يأخذ متعة فى الدنيا .

وقد حَرَّم الحق سبحانه البغى ، وهو تجاوزُ الحدِّ فى الظلم ، وهو إفساد ، لأن الإنسان إذا ما أخرج أىَّ شىء عن صلاحه يُقَال : «بغى عليه». فإنْ حفرتَ طريقاً مُمهَّداً ، فهذا إفساد ، وإن ألقيتَ بنُفاية[1] فى بئر يشرب منه الناس ، فهذا إفساد وبَغْى .

---

(١) نفاية الشىء : بقيته وأردؤه . والنفاية بالضم : ما نَفَيْتَه من الشىء لرداءته . (اللسان ـ مادة : نفى).

وأيُّ شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ، فهذا بَغْى .

والبَغْى : أعلى مراتب الظلم .

• ويقول تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ[1] مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.. (٣٣)﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه يُحرِّم أن يبغى أحدٌ على أحد ، لا فى عِرْضه ، ولا فى نفسه ، ولا فى ماله[2] ، ويجب أن نصونَ العِرْض من الفواحش ؛ لأن كل فاحشة قد تأتى بأولاد من حرام ، وإنْ لم تَأْتِ فهى تُهدِر العِرْض ، والمطلوب صيانته.

وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل[3].

---

(١) الفحش والفحشاء والفاحشة: القبيح من القول والفعل ، وجمعها الفواحش. وهى كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصى . قال ابن الأثير : وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا . (لسان العرب ـ مادة : فحش)

(٢) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «المسلم أخو المسلم، لايخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم». أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في سننه (١٩٢٧) وقال : هذا حديث حسن غريب.

(٣) عن ابن عمر ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : «لن يزال المؤمن فى فُسْحة من دينه ، ما لم يُصب دماً حراماً » . أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٤) ، والبخاري في صحيحه (٦٨٦٢).

والحق سبحانه يصون المال فيمنع عنه البغى ، فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عُدْواناً وظلماً[1] .

مظاهر البغى :

ومظاهر البغى كثيرة .

فمن البغى أن تأخذ سُلْطة قَسْراً بغير حَقٍّ ، ولكن هناك مَنْ يأخذ سلطة قَسْراً وقَهْراً بحقٍّ .

فإنْ كنتَ ـ على سبيل المثال ـ تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزوابع وأنت أمهر فى قيادتها من ربانها ، أتترك الربّان يقودها ، وربما غرقتْ بمَنْ فيها ، أم تضرب على يده وتُمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومَنْ فيها ؟

إنك فى هذه الحالة تكون قد أخذتَ القيادة بحقٍّ صيانة أرواح الناس ، وهذا بغى بحق ، وهو يختلف عن البغى بغير الحقّ .

وحتى نُفرِّق بين البغى بحقٍّ والبغى بغير حَقٍّ ، نقول :

إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه[2] منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له ، فنكون قد أخذنا حَقّاً من صاحبه رعايةً لهذا الحق ، فهو وإنْ كان فى ظاهره بَغْياً على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام .

---

(١) عن خولة بنت عامر الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق ، فلهم النار يوم القيامة ». أخرجه البخاري في صحيحه (٣١١٨)، وبنحوه أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٣٦٤ ، ٣٧٨ ، ٤١٠).

(٢) السفيه : الخفيف العقل ، الجاهل ، الأحمق ، الذى لا يحسن سياسة وإدارة ماله وغيره=

فهذا بغى بحقٍّ ، أو أنه سُمِّى بَغْيـاً . لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظُلْماً .

ويعطينا رسول الله ﷺ صـورة البَغْى الممثّلة فى الاعتـداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ :

«أسـرعُ الخـير ثـواباً : البرُّ وصِـلَة الرحم . وأسـرعُ الشرِّ عـقـوبة : البَـغْى وقطيعة الرحم »[1].

فالباغى إنما يصنع خَلَلاً فى توازن المجتمع ، والذى يبغى إنما يأخذ حَقَّ الغيـر ، ليسـتمتع بناتج من غـير كَـدِّه وعمله ، ويتحـول إلى إنسان يحـترف فَرض الإتاوات على الناس ، ويكسل عن أىِّ عمل غير ذلك .

وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحـياء ، حين يحتـرف بعضٌ ممَّنْ يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحوَّلوا إلى فتوات يسـتأجرهم البعض لإيذاء

= من شئـونه . (راجع: لسان العرب ـ مـادة : سفه) ويقـول تعالى: ﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ۝ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝ ﴾ [النساء]

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) من حديث عائشة ﵂. قال البوصيرى فى الزوائد : «فى إسناده صالح بن موسى ، وهو ضعيف» .

الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جَهْد في عمل شريف .

وقد ضرب الحق سبحانه المثل بقارون في البغى ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾

[القصص]

فضرب الحق سبحانه به المثل ، لأنه كان كثير المال بصورة لم يعهدها الناس ، فهو فتوة الأغنياء وأصحاب المال والجاه .

وقارون كان عنده المال الكثير الذى يستطيع بسطوته أن يظلم الناس ويبغى عليهم ، والبغى إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس ، وإما بالاحتقار والازدراء[2] ، وإما بالبطر[3] عليهم .

ويُعطينا الحق سبحانه نوحاً عليه السلام مع قومه ، مثالاً على أن الازدراء نوعٌ من الظلم ، فقال تعالى :

---

(١) ناء بحمْله ينوء: نهض بجهد ومشقة. وناء الحمل بالدابة : أجهدها وثَقُل عليها وأمالها . (اللسان ـ مادة : نوأ) .

(٢) الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب. (اللسان ـ مادة: زري) ومنه قوله تعالى عن نوح مع قومه: **﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾** [هود]

(٣) البطر : الطغيان فى النعمة. والبطر : شدة المرح . وبطر الحق . أن لا يراه حقاً ويتكبر عن قبوله. (لسان العرب ـ مادة : بطر)

﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾ [هود]

فنوح ـ عليه السلام ـ لن يطرد مَنْ آمن من الضعاف الذين تزدريهم وتحتقرهم وتتهكَّم عليهم عيون هذا الملأ الكافر ؛ لأن نوحاً ـ عليه السلام ـ يخشى سؤال الله ـ عز وجل ـ له إنْ سَدَّ فى وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

فأوضح نوح ـ عليه السلام ـ أنه لو طرد مَنْ يقال عنهم «أراذل» لَكانَ معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح ـ عليه السلام ـ يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما فى النفوس ، لذلك لا يضع نوح نفسه فى موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره .

فالبغى ـ إذن ـ هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن مَنْ يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر .

وإذا مَا زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف تعطلتْ حركة الحياة ، وتعطلتْ مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٣) ﴾ [يونس]

وهنا يُبيِّن الحق سبحانه وكأنه يخاطب الباغى :

يا مَنْ تريد أن تأخذ حقَّ غيرك ، اعلم أن قصارى ما يعطيك أَخْذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تُجازَى من بعد ذلك بنار أبدية .

وأنت إنْ قارنتَ زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغى بزمن العقاب عليها لوجدتَ أن المتعة رخيصة هيِّنة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ، ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أنْ يجعلَ عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

فاربأوا [1] بأنفسكم ، وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إنْ كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مُقْتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا .

وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظنُّ الواحد منكم أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن ليقسْ كلُّ واحد منكم عمره فى الدنيا ، وهو محدود .

وهنا يؤكِّد الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم (٢٣)﴾ [يونس]

وقد يتمثَّل جزاء البَغْي فى أنْ يشاءَ الحقُّ سبحانه ألاَّ يموتَ الظالمُ إلا بعد أنْ يرى مظلومه فى خَيْرٍ ممَّا أُخِذ منه .

(١) اربأوا : ارتفعوا واحذروا واتقوا . (اللسان ـ مادة : ربأ)

ولذلك أقـول دائماً : لو عَلِم الظالم مـا ادَّخـره الله للمظلوم من الخيـر ، لَضنَّ عليه بالظلم .

وعلى فَرْض أن الـظالم يتمتَّع بـظُلْمه وهو من مـتاع الدنيا القلـيل ، نَجِد الحق سبحانه يقول :

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. (٢٣)﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظُلْمَ أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم ، فكل منكم سـوف يَلْقى ما يُنبِّئه به الله سبـحانه إنْ ثواباً أو عـقاباً ، مِصْـداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل مُقَابلاً من ثواب أو عقـاب ، كما أن في ذكر النبأ مُقدَّمـاً تقريعـًا لمن يظلمون أنفسهم بالبغي .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ومِصْداق هذا قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾ [يونس]

أي : أن الناس هم الذين يظلمـون أنفسـهم ، ومن الظلم جَحْـد الحق ، وهذا هو الظُّلْم الأَعْلى ، ومن الظلم أن يُعطي الإنسان نفسـه شهوة عاجلة ، ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يَحرِم نفسه من النعيم المقيم .

وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقـد القدرة على قياس عُمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، فما دام الشىء له نهاية فهو قصير .

ومن الظلم أيضاً أن يستكثرَ الظالم نعـمةً عند المظلوم ، فيريد أنْ يأخذها منه.

ومثال هذا ما قصَّه الحق سبحانه فى قرآنه :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ(١) وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي(٢) فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ .. (٢٤)﴾ [ص]

والخلطاء هم الشركاء ، فكثيـر منهم يبغى بعضهم على بعض ، ويظلم بعضهم بعضاً ، مع أنهم أقبلوا على الشركة لِحُبٍّ بينهم .

ولذلك فإن رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) الشطط : مجـاوزة القدر فى كل شىء . والشطط: الـجور فى الحكم. وشطَّ فى سلْعته وفى حكمه: جاوز القدر وتباعد عن الحق ، وجار فى قضيته (اللسان ـ مادة : شطط) .

(٢) عزَّ : غلب وقهر . وقال السيوطى فى «الدر المنثور » (٧/ ١٦٢): «أخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﷺ فى قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)﴾ [ص] قـال: إذا تكلم كان أبلغ منى ، وإذا دعـا كان أكثر »

«إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، فَلعلَّ بعضكم أنْ يكونَ ألحن[١] بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها» [٢].

إن الرسول ﷺ يُعلِّمنا أنه بشر ، أى: أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقاً ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبى بمقتضى البينة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق .

لذلك يعلمنا أنه بَشَرٌ ، وأننا حين نختصم إليه يجب ألاَّ يستخدم واحد منا ذَلاَقة[٣] اللسان فى أَخْـذ ما ليس له ، لأنه حتـى لو أخذ شيئاً ليس له ، بحكم من الرسول ﷺ ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم .

لذلك أقـول : على كل واحـد أن يُغـربِلَ إيـمانـه ، وينظر هل حـيـاته فى أعـواض الأموال وأعـواض التجـارة ، وأعواض المـبادلات مـسـتـوية أو غيـر مستوية ؟

---

(١) لَحن الرجل فهو لَحنٌ إذا فـهم وفطن لما لا يفطن له غيره . ومعنى ألحن بحـجته : أى أفطن لها وأجـدل . وأراد أن بعضكم يكون أعرف بالحجـة وأفطن لها من غيره . (اللـسان ـ مادة : لحن)

(٢) حديث مـتفق عليـه . أخرجه البـخاري في صـحيحـه (٢٦٨٠) ، وكذا مسلم فـي صحيـحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

(٣) الذليق : الفصيح اللسان البليغ . (لسان العرب ـ مادة : ذلق) .

فإن لم تكُنْ مستوية ، فعليه أنْ يُفكِّر فيها قليلاً حتى يُعطى كل ذى حَقٍّ حَقَّه .

واعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى ، وأن الله خبير لا تَخْفى عليه خافية ، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إنْ أخفيتُم شيئاً عن عيون الخَلْق قد يخفى على الله أبداً ، فلن يخفى شيء عن عيون الخالق ؛ لأنكم إنْ عمَّيتم على قضاء الأرض ، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء.

يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾ [التوبة]

فعلم الله تعالى ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل يعلم الله سرَّهم ونجواهم ، لأن صفته القيُّومية ، وأنه علاَّم الغيوب ، يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا .

وما هو السِّر ؟ وما هى النَّجْوى ؟

السر : هو ما تكتمه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسِرُّ به للغير ؛ لأن هذه هى النجوى ، وأَصْلُ النجوى البُعْد .

وحين يرغب إنسان أنْ يُكلِّم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ، فهو يستأذنه فى الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذى يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر .

ولذلك سَمَّوها «المناجاة» ، وهى كلام لا يسمعه القريب ، لأنك خفضْتَ صوتك خَفْضًا يخْفى على القريب ، فكأنه صار بعيداً .

إذن : فالسر هو ما احتفظتَ به في نفسك . والنجوى : هو ما أسررْتَ به للغير بحيث لا يعلمه مَنْ يجالسك .

يقول تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ [المجادلة]

ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعَم عباده ؛ لأنه مُنَزَّه عن ذلك ، فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نعَم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ، ولذلك لا يأتى منه سبحانه أيُّ ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

وقد عدَّد لنا الحق سبحانه أوجهاً كثيرة للظلم البيِّن ، الذى هو أعظم الظُّلْم ، فقال سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ[(١)] وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾ [البقرة]

(١) الخزى : الفضيحة والهوان . وقد يكون الخزى بمعنى الهلاك والوقوع فى بلية . (لسان العرب ـ مادة : خزى) .

فعُمّار المساجد وزُوّارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يَرَوْنَ نور الله ، فكأن المساجد وهى بيوت الله هى أماكن تلقِّى النور المعنوى من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يعطينا ارتقاء الروح.

فالمساجد هى مطالع أنوار الله تعالى ، وهى التى يتنزَّل فيها النور على النور الذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ، لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن ، وتدخل النفوس فتجعلها تحِسُّ بالرضا والأمن .

فنحن فى المساجد إنما نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى ، نتلقّى منه التجليّات والفُيوضات التى تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم .

وأنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله ، وأنت تعلم أنه إن جاءك أحدٌ فى بيتك على غير دعوة فأنت تُكرمه ، فإذا كان المجىء على موعد فكَرمُك يكون كبيراً ، فما بالُنَا بكرم مَنْ خلقنا جميعًا ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فَيْض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته ، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد ، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يُطيل عليك نعمة أنْ تكونَ فى حَضْرته[1] .

(١) عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : «من تطهر فى بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ، ليقضى فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٦٦) .

فبيتُه مفتوحٌ دائماً حين يدعوك للصلوات الخمس ، فهذا أمر ضرورى ، ولكن بين الصلوات الخمس إنْ أردتَ لقاء الله فسبحانه يَلْقاكَ فى أىّ وقت ، وتدعوه بما تشاء ، وتُطيل فى حَضْرته كما تريد ، ولا يقول لك أحد : إن الزيارة قد انتهتْ .

فإذا أتى قوم يجترئون على مساجد الله ، ويمنعون أن يُذكرَ اسمُ الله فيها ، فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاءُ الإيمان ، ضعفاءُ الدين ، تجرَّأ عليهم أعداؤهم .

لأنهم لو كانوا أقوياءَ ما كان يجرؤ عدوُّهم على أنْ يمنع ذكر اسم الله فى مساجد الله ، أو أنْ يسعى إلى خرابها ، فتُهدم ولا تُقام فيها صلاة .

ولكن ساعةَ يوجد مَنْ يخرب بيتاً من بيوت الله يهبُّ الناس لمنعه والضَّرْب على يده يكون الإيمان قوياً ، فإنْ تركوه فقد هانَ المؤمنون على عدوهم .. لماذا ؟

لأن الظالم الذى يريد أنْ يُطفئ مكان إشعاع نور الله لخلْقه ، يعيش فى حركة الشرِّ فى الوجود التى تَقْوى وتشتدّ كلما استطاع غير المؤمنين أنْ يمنعوا ذِكْر اسم الله فى بيته وأنْ يخربوه .

فلا يوجد أظلم ممَّنْ يمنع مساجد الله أنْ يُذكَر فيها اسمه ، أى: أن هذا هو الظلم العظيم .

وفى الوقت نفسه ، فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نُصْرة دين الله والدفاع عن بيوت الله ، سيكون لهم أيضاً عذابٌ أليم .

إننى أُحذِّر كل مؤمن أنْ يتخاذلَ أو يضعُفَ أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذِكْر الله فى مساجده ، لأنه فى هذه الحالة يكون مُرْتكِباً لذنبهم نفسه ، وربما أكثر ، ولا يتركه الله يوم القيامة ، بل يسوقه إلى النار .

ويقول الحق سبحانه عن وَجْه آخر من أوجه الظُّلْم :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)﴾ [الأنعام]

فقوله تعالى: ﴿مَنْ أَظْلَمُ ... (٢١)﴾ [الأنعام]

يأتى على صيغة السؤال الذى لن تكون إجابته إلا الإقرار، ولا أحدَ أظلم ممّنْ افترى على الله الكذبَ ؛ لأنه أولاً ظَلم نفسه ، وظَلم أمته .

وأوَّلُ ظُلْم النفس أنْ يرتضى حياة زائلة ، وأنْ يترك حياة أبدية . وأما ظُلْمه للناس فلأنه سيأخذ أوزارَ ما يفعلون ، لأنه قد افترى على الله كَذباً .

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ... (٢١)﴾ [الأنعام]

أى : قوَّل الله ما لم يَقُله ، أو كذّب مَا قاله الله ، وكِلاَ الأمرين مُسَاوٍ للآخر .

وكيف يفترى إنسانٌ الكذبَ على الله ؟

كـأن يُبلِّغ الناس ويدَّعى ويقـول : أنا نبـىٌّ وهو ليس كـذلك . هنا تكون الفـرْية على اللـه ، وإياك أنْ تظنَّ أنه يكذب على النـاس ، لا ، إنه يكذب على الله ، لأنه أبلغ أن الله قد بعثَه وهو لم يبعثه .

والافـتراء : كَـذب مُتـعمّـد مـقصـود ، وينطبق ذلك على النبـوات التى ادعــيتْ ، من مـثل مُـسَيْلمـة الكذاب ، سَـجَاح ، طُلَيْـحـة الأسدى ، الأسـود العَنْسى .

كُلُّ هؤلاء ادَّعَوْا النبـوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحـد عن المعـجزة الدَّالة على نُبوّتهم ؛ لأن كُلَّ واحد منهم عندما أعلن نبـوته جاء بما يُخفِّف عن الناس أحكام الدين .

فواحدٌ قال : أنا أُخفِّفُ الصـلاة ، والزكاة لا دَاعِىَ لها . لذلك تبعهم كل مَنْ أراد أنْ يتخفَّف من أوامر الدين ونَواهِيه ، مُوهِماً نفسه بأنه مُتدِّين ، دون أنْ يلتزمَ بالتزامات التديُّن .

وهذا هو السبب فى أن أصـحاب النُّبوات الكاذبة ، والادعـاءات الباطلة يجدون لهم أنصـاراً من المنافقين ، فالواحـد من هؤلاء الأتباع قد يكون مُـثـقَّفاً ثم يُصدِّق دَجَّالاً يدَّعى النبوة .

وتسـأل التـابع للدجـال وتقـول لـه : أسـألتَ مُـدَّعى النبــوة هذا ، مـا معـجزتك؟ وهذا أوَّل شَرْط فى النبـوة ، ولم نجد أحداً سـأل هذا السؤال قط ، لماذا ؟

لأن التديُّن فطرة فى النفس ، ولكن الذى يُصعِّب التدين هو الالتزامات التى يفرضها التدين ، وعندما يرى التابعُ الضعيف النفس أن هناك مَنْ يُريحه من الالتزامات الدينية ، ويُفهمه أنه على دين ، ويُقلِّل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضِعَاف النفوس ، وتصبح المسألة فوضى .

لذلك يقول سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ[1] الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ[2] بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾ [الأنعام]

وإنكم تتعمَّدون الكذب على الله لإضلال الناس ، والحق سبحانه لا يهدى مَنْ يظلم نفسه ، ويظلم الناس .

ويقول تعالى :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[3] لِّلْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [الزمر]

---

(١) الغمرات : جمع غَمْرة ، وهى الشدة . وغمرات الموت والحرب : شدائدها. (لسان العرب ـ مادة : غمر) .

(٢) عذاب الهون : الهوان الدائم الشديد . قاله ابن عباس . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٣٢٢) .

(٣) المثوى : الموضع الذى يُقام به . ثوى المكان ، وثوى به : حَلَّ به ، وأقام فيه ، واستقر به . (القاموس القويم ١/ ١١٣) .

فلا أظلمَ ممّنْ يُكذِّب بالصدق ، لأن تكذيب الصدق ينقل القضايا إلى نقيضها ، وقد يحدث أنْ تكذب على الناس لأنهم لا يعرفون الحقيقة ، ولكن أنْ تكذبَ على الله الذى يعرف الحقيقة سِرَّها وعلانيتها ، فهذا هو الظلم لنفسك بعيْنه .

والظالم على أنواع .. ظالم فى شىء أعلى أى فى القمة ، وظالم فى مطلوب القمة ، والظالم فى القمة هو الذى يجعل لله شريكاً .

ولذلك قال الله تعالى :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ... (١٣)﴾ [لقمان]

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئتَ بمنْ لم يخلق ومَنْ لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق ، لذلك كان هذا ظلم القمة ، والظلم الآخر هو الظلم فيما شَرَّعْت القمة ، بأنْ أخذتُم حقوق الناس واستبحْتُموها .

فى كلتَا الحالتين لا يقع الظلم على الله سبحانه وتعالى ، ولكن على نفسك.. لماذا ؟

لأنك آمنتَ بالله أو لم تؤمن ، سيظل هو الله القوى القادر العزيز ، لن يُنقص إيمانُك أو عدم إيمانك من مُلْكه شيئاً ، ثم تأتى يوم القيامة فيُعذِّبك ، فكأنَّ الظلمَ وقع عليك .

وإذا أخذتَ حقوقَ الناس فقد تتمتَّع بها أياماً أو أسابيع أو سنوات ، ثم تموت وتتركها وتأخذ العذاب ، فكأنك ظلمتَ نفسك ولم تأخذ شيئاً .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة]

فَظُلْم الناس يعود على أنفسهم ، لأنه لا أحدَ من خَلْق الله يستطيع أنْ يظلمَ الله سبحانه وتعالى .

وأعلَى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ، ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر ، فهل هناك إنسان يقدر على أنْ يأخذَ من الله شيئاً ؟

لا ، فالإنسان لا يستطيع أنْ يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك ، وهذا ظُلم خائب للنفس ، والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسَار ، وذلك هو كُلُّ الخيبة .

لأن الظلم حينما يُحقِّق للظالم نَفْعاً فهو ظلم هيِّن، ولكن الظلم العظيم هو أنْ يشرك إنسانٌ بالله ، ولا يأخذ إلا العقاب الصارم ، فإذا كان المشرك يتأبَّى على منهج الله فى الأشياء ، فهل يجرؤ على أنْ يتأبَّى على قَدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟

والحق سبحانه يأمر الإنسانَ بالإيمان ، ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر ويأمره بالإسلام، ومتعلقات الإسلام وأركانه من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصَوْم رمضان ، وحج البيت مَن استطاع إليه سبيلاً .

والمشرك يتأبّى على الإيمان والتكاليف ، فهل يجرؤ على التأبّى على المرض أو الموت ؟

لا ، لذلك فهو يظلم نفسه ظُلْماً خائباً ، والحقُّ سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسانُ مَنْ يدلُّه على الطريق الموصِّل للغاية ، فَهَداه أي دَلَّه على الطريق الموصِّل للغاية .

ولا يتجنَّى سبحانه على خَلْقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم.

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزَّل إلى الظلم فى الكبائر، ثم فى الصغائر.

فالحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حَقٌّ أعلى ، وحَقٌّ أوسط ، وحَقٌّ أدْنى ، فإذا جئتَ للحق الأَدْنى فى أن تنقلَ الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى ، فهذا قِمَّة الظُّلم .

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ... (١٣)﴾ [لقمان]

لأن فى هذا نَقْلَ الألوهيـة من الله سبحـانه إلى غيـره ، ويا ليت غيـره كان صاحبَ دعوة إلى نفسـه ، بل إن الظالم تطوَّع من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكًا لله ، وفي هذا تطوُّع بالظلم بغير مُدَّعٍ .

وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإمّا أن القضية صحيحة ، وإما أنها غَيْرُ ذلك ، فإن افترض أحدٌ ـ معاذ الله ـ عدم صحتها ، فالإله الثانى كان يجب أنْ يعلن عن نفسـه ، ولا يترك غيـره يسمع له ويُعلن عنه ، وإلا كـان إلهاً أصمَّ غافلاً .

ولكن أحـداً لم يعلن ألوهيتـه غيـر الله سـبحـانه ؛ لذلك تثبت الألوهيـة الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقـد بيَّن لنا الحق سـبحـانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخـالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دَعْوى بأنه صاحبُ تلك الأعمال .

إذن : فقد صحَّتْ الدعوى فى أنه لا إله إلا الله .

ومـا دُمْنا قد تحـدثنا عن الظلم والظالمـين ، وأن الله حَرَّمـه على نفسـه ، وجعله بيننا مُحرَّماً ، فلابُدَّ أن نتحدث عن العَدْل الذى أمر به الحق سبحانه .

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾ [النحل]

لأن مجتمعاً ينفذ هذا هو مجتمع يصل صاحب الحقِّ فيه إلى حَقِّه، ويتنازل صاحب الفَضْل عن حقّه، وتستطرق النعمة إلى رحم كل إنسان، وإن مجتمعاً فيه هذا لمجتمعٌ سعيد، يسود فيه الحب والإيمان والإحسان.

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ[2] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾

[المائدة]

وحين يكون الواحد منَّا قوّاماً لله يكون قد استغلَّ حركة وجوده لخير خَلْق الله، وهذا العمل مطلوبَ منك، ولا يكفى أن تكون حركتك مَحْصُورة فى ذلك، بل يجب أن تمتدَّ أيضاً حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل، وكذلك تُوجّه للعدل مَنْ تُحدِّثه نفسه أنْ ينحرف.

وحين تكون قوَّاماً لله فهذا أمر حَسَن، وعليك أن تحاول إقناعَ غيرك بأن يكون قيامه لله، بأن تكون شاهداً بالقِسْط والعدل.

(١) لا يجرمنكم: لا يحملنكم بُغض قوم أن تعتدوا. وقيل: لا يدخلنكم فى الجرم. [لسان العرب - مادة: جرم].

(٢) الشناءة: البُغض. شنئ الشيء وشنأه أيضًا: أبغضه. وتشانئوا: تباغضوا. والشانئ: المبغض. [لسان العرب - مادة: شنأ].

وحين تـكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمـادى ظالم فى ظُلْمـه ، فالذى يجعل الظالم يشتـد ، ويستشرى ظلمه ، ويتفاقم شـره هو أنه يجد من يُدلِّسُون على العدالة ، ويسترون ويُخْفون العيوب ، ويخادعون الناس .

لكن لو وُجد الإنسـان الذى ينير الطريق أمام العدالة لمـا وُجد ظلم ، لكن الظالم يحب مَنْ يُدلِّس عـليه ، فـيقـول لنفـسه: إن فـلانًا ارتكب جـريمة مـثل جريمتى ونال البراءة.

وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات[١] ، ولو أن المجتمع حينما يرى أن شـهادة أفـراده هى شهـادة بالقسط وشـهادة بالعـدل ، فإن كل فـرد فى المجتـمع إذا هَمَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعلَ الظلم ، ولكانَ الظالم يـنال عقابه ، ويصير مثالاً لارتداع غيره.

والمـؤمن مُطَالبٌ أولاً بالقـيام لله بإصـلاح ذاته ، ومُطَالب ثانيًـا أن يشهـد بالقِسْط والعدل لإصلاح غيره.

وإياكم أن تُدخِلوا الهـوى فى مـقـاييس العدل. وهَـبْ أن المسـألة تتـعلَّق بعدوّكم أو بخُصومكم ، فالعدْل هنا أكثر أهميةً وأكثر وجوبًا.

---

(١) عن أبى بَكْرة رضى الله عنه قال قـال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبـر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال: «الإشـراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئًا فـجلس، فقال: «ألا وقول الزور» فمـا زال يُكرِّرها حتى قلنا : ليـته سكت» . أخرجـه مسلم فى صحـيحه (٨٧) كـتاب الإيمان ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤ ، ٥٩٧٦ ، ٦٢٧٣) .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ⑧﴾ [المائدة]

أى : لا يحملنكم بُغْض قوم على ألاَّ تعدلوا ، فتعتدوا عليهم ، فمَنْ له حَقٌّ يجب أنْ يأخذه ، وإلاَّ سيكون البُغْضُ لصالح عدوكم ، لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخلَ الهوى والبُغْض فى إقامة الميزان العادل ، فتحكيم البُغْض والعداء والهَوى يكون لصالح الخصوم.

ويضيف الحق سبحانه:

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ⑧﴾ [المائدة]

والعدالة حين تُطلب مع الخَصْم هى تقريعٌ لذلك الخَصْم ؛ لأنه خالف الإيمان ، ومن المؤكد أن الخَصْم يقول لنفسه : إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أنْ يقولَ الحق ، ولابُدَّ أن عقيدته تجعل منه إنسانًا قويًا ، وأن دينه الذى أمره بذلك هو نعْم الدين.

إذن: ساعة تحكُم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تُقرِّعه لأنه ليس مؤمنًا ، لكن لو رأى خَصْمك أنك قد جُرتَ ولم تذهب إلى الحق ، فأنت بذلك تُشجِّعه على أن يبقى كافرًا ، لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى.

أما إذا رآك وأنت تقف موقفًا يُرضِى الله مع أنه خَصْم لك ، فهو يستدلّ من ذلك على أن العقيدة التى آمنتَ بها هى الحقّ ، وأنك تقيم الحقّ حتى فى أعدائك.

فإنْ كرهتَ إنسانًا فلا يصحّ أنْ تظلمه ، والحق سبحانه لم يُحرِّم البُغْض؛ لأنه مسألة عاطفية ، ولكن التحريم ينحصر فى الإقدام على عمل يُخلّ بميزان العدل مع مَنْ تكره ، ويجب أن يؤمنَ الإنسانُ إيمانًا جازمًا بأن مَنْ ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله .

إذن : فالله سبحانه وتعالى لم يَنهَ عن الحب أو الكُرْه ، ولكنه نهانا عن أن نظلم مَنْ نكره ، أو نجامل مَنْ نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه صورة حيَّة لهذا ، فقد قتل أبو مريم الحنفى[١] زيدَ بن الخطاب[٢] شقيق سيدنا عمر فى معركة اليمامة ، ثم دخل فى الإسلام ، فكان كلما مرَّ أمام سيدنا عمر قال له: اصرف وجهك بعيداً عنى ، فإنى لا أحبك .

فقال له أبو مريم الحنفى: أو عدم حُبِّك لى يمنعنى حَقّاً من حقوقى ؟ قال : لا . فقال الرجل : إنما يبكى على الحبِّ النساء .

إذن : أحبب مَنْ شئْتَ ، وأبغض مَنْ شئْتَ ، ولكن إياك أنْ تظلمَ الناس لمن أحببتَ ، أو تظلم مَنْ أبغضتَ .

(١) هو: إياس بن صبيح بن عبد عمرو الحنفى، يُكنى أبا مريم. قال ابن سعد: كان من أصحاب مسيلمة ثم تاب وحسن إسلامه وولى قضاء البصرة فى زمن عمر . وذكر عمر بن شبة أن فتح رامهرمز كان على يديه . (الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة ١/ ١٢٠ ـ ٧/ ١٨٦).

(٢) هو أخو عمر بن الخطاب ، أمه أسماء بنت وهب ، من بنى أسد، وكان أسنَّ من عمر وأسلم قبله وشهد بدراً والمشاهد واستشهد باليمامة، وكانت راية المسلمين معه سنة اثنتى عشرة فى خلافة أبى بكر ، وحزن عليه عمر حزناً شديداً . (الإصابة ٣/ ٢٧) .

ولذلك يقول تعالى :

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ... ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام]

إذا ما تعودتَ العدل فى قَولك أَلِفْتَه وأَنِسْتَ به ، وأحببتَه حتى فى أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، فإن أقررتَ على شىء فى نفسك فَقُلْه بالعدل والحق .

والشهادة ، قُلْها بالحق . والحكم ، قُلْه بالحق . والوصية ، قُلْها بالحق . والفتوى ، قُلْها بالحق .

إذن : فالحق فى القول أمر دائر فى كثير من التصرُّفات ؛ لأنك إذا قلتَ بالحق أمكنك أنْ تعدل ميزان حركة الحياة ، فميزان حركة الحياة لا يختلُّ إلا إنْ رجح باطل على حقٍّ .

لأنك إذا حكمتَ لواحد بشىء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك فى الحياة يزهد فى الحركة ، لكن إذا ما حافظتَ على حركة كل مُتحرِّك ، وأخذ كل واحد حظَّه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنتْ كل الأمور ، ولم يَعُدْ هناك قوم يعيشون على جَهْد غيرهم وعَرَق سواهم .

إذن: فقوْلُ العدل هو مَنَاط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرشيدة .

والذى يُؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يُوجَد الهوى فهو يحاول أن يُميلك إلى ناحية ليس فيها الحقّ .

وأُولى النواحى أنْ يكون الأمـر مُـتـعلِّقـاً بك أو بقرابة لك ، وقـد تريد إنْ حكمتَ ـ والعياذ بالله ـ باطلاً ، أنْ تُسعِد ذا قُرْباك ، وأنت بذلك لم تُؤدِّ حقَّ القـرابة ؛ لأن حقَّ القرابة كـان يقـتضى أن تمنع عنـه كل شىء مـحرّم وتحـمى عِرْضه ، وتحمى دينه قبل أن تحمى مصلحته فى النفعية الزائلة .

ولذلك يأمرك الحق سبحانه بأن تقولَ الكلمة بالعَدْل ، ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قُرْبى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمتَ عليه لا له .

ويقول تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء]

وما دام المـؤمن قد بدأ إيـمانه بقمـة القِسْط ، وهو الإيـمان ، فليـجعل القسطَ سائداً فى كل تصرُّفاته ، وإياك أنْ تجـعل القِسْط أمراً أو حَدَثاً يقع مرة وينتهى ، بل افعل القِسْط فى كُلِّ أمور حياتك .

ولا يكفى أن يكـونَ المـؤمن قـائمـاً بالقِـسْط فـقـط ، بل لابُدّ أن تكون الشهادةُ لله . لماذا ؟

هَبْ أن رجلاً كافراً بالله ـ والعياذ بالله ـ ويقيم العدل بين الناس، لكنه لا يدخل بذلك العَدْل فى حيثية الإيمان ، فالذى يدخل فى حيثية الإيمان يكون قائماً بالقِسْط وفى باله الله .

وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا لِهوىً ولا لغرضٍ ، وإنما ليستقيم كَوْنُ الله كما أراد الله ، وإلا لو حكَم أحدٌ بهوىً لَفسَدت الأرض .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ (٧١)﴾

[المؤمنون]

والذى يُفسِد ويُشوِّش على العدل هو الهوى .

والمثل العربى يقول : «آفة الرأى هو الهوى»

وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى، حتى لا تَفْسد قدرتكم على العدل ، وتجنحوا بعيداً عنه .

* * *

نُصْرَةُ المظلوم

٢٩ يقول رَبُّ العزَّة سُبْحانه في الحديث القُدْسيّ :

« وَعِزَّتِي وجَلالِي لأَنتقِمَنَّ من الظَّالِمِ في عاجِلِه وآجِله، ولأَنتقِمنَّ مِمَّنْ رأَى مَظْلوماً فَقَدرَ أَنْ ينصُرَهُ فلَمْ يَنصُرْهُ » (١)

يقول الحق سبحانه عن أول ظلم وقع على الأرض بين ابنين من أبناء آدم :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ(٢) بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [المائدة]

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٠٦٥٢) من حديث ابن عباس ، وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٦٧) وقال : «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه من لم أعرفهم ».

(٢) باء بذنبه وبإثمه: احتمله . وقيل : اعترف به . وقال ثعلب في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ.. (٢٩)﴾[المائدة] معناه: إن عزمت على قتلي كان الإثم بك لا بي. (لسان العرب ـ مادة: بوأ)

فهذا أول تمرُّد على منهج الله وعلى أمره ؛ لذلك قال **هابيل**: **لا تَلُمْنى** فأنا لا دَخْلَ لى فى القربان المتقبَّل ، لأن هذا من عند الله ، والله لم يظلمك ، لأن ربنا يتقبَّل من المتقين ، وأنت لَسْتَ بمتقٍّ ؛ لأنك لم تَرْضَ بالحكم الأول فى أن تبتعد البطون[1] .

إذن : فأنت عندك إثْمان :

الإثم الأول : هو رَفْضُك وعدم قبولك حُكْم الله ومنهجه ، وهو الذى من أجله لم يقبل الله قُرْبانك .

والإثم الثانى: هو قَتْلى ، وأنا لا دَخْلَ لى فى هذه المسألة ؛ لأن الظالم لابُدَّ أن يأخذ جزاءه .

وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات[2] الظلم من الظالمين ، لأن الحق سبحانه لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم ، ولأصبح الذى لا يؤمن بالآخرة مُحْترِفاً للظلم .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤١): «قال السدى فيما ذكر عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد ومعه جارية ، فكان يزوّج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرع ، وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما ، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه وقال: هى أختى ولدت معى وهى أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى».

(٢) السُّعْر : شهوة مع جوع. والسُّعْر والسُّعُر : الجنون . وسُعار العطش : التهابه . والسُّعار : حر النار . (لسان العرب ـ مادة : سعر) والمقصود استشراء شهوة الظلم عند الظالمين .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مَثَل ذلك فى «سورة الكهف» ، حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين[1] ، الذى آتاه الله من كل شىء سبباً ، فأتبع سبباً .

وبعد ذلك بيَّن لنا مهمة مَنْ أُوتى الأسبابَ واتبع الأسباب ، وجعل قضيته فى الأرض لعمارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع .

قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[2] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف]

إذن : فقد خيَّره : إمَّا أنْ تعمل هذا ، وإمَّا أنْ تعمل ذاك .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ... ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف]

ذلك هو القانون الذى يجب أن يسير فى المجتمع ، حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله ، ولا يؤمن بآخرة أن يستشرى فى الظلم ، فليأخذ عقابه فى الدنيا.

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠٠) أنه كان فى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنه طاف بالبيت معه أول ما بناه ، وقرب إلى الله قرباناً . وقال على بن أبى طالب عن ذى القرنين : كان عبداً ناصحاً لله فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين.

(٢) أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه . (ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/ ١٠٢) وهناك قراءتان (حمئة ، حامية). قال ابن جرير الطبرى : «الصواب أنهما قراءتان مشهورتان ، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب» قال ابن كثير : «ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة فى ماء وطين أسود » .

يقول تعالى :

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ[1] ذَلِكَ ... ﴿٤٧﴾﴾ [الطور]

أى : قبل الآخرة لهم عذاب ؛ ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم ، أو ترى الخيبة التى حدثتْ له فَهُمْ يأخذون من ذلك العظَة ، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكَّل بعضهم ببعض ، ولو مُكِّنَ الظالمون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض .

فهؤلاء الظالمون لهم عذابٌ أقربُ من عذاب الآخرة ، لأنه لو أُجِّلَتْ المسألة كلُّها للآخرة لاستشرى بغْى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة .

أما مَنْ يؤمن بالآخرة ، فهو مَنْ يحيا بأدب الإيمان فى الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج ، عكس مَنْ يُعربد فى الكون ، لذلك لابُدَّ أن يأتىَ العقاب لمن يُعربِّد فى الكون أثناء الحياة الدنيا .

وأراد الحق سبحانه أن يجرى عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

ولقد رفض «ذو القرنين » أن يأخذ مقابلاً لبناء الرَّدْم[2] ؛ لأن مهمة الأقوياء فى الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوى .

---

(١) دون هنا بمعنى (قبل) ، كقولك : دون النهر قتال . ودون قتل الأسد أهوال . أى : قبل أن تصل إلى ذلك . (اللسان ـ مادة : دون).

(٢) الردم : السد . والردم : ما يسقط من الجدار إذا انهدم . وكل ما لُفق بعضه ببعض فقد رُدِم . (اللسان ـ مادة : ردم) قال ابن عباس : أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير (ما مكنى فيه ربى خير) أى: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه .(تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤)

ولو أن كُلَّ قـوى أراد ثَمنًا لِنُصْـرة الضعـيف لاخـتلَّ ميـزان الكون وطغَى الناس ، ولكنّ الأقـوياء فى عالمنا يريدون أنْ يظلمـوا بقوتهم ، لذلك يـختلّ ميزان الكون الذى نعيش فيه .

ولننظر إلى تفـويض الله لـ «ذى القرنين» ، وكـيف أحسن «ذو القـرنين» الحكْم بين الناس ، وأقام العَدْل فيهم ، وكيف ترصَّد الظالمين .

﴿**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**[1] (٨٧) **وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ** (٨٨)﴾ [الكهف]

هكذا أقـام «ذو القـرنين» العَـدْل ، بتـعذيـب الظالم ، وتكريم المـؤمن صاحب العمل الصالح .

فأوّل مـا يجب أنْ يهتم به كل مُـمكَّن فى الأرض ، بعد توليـد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده .

وفى هذا إصلاح لحركة الحيـاة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيثون[2] فساداً وظُلْمـاً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة .

---

(١) نَكُر الشىء فهو نُكْر : اشتد وصَعُبَ ، أو قَبُح واستوحشت منه النفوس .

(٢) العَيْث : الإسراع فى الفساد . عاث الذئب فى الغنم : أفسد . عاث فى مـاله : أسرع إنفاقه . (اللسان ـ مادة : عيث) .

ولو تركناهم ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً ، والفسادُ فى المجتمع لا يصيب المفسدَ فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله .

إذن : فلا بُدَّ أن نُعجِّل لهم بالعقوبة فى الدنيا ، لنحميَ المجتمع من الفساد ، ثم يُعذِّبهم الله فى الآخرة ، وهم لم يؤمنوا به سبحانه ، ولم يحسبوا حسابَ لقائه يوم القيامة .

وإنْ لم يُحصَّن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولىّ ومُسلَّط ، سنجد كل إنسان وهو يضنُّ بجهده فى الحياة يكتفى بأنْ يصنعَ على قَدْر حاجته ، بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً ، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة ، ولا يعمل إلا بقدْر ما يكفيه فقط .

فإذا ما حدث ذلك فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أىَّ فائض ليعيشوا به ، وهذا يُحدث الفساد والخلَل فى حركة الحياة.

والحق سبحانه يأخذ الظالمين درجةً درجةً ، فهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويعطيهم نعمه ، ثم يرهقهم بما وصلوا إليه ، فإنه سبحانه يُملى للظالم ويُعليه ، ثم يُلقيه من علٍ .

يقول تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1] (٤٤)﴾

[الأنعام]

---

(١) أبلس : حزن ويئس وتحيَّر وسكت غمّاً وهمّاً ، أو سكت لانقطاع حجته ، وكلها معان متقاربة. والإبلاس: الانكسار والحزن . والإبلاس: القنوط وقطع الرجاء من رحمة الله تعالى. (لسان العرب ـ مادة : بلس) .

أى: لم نُعجِّل بعقاب الظالمين ، بل تركناهم فتمادوا فى المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، فسبحانه يمدُّ ويُملى لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شىء .

فالحق سبحانه يرفع الظالم إلى درجات عالية ، ثم يخسف به الأرض .

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق سبحانه ينتقم منهم انتقاماً يناسب جُرْمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية .

لذلك يُوسِّع عليهم فى كل شىء ، حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضَّربة قوية قاصمة ، ويصيبهم اليأس والحسرة .

وربنا سبحانه يعطى الظالمين الكثير ، ويمدُّهم فى طغيانهم ، ثم يأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر ، وقد دلَّتْ وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبَّار فى الأرض والحق يُملى له فى العُلو ويمدُّ له فى هذه الأسباب ، ثم يأخذه أَخْذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

يقول تعالى :

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا[1] فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾ [هود]

(١) الترف : التنعُّم . والمترَفُ : المتنعِّم المتوسِّع فى ملاذِّ الدنيا وشهواتها . (لسان العرب ـ مادة: ترف) . أى: أن الذين ظلموا جروا وراء شهواتهم وتمادوا فى الترف فأبطرهم وأطغاهم .

فالترف الذى عاشوا فيه جاء من الظلم ، وأَخْذ حقوق الناس ، وامتصاص دماء الكادحين ، حتى أطغتْهم النعمة ، وأنستهم المنعم سبحانه ، وقد مدَّ الله لهم فى النعمة .

ويقول تعالى :

﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي**(١) **مَتِينٌ (١٨٣)**﴾

[الأعراف]

والإملاء هو الإمهال ، وهو التأخير ، أى : أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعة يقوم الظالم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات .

ونسمع دائماً مَنْ يقول : لو لم يكُنْ هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً ، فالإيمان يعطى الأُسْوة واليقين .

والإملاء للظالم ليس إهمالاً له من المولَى تعالى ، بل هو إمْهال فقط ، ثم يأخذه الله أَخْذ عزيز مُقْتدر .

والحق سبحانه يُوضِّح : إذا كنتُ سأستدرج وسأُملى ، فاعلم أن كيدى متين .

---

(١) الكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكائدين ومعاقبتهم على ما دبَّروه من كيد .

والكَيْـد هو المكْر ، والمكر هو أَخْـذهم من حَـيْثُ لا يشعـرون ، وهى عملية خفـيّة تسوء الممكورَ به ، وهو تدبير خـفىّ حتى لا يملك الممكور به مَلكَات الدَّفْع .

وإذا كان البشر يمكرون ويُدبِّرون تدبيراً يَخْفى على بعضهم ، فماذا حين يُدبِّر الله للظالمين مكيدة أو مَكْراً ؟

أيستطيع واحد أنْ يكشفَ من ذلك شيئاً ؟

طبعًا ، لن يستطيع أحدٌ ذلك .

وهكذا أراد الله سـبحانه الإمـهال والإمـلاء ليكون لهما مـعنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم لتزداد مظالمه زيادةً تجعل الأمة التى يعيش فيها تكره ظُلْمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحدٌ .

ولذلك نجد الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُعذِّب أحداً يقول :

﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ[1] مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور]

---

(١) قال ابن عبـاس : الطائفة الرجل فما فوقه . وقـد ذكر ابن كثير فى [تفـ]ـسيره (٣/ ٢٦٢) أقوالاً كثيرة فى تحديد عدد من يشهدون إقامـة الحد . وقد قال قتادة : أى نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً .

وذلـك ليـتمَّ التـعـذيب أمـام المـجتـمع الذى شَـقى بإفـسـادهم وشـقـى بمظالمهم ، فمن يُعتدى على عِرْضه ويرى عذاب المعتدى فهو يُشْفى .

إن عَدْلَ الرحـمن هو الذى فرض علينا أن نتـعامل مع الجـريمة بالعـقاب عليها ، وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا .

إن الذى يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضاً على حقوق الله ؛ ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس .

وفى إنزال العقاب بالمعتدى خضوعٌ لمنهج الله ، وفى رؤية هذا العقاب من قِبَل الآخرين هو نَشْـرٌ لفكرة أن المعتدى ينال عـقاباً ، ولذلك شَرَع الحق سبحانه العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية .

والحق سبـحانه مُنزَّه عن أنْ يُهلكهـم بمجاوزة حَـدٍّ ، لكن له أنْ يُهلِكهم بعدْل ؛ لأن العدلَ ميزانٌ ، فإن كان الوزْنُ نـاقصاً كان الخسران ، ومن العدل العقاب ، وإنْ كان الوزن مستوفياً كان الثواب .

وفى مجالنا البشرى ، لحظة أنْ نأخذَ الظالم بالعـقوبة فنحن نتعبه فعلاً ، لكننا نُريح كُلَّ المظلومين ، وهذه هى العدالة فعلاً .

ومن خطأ التقنينات الوضعـية البشرية هو ذلك التراخى فى إنفـاذ الحقوق فى التقاضى ، فقد تحدثُ الجريمة اليوم ، ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم

إلا بعد عَشْر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ، وهذا يُضعف الإحساس ببشاعة الجريمة .

ولذلك حرصَ المشرِّع الإسلامى على ألاَّ تطولَ المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم فى حُمُوَّة وجود الأثر النفسى عند المجتمع ، يجعل المجتمع راضياً بعقاب المجرم ، ويُذكِّر الجميع ببشاعة ما ارتكب ، ويُوازِن بين الجريمة وعقوبتها .

لذلك ترى أن الناسَ إذا رَأَوا الظالم ثم لم يضربوا على يده ، فإن الله يَعُمَّهم بغضب من عنده ؛ لأن الظالم يتمادَى فى ظُلْمه وطُغْيانه ويُعربد فى الآخرين ، فيستشرى الظلم فى المجتمع ويحقّ على الجميع عقاب الله[1] .

ولذلك نجد أبا بكر ﷺ يبين لنا ذلك، فيقول :

أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .. (١٠٥)﴾

[المائدة]

(١) عن أبى بكر ﷺ قال: إنَّا سمعنا النبى ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٢٨) ، والترمذى فى سننه (٢١٦٨، ٣٠٥٧) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٧).

وإنكم تضعونها على غَيْر موضعها ، وإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه ، يوشك الله ـ عز وجل ـ أنْ يعمَّهم بعقابه»[1] .

ويُبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا بمثال واضح يتفق عليه الكل ، فيقول ﷺ :

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا[2] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم ، فقالوا: لو أنَّا خَرقْنَا خُرْقاً فى نصيبنا ولم نُؤْذِ مَنْ فوقنا ، فإنْ يتركوهم وما أرادوا هلكُوا جميعاً ، وإنْ أخذُوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً»[3] .

فالرسول ﷺ يضرب لنا المثَلَ بقوم ركبوا سفينة ، وأجْرَوْا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين ، جماعة تجلس فى النصف الأعلى من السفينة أىْ على سطحها ، وجماعة تسكُن فى بطن السفينة ، حَسْب ما تأتى به قسمة القُرْعة ، وهى ما يُسمَّى بالاستهام .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢، ٥، ٩)، وابن ماجه فى سننه (٤٠٠٥) من حديث أبى بكر رضي الله عنه .

(٢) استهموا : اقترعوا . أى : أجروا بينهم قرعة .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٩)، والبخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

وهذا يدلُّنا على أنهم أُنَاسٌ طيِّبون ، ولا تُوجد فيـهم جماعة قـوية تفرض شيئـاً على جماعـة ضعيفة ، وكـان الذين يسكنون أسفل السفـينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأوانى من فوق سطح السفينة إلى النهر .

ولو تُرك الذين فى أسفل السفيـنة لتنفيذ رغبتهم فى خَرْق السـفينة ليأخذوا الماء فى النهـر لَغَرقتْ السفـينةُ ، لكن إنْ ضرب الذين يعيـشون فوق السـفينة على يَدِ مَنْ يريدون خَرْقها لَنَجْوا جميعاً .

إن ما يجـعل الناس تتهـاون فى التعـاون على البرِّ ، ويجتـرئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجـتمعاتهم رَادِعاً ، ولو وجدوا الرَّدْع من المـجتمع لَحَمى المجتمعُ أفراده من الإثم .

وإنْ صـار للمجتـمع وَعْىٌ إيمـانىٌّ لَقَاطعَ المـخـالفين وأشـعـرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثالُ هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيمانى فهُمْ يرجعون إلى المنهج الحق .

فمـا يُغرى الناس على الجـرائم الكبيـرة إلا تهاونُ المـجتمع فـى الجرائم الصغيـرة ، ولذلك يلفتنا الحقُّ سبـحانه أنه لن يترك الأمر كمـا تركه بعضٌ من خَلْقه ؛ لأن الخَلْق قد يُجامِلون ، وقد لا يقفـون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقابِ .

سيأتى عقاب الله فى وقت ليس للفرد فيه جاهٌ من مال أو حَسَب أو نَسَب يحميه من الله ، فإنْ أطمعك ضَعْف المجتمع فى أن تظلم وأن تتعاونَ على الإثم ولا تنصر المظلوم ، فعليك أنْ تخافَ الله ، لأن عقابه شديد .

وكيف يأتى عقابُ الله إلى المذنب ؟

لا نعرف ، لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقابَ يتسلَّل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف الظالم والآثم فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج مَنْ يحب .

وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة ، بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أنْ يعرفها ، وهذه هى شدة العقاب .

وهكذا يكون فَهْمُنا لقَوْل الحقِّ تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾ **[الأنفال]**

ولسائل أنْ يسألَ ويقول : إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم ، والظالم هو الذى يستحق العقاب على ما وقع منه من ظُلْم ، ولكن ما ذَنْب المظلوم ؟

والجواب : أن المظلوم قد كان فى مُكْنته أنْ يردَّ الظلم ، لكنه سكت عن ذلك ، فاستحق أنْ يشمله العقاب .

وإنْ لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الظلم والظالمين ، أنزل الله بها العقاب ، وعقاب الحقِّ تبارك وتعالى أشدُّ من عقاب الخلق .

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)﴾ [الأنفال]

أي: أن الله أَقْوى من كل ما تصنعون فى كَوْنه ، وعقابُه تعالى شديد وأليم ، بسبب ذنوبهم ، وما دام الحق ـ تبارك وتعالى ـ قد توعَّدهم بعقاب شديد ، فهذا دليلٌ على شِدَّة ظُلْمهم .

ويقول تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾

[هود]

والأَخْذ هنا عقابٌ على العمل ، بدليل أنه أنْجى شُعَيْباً عليه السلام ، وأخذ قومه بسبب ظُلْمهم ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذى يستحقّ العقاب .

فَأَخْذُ الله لهم كان بسبب ما ارتكبوه من ظُلْم وإفساد فى الأرض ، والإنسانُ حين يجد سُوءاً يُحيط به ، وعذاباً أليماً يأتيه فهو يُحاول أنْ يفرَّ منه .

ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر]

أى : أن قدرة الله تعالى تُمسِك الظالم مسْكة مُحْكمة ، فلا يستطيع فِرَاراً أو هروباً .

وكلمة «مُقْتدِر» تناسب شدة الأَخْذ .

وكلمة «عزيز» تعنى أنه آمن من أنه لن يأتى أحدٌ يغلبه ، فالله حين يأخذ أحداً يأخذه أَخْذ عزيز لا يُغْلَب .

وهذا الأَخْذ من الله ليس بَطْشاً أو جبروتاً ، ولكنه أخذهم بذنوبهم ، لأنه سبحانه عادلٌ ومُنَزَّهٌ عن الظلم .

ولذلك يقول تعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ونعلم أن العقاب لا يعُمُّ الناس إلا بقَدْر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لكُلٍّ جزاؤه على قَدْر ذنبه .

وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)﴾ [البقرة]

والأَخْذ دائمـاً يتناسب مع قوة الآخـذ ، فلو جذبكَ طفل فلن يُـؤثِّر فيك ، لكن لو جذبكَ شابٌ قوىٌّ سيُوقـِعك على الأرض ، فما بالُكَ بأَخْذ الله القوى العزيز ؟

إنه أَخْذ عزيزٍ مُقْتدِر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ[١] وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ [الحج]

فـالمؤمنون أُخـرِجوا من ديارهم بـغيـر ذنب أو جريمـة ارتكبوها ، وكـان ذنبهم هو قولهم «ربنا الله» ، فكأن هذا ذنبٌ يستحقون عليه الإخراج من الدِّيارِ والتشْريد .

وهذه ليستْ أوَّلَ سـابقة فى التاريـخ يتعرَّض لهـا أتباعُ الحق ، بل سبـقهم أقوام كثيرون مثل أصحاب الأخدود[٢] الذين قال القرآن عنهم :

---

(١) الصوامع : المعابد الصغار للرهبان . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

البيع : هى أوسع من الصوامع وأكثر عابدين فيها وهى للنصارى أيضاً .

الصلوات : كنائس اليـهـود . وفى قـول أنها كنائـس النصارى . وفى قـول آخـر أنهـا معـابد للصابئين . (راجع : تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦) .

(٢) الأخدود : الـشق المسـتطيل فى الأرض . وأصحـاب الأخدود : هم قـوم شقوا أخـدوداً فى الأرض وأضرمـوا فيـه النار وألقوا المـؤمنين فيـه وأحرقـوهم ؛ لأنهم لم يقبلوا الـرجوع عن إيمانهم بالله تعالى .

﴿وَمَا نَقَمُوا[1] مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⁨٨⁩﴾ [البروج]

ومثل آل لوط الذين أخرجهم قومهم من قريتهم لأنهم كانوا مؤمنين طاهرين، وهم أنجاس مناكيد[2] كافرون معاندون .

قال تعالى :

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ⁨٥٦⁩﴾ [النمل]

فهم نَقَموا من شيء كان يجب أنْ يمدحُوه ، لأن الإيمانَ يُسوِّى حركة المجتمع ، فلا يجعل أحداً يسرق من أحد ، أو يعتدى على أحد ، أو يظلم أحداً ، أو يعتدى على ماله أو عِرْضه ، أو حتى يذكُره بسُوء .

فهذا شيءٌ كان يجب أنْ يُحبّوه ويُشجِّعوه ، ولكنهم فَسدتْ طباعهم ، فجعلوا المحبوب مكروهاً ، وانصرفوا عَمَّا كان يجب أنْ يُقبلوا عليه .

وذلك لأنهم كانوا ممَّنْ لا يؤمنون بيوم القيامة ، وأن هناك بَعْثاً وحساباً وثواباً وعقاباً ؛ لذلك تجدهم يُعربدُون فى الكون ويُفسدون فيه .

والوَيْل للناس ممَّنْ لا يؤمن بيوم القيامة ، لأنه سيستشرى فساده ويُسرف على نفسه فى المعاصى والمظالم ، فالذى لا يؤمن بالآخرة لن يأتىَ منه خَيْر ، وسيظلّ يُفسد فى الأرض ، ويُعربد فى المجتمع .

(١) انتقم الشيء ونقم الشيء : أنكره . والنِّقمة : الإنكار . (لسان العرب ـ مادة : نقم) .

(٢) النَّكَد : الشؤم واللؤم . وكل شيء جَرَّ على صاحبه شراً فهو نكد . والنُّكْد والنَّكْد: قلة العطاء. (لسان العرب ـ مادة : نكد) .

فجعل الله لهم عقاباً فى الدنيا قبـل الآخرة حتى يحمى الله المجتمعَ من شُرورهم ، فالذى لا يؤمن ولا يخشى عذابَ الله فى الآخرة يخاف ممَّا قد يناله من عقاب الدنيا .

ولذلك يقولون : لا يموتُ ظالم فى الدنيا حتى ينتقمَ الله منه ، ومن تمام انتقـام الله من الظالم أنْ يرى هذا الانتـقام مَنْ ظلمـهم هذا الظالم حتى يَـشْفى نفسه منه .

ولذلك لما قيل : إن بالشام ظالماً مات ولم ينتقم الله منه ، قال مَنْ سمع هذا الكلام قال : أنا لا أكذبها ، ولكن غير معقول أنْ يموتَ ظَلُوم قبل أن ينتقم الله منه ، فلابُدَّ أنه انتقم منه ، ولكن الناس لم يعرفوا هذا الانتقام .

وهذا يدلُّنا على أن وراء هذه الدار داراً ، يُعـاقَبُ فيها المـسىء بإساءته ، وإلاَّ فلا يمكن أنْ يترك اللهُ الظالمَ دون عقابٍ .

وقد مدح اللّه تعالى المخبتين ، وقال :

﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾ [الحج]

والمخبت هو المتواضع المنكسر الخاشع لكُلِّ أمر من أوامر اللّه ، لأن الذى لا يكون مُخْبِتًا يكون مُتمرِّدًا مُتفرعنًا كأنه لم يشهد خالقه .

فالإنسان يتمـرَّد ويتعالى حينما يجد نفسـه أكبر من الذين حوله ، فلو أنه استحضر جلال ربِّه لَخشع وتواضع ، ولكنه غافلٌ عن العظمة الإلهية ، فلا يرى إلا نفسه .

ولذلك يقولون : الإخباتُ نوعان :

ـ إخباتٌ للّه من خشوع وخضوع وطاعة لأوامر اللّه .

ـ وإخبات لخَلْق اللّه ، بحيث إذا ظلمه أحدٌ لا ينتقم منه ، لأنه يعلم أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

انظر إلى أبنائك ، إذا ظلم أحدهم الآخر ، قلبُك سيكون مع المظلوم ، فتُقربِّه منك وتُراضيه ، وتأخذ له حَقَّه وتعطيه ما يطلبه وتسترضيه ، حتى أن أخاه يغارُ منه ويتمنَّى أنْ يكونَ هو الذى حدثَ له ذلك حتى يُقرِّبه أبوه ويعطف عليه .

كذلك الخَلْق كلهم عيالُ اللّه ، وأحبُّهم إليه أرحمهم بعباده .

فالمخبِتُ حين يظلمه أحد يُفوِّض أمره إلى اللّه وهو مُطَّلِع على كل شىء ، كما أن العبد إذا رَدَّ على الظلم سيردُّ بقوته الضعيفة ، لكن لو تركها لقوة اللّه سيكون الردُّ مُنَاسبًا لقوته سبحانه .

وأحيانا يقع الظلم على إنسان ، ويكون هو قد ظلم غيره من قبل .

ورب العزة سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« يابْنَ آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئتَ أجبْنَاك وأجبْنَا عليك ، وإنْ شئت أخَّرْتكُما إلى الآخرة فيسعْكُما عَفوى » [1] .

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة أنه قال: إن ظللت تدعو على من ظلمك، فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

فالمخبت لا يصدر منه ظُلْم لأحد ، وإن ظلمه أحدٌ يتركه للّه ، لأنه يعلم أن اللّه سيكون معه .

ولذلك قُلْنا سابقًا : لو علم الظالم مَا أعدَّه اللّه للمظلوم من الكرامة لَضَنَ عليه بالظُّلْم .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**[1] **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

اعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هَيِّنًا لَيِّنًا مع إخوانه من المؤمنين ، فإنْ عَزَّ عليه أخوه المؤمن فَلْيَهن له ، فإنْ تعالى أو تعالَم أخٌ مسلمٌ عليك ، فلاَ تَتعالَ عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركةٌ بينكما ، بل تواضع أنت ، ليزيدك اللّه رِفْعة وعِزَّة .

وكأن اللّه سبحانه وتعالى يؤكد لك : إنك حين تعطى العفو تأخذ الخير من خلاله ، فالظالم بظلمه يجعل اللّه فى جانب المظلوم ، ولذلك يحتاج الظالم إلى أنْ نُحسن إليه حيثُ كان سببًا فى رعاية اللّه لنا ، فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصرى[2] عندما قيل له:

---

(١) العرف : المعروف الذى تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن .

(٢) هو: الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد ، تابعى كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء والشجعان النساك ، ولد بالمدينة ٢١ هـ، وشب فى كنف على بن أبى طالب رضي الله عنه، سكن البصرة ، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، توفى بالبصرة عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً .

إنَّ فلانا اغتابك بالأمس .

ونادى سيدنا حسن البصرى الخادم وقال له : جاءنا طبق من باكورة الرطب . اذهب به إلى فلان ـ وحدَّد للخادم اسم مَنْ اغتابه ـ وتعجَّب الخادم : كيف تبعث بالرطب إليه ، وهو قد اغتابك ؟

فقال: أفلا أُحسن إلى مَنْ جعل اللّه بجانبى . قُلْ له : يقول لك سيدى بَلَغَهُ أنك قد اغتبْته ، فأهديْتَ إليه حسناتك ، وهو أهداكَ رُطَبه (١) .

وهذه درجة راقية من العمليات والانفعالات الشعورية ، فالعمليات الشعورية التى تنتابُ الإنسان فى التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد فى النفس تدفع إلى النزوع .

والعملية النزوعية هى رَدُّ الفعل لما تُدركه ، فإنْ آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك ، فأنت تبذل جهدًا لتكظم الغيظ ، أى : أن تحبس الغيظ على شدة ، فالغيظ يكون موجودًا ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط .

وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقى الغيظ فى القلب .

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن: إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ،فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

هذه مرحلة أولى ، تتبعها مرحلة ثانية ، هى :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فإذا كـان المطلوب فى المرحلة الأولى منْع العـمل النُّزوعى ، فالأرْقى من ذلك أنْ تعـفو ، والعـفو هو أن تُخـرِج المسـألة التى تغـيظك من قلبك ، وإنْ كنتَ تطلب مرحلة أَرْقى من كَظْم الغيظ والعفو فأحسن إليه ، لأن مَنْ يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانيًا.

إنه يحتـاج منَّا إلى كَظْم الغيظ ، أو العفـو كدرجة أَرْقى ، أو الإحسـان إليه كمرحلة أكثر عُلُواً فى الارتقاء.

إذن : فـالحقُّ سبـحـانه وتعالى يبـيح أن تردَّ الاعـتداء بالـمثل ، ثم يُفـسِح المجال لكظْم الغيظ فلا نعتدى ، ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخـرى إلى العفـو ، وأن نُخرِجَ المـسألة مـن قلوبنا ، ثم يرتـقى ارتقاءً آخـر ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

ومَنْ فينا لا يرغب فى حُبِّ الله له؟

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب منِّى أن أُحسن إلى مَنْ أساء إلىّ ؟

والرد: أنت وهو لَسْتـما بمعزل عن القـيوم سبحـانه ، فهو قيـوم ولا تأخذه سِنَة ولا نوم ، وكل شىء مرئى له سبحانه ، وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى

الله واحدًا من صنعته يعتدى عليك أو ليسىء إليك ، فسبحانه يكون معك ويُجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدى عليه.

إذن : فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه فى جانبك ، وتكون تلك الإساءة فى جوهرها هدية لك.

وعندما نتأمل المسألة نجد أن الذى عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انْتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، أما حين يعفو فإنه يجعل المسألة لله ، وقدرته سبحانه غير محدودة إنْ أراد أنْ يردَّ عليه.

وقد يردّ الحق سبحانه بأن يُرضى المعتَدى عليه بعطاء غير محدود.

هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافى المحسن، وهو السميع العليم بكل شىء .

* * *

لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب

[٣٠] يقول رَبُّ العزّة سبحانه فى الحديث القُدْسى:

« إنَّا أَنْزَلْنَا المالَ لإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَـاءِ الزَّكَـاةِ، وَلَوْ كـانَ لابْنِ آدَم وَادٍ لأَحَبَّ أنْ يكُونَ إليـه ثَانٍ، وَلَوْ كانَ لَهُ وَادِيَانِ لأَحبَّ أنْ يكُونَ إليهما ثَالثٌ، ولاَ يملأُ جَـوْفَ ابْنِ آدَم إلاَّ التُّـرابُ، ثُمَّ يَتُوب اللهُ علَى مَنْ تَابَ » (١)

ما هو المال؟

إن المال هو كـل ما يتمـول، إلا أننا نصرفـه إلى شىء يمكن أن يأتى بكل مُتمول، وأسميناه بالنقد، وأصـبحتْ له الغلبة، لأننا نشترى بالنقد كل شىء، لكن المعنى الأصلى للمال هو كل ما يتمول.

---

(١) أخرجـه أحمـد فى مسنده (٥/ ٢١٨) وأورده الهـيثـمى فى مجمع الـزوائد (٧/ ١٤٠) وعزاه لأحمد والطبـرانى. وقال الهيثمى: رجال أحـمد رجال الصحيح. ونسبـه العراقى فى تخريج الإحياء (٣/ ٢٣٢) لأحمد والبيهقى فى شعب الإيمان وصحح سنده.

وكيف يجيء المال لك ، أو لى ، أو لأى إنسان؟

أخرجَ أحدٌ منّا من بطن أمه وهو يملك شيئًا؟

لا .. إن مَا يملكه الإنسان يأتى إما من متحرك فى الحياة قبلك ، إنْ كان والدك أو جدّك ، وإما من حركتك أنت.

والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإنْ اتسعت أكثر فستكون لأحفاده.

والحق سبحانه يُفرِّق بين مال يكتسبه الإنسان بجهده وكَدِّه وتَعبه ، ومال آخر يرثه الإنسان.

يقول تعالى :

﴿قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ [1] وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا [2] وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة]

(١) العشيرة : جماعة الرجل الذين يعتز بهم ، قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء] أى : قومك. [القاموس القويم ٢ / ٢٢].

(٢) كسدت السلعة كساداً : بارت ولم ترُج لقلة الرغبة فيها. قال تعالى : ﴿تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا .. (٢٤)﴾ [التوبة]

فاقتراف المال هو أَخْذها بجهد ومشقة وتعب، وهو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيه صاحبه ، وإنما ورثه عن غيره ، وفى هذه الحالة يكون أمره هَيِّناً على صاحبه.

أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكَدِّه ، فصاحبه أكثر حِرْصاً عليه من المال الموروث.

والحق سبحانه يقول :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

فهذه الأشياء زينةُ الحياة الدنيا.

ومعنى الزينة: الحُسْن غير الذاتى ، فهناك حُسْن ذاتىّ فى الجوهر ، مثل المرأة الجميلة بطبيعتها بدون مساحيق أو أصباغ أو حُلىّ ، لأن حُسْنها ذاتىّ.

ولذلك تُسمَّى المرأة الجميلة غانية ، لأنها استغنتْ بجمالها الذاتى فى جوهرها عن أنْ تتزينَ بأىّ شىء .

يقول تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران]

---

(١) الخيل المسومة المرسلة وعليها ركبانها. وهى أيضًا التى عليها السُّومة ، وهى العلامة. [لسان العرب ـ مادة : سوم].

فهو سبحانه يقول للناس : خذوا الحياة على قَدْرها.

وزُيِّن يعنى حسن. فمن الذى حَسَّنها؟ لقد حسَّنها الله عز وجل ، فكيف تنسى الذى حسَّنها لك ، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرُّفك؟

كان يجب أنْ تأخذها وسيلةً للإيمان بـمن رزقك إياها، وكلما ترى شيئًا جميلاً فى الوجود تقول «سبحان الله » وتزداد إيمانًا بالله ، أما أن تأخذ المسألة وتعزلها عمَّنْ خلَقها ، فذلك هو المقياس النازل.

أو : أن الله سبحـانه وتعـالى هو الذى زيَّنها بأنْ جـعل فى الناس غـرائز تميل إلى مـا تعطيه فى هذه الحياة الدنيـا ، ونقول : هل أعطى سبحـانه الغرائز ولم يُعْطِ منهجًا لتعلية هذه الغرائز؟

لا ، لقد أعطى الغـرائز ، وأعطى المنهج لتعليـة الغرائز ، فـلا تأخذ هذه وتترك تلك.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

وعندما نتأمل الآية فـى مجموعها نـجد أن مفاتيح كل شخـصية تريد أنْ تنحرفَ عن منهـج الله تجذب الإنسانَ لينحـرفَ عن مُرادِ الله فى منهـجه ، إنه سبحانه يطلب من عبده المؤمن أنْ يبنى حـركة حياته على مراد الله ، فما الذى يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حُكْم يناقضه؟

لا شكَّ أنه الهوى ، والهوى هو الذى يُميل ويُزيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاحه ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح لهواه ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يحب أن يرعاهم رعاية تفوق دَخْله من عمل أو صناعة مثلاً ، فقد يسرق أو يرتشى ليسعد هؤلاء.

وأناس مفاتيحهم الشخصية فى المال ، أو فى زينة الخيل ، والعُدَّة والعتاد ، فلكل شخصية مفتاح هوى.

والذين يدخلون على الناس ليُزيِّنوا لهم غير منهج الله يأتون لهم بالمفتاح الذى يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تُغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب، إنما يتملكه حُبُّه لأولاده ، وهو الهوى الغَلاَّب.

وهناك مَنْ يمتلكه حُبُّ المال ، حتى إنه إذا كان يملك منه قنطاراً فإنه يطمع فى الزيادة ، مثلما يطمع مَنْ يملك ألف جنيه فى أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه.

لذلك قال سبحانه :

﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. (١٤) ﴾ [آل عمران]

فالقناطير المقنطرة تعنى الرغبةَ فى المبالغة فى الغِنَى.

ورسول الله ﷺ يقول :

«لو أن ابن آدم أُعطِى وادياً مـلآن من ذهب أحبّ إليه ثانـيًا، ولو أعطى ثانيًا أحبّ إليه ثالثاً » (١)

أى : أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أن يحتـفظ بالواديين كما هما، ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وادٍ واحد.

فالإنسان بطـبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثـير ، لماذا؟ لأن كثيرًا من الناس ينسوْنَ الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء.

ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أنْ يحتاطَ لنفـسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أنْ يحتاطَ لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أنْ يحتاطَ لأحفاده.

ولكن المـؤمن الحق هو مَنْ يعـرف أن الحيـاة الدنيـا طريق العبـور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصـيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللـون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتيـاط هذه هو مَنْ يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخَلْق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجـد أولئك الذين يسرفـون على أنفسـهم ويتبـعون شهـواتهم وهـم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أنْ تُعطـيه لهم حلالاً أو حرامًا ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى .

---

(١) أخرجه مـسلم فى صحيحـه (١٠٤٨) كتاب الزكاة من حـديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب».

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يجدُّ فى دروسه ، ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهرًا ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة ، لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمانٌ مُؤَقَّت.

وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدَّخْل المرتفع إلى آخر ما يمكن أنْ يُعطيه له المستقبل.

أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ، ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوةً عاجلة لِيظلَّ فى مُعاناة بقية حياته.

إذنْ : فكُلٌّ من الطالبيْن أعطى نفسه ما تريد.

الأول : أعطى نفسه مُستقبلاً مريحاً مُمْتداً ، وصار قمةً من قِمَم المجتمع.

والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صُعْلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذنْ : فإياك أنْ تنظرَ تحت أقدامك فقط ، لأن العالم لا ينتهى عند موقع وقوف قدميْك هاتين ، ولكنه مُمتدٌّ إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق فلا يليقُ بك أنْ تختارَ متعة وَقْتية قليلة.

ولننظر إلى قول الله سبحانه عن الأشياء المزيَّنة :

﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(١٤) ﴾ [آل عمران]

أى : أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزيَّنة نظرة تقليدية سطحية سيجدها مجردَ متاعٍ ، وما عمر هذا المتاع؟

إنه مَوْقوتٌ بالدنيا الفانية ، ولنُسلِّم جدلاً أن شيئاً لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حىّ ، وأنها ستظلُّ معك طيلَةَ دُنْياك ، فما قيمة الدنيا وهى مُقَاسَةٌ بآلاف السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا قَدْراً مُحدَّداً من الأعوام يُقرِّره الحقُّ سبحانه وتعالى.

إذنْ : فالدنيا تُقَاسُ بعمر الإنسان فيها ، لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عُمْر الدنيا لغيرك لا يخصُّك.

إن الدنيا محدودة ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يستديمَ الدنيا ، لذلك فلن يستطيعَ أحدٌ أنْ يستديمَ الخير ؛ لأن عمره فى الدنيا محدود.

والإنسان قد يبحث فى عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوتٌ فى هذه الدنيا.

إذنْ : فالدنيا بالنسبة لك هى مقدار عُمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقى إلى أنْ تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهى تطول لغيرك ؟

إن عُـمر الدنيـا بالنسبـة للإنسـان هو مقـدار مُكْث الإنسان فـيهـا ، وهو مظنونٌ وغيرُ مُتيقن ، وقـد يموت وهو فى بطن أمه ، أو يموت وهو ابنُ شهر ، أو ابنُ سنة ، أو بعد أنْ يبلغَ المائة.

فالذى يرضى بغير المتقين قصيرُ النظر.

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول :

﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾ [التوبة]

وحتى إنْ قِسْتَ عـمر الدنيا من بَدْء الخلق إلى أنْ تقوم السـاعة فهى إلى فناء ، وما دامتْ إلى فنـاء فهى متـاع قليل ، ومَنْ يطمئن إلى هذا المـتاع القليل فهو غافل.

وعلى الإنسان أنْ يعلم أنَّ الحق سـبحانه لم يتـرك الإنسان على الأرض دون أنْ يُوفِّر له وسائل استمرار حياته ، فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل مَا علاكَ فأظلّك ، فينبت به الزرع والثمر ، وهذا رِزْق لنَا.

والناس تختلف فى مسألة الرزق ، والـرزق هو ما يُنتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه ، فقد تربح مالاً وافراً ، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه ، فلا يكون هذا رزقك ، ولكنه رِزْق غـيرك ، وأنت تظل حـارساً عليـه ، لا تنفق منه قـرشاً واحداً ، حتى توصله إلى صاحبه.

والرزق فى نظر معظم الناس هو المال.

قال ﷺ : «**يقول ابن آدم: مالي مالي .. وهل لك يا بنَ آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، ولبستَ فأبليتَ ، أو تصدَّقْتَ فأمضيتَ**» [1] .

هذا هو رِزْق المال ، وهو جزء من الرزق ، ولكن هناك رزق الصحة ، ورِزقُ الولد ، ورِزْق فى الطعام ، ورزق فى البركة .

وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رِزْق ، وليس المال وحده ، وإنْ كان الإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها فيطمئن إلى حاضره ومستقبله.

لكن لنفرض أن المال دامَ لك طُولَ العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طالَ قصير ، ولا بُدَّ أنْ يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت.

فى هذه اللحظة يكون ما كنزتَ من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقتَ فى سبيل الله. أى : أن ما أنفقْتَ هو ما يبقى لك فى عالم الخلود ، لا يفارقك ولا تفارقه.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) من حديث عبدالله بن الشخير. وتمامه « أنه أتى النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ » الحديث.

إذنْ : فالذى يُحبّ ماله عليه أنْ يصحبَ معه هذا المال لمدة أطول ، وأنْ يتعدّى بـه مجرد الوجود فى الدنيـا ، وأنْ يصل به إلى دار الخلود ، ومَنْ يعشق المال ـ إذا أراد أنْ يُبقيه ـ فلينفقه فى الصدقة.

ولنَا الأُسْوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جـاءتْه شاة كهدية، فـقال للسيدة عائشة ﵂ : «تصدَّقى بلحمها».

وكانت السيـدة عائشة ـ رضوان الله عليهـا ـ تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقتْ بلحم الشاة كلها ، وأبقتْ قطعة من لحم الكتف لرسـول الله ﷺ . وعندما عـاد رسول الله ﷺ سـألهـا: ماذا فـعلت بلحـم الشاة ؟ قالت: تصـدقت بها كلها وأبقيت كتفـها. فقال : «**بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها**» (١)

وذلك لأن مَا تصدقتْ به السـيدة عائشة ﵂ هو الباقى ، وما أبقـته لهما هو الذى سيفنى ، وهكذا سَمَّى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مُسميَّاتها.

فالذى يحب صُحْبَة ماله فى الدنيا والآخرة عليه أنْ يُقدِّم بعضاً منه صدقةً للفقير والمحتاج ، ليُبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خَيْرَ الثواب فى الآخرة.

وقد سأل رجلٌ الإمامَ علياً ﵁ : أريد أنْ أعرفَ : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥ / ٢٣) عن عائشة ﵂ .

قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه :

الجــواب عـندك أنت ، لا عنـدى ، انظر إذا دخل علـيك مَنْ يعـطيك ، ودخل عليك مَنْ يطلب منك ، أيهما تُرحِّب به وتقابله ببشاشة ، أيهما تحب؟

إنْ كنتَ تحبُّ مَنْ يأخـذ منك فـأنت من أهل الآخـرة ، وإنْ كنتَ تحب مَنْ يعطيك فـأنت من أهـل الدنيـا ، لأن مَنْ يأخـذ منك يحـمل حـسناتك إلى الآخرة ، وأما مَنْ يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً.

ونقول للذى يحب المـال : اجعل حُبَّك للمـال يُبقيه لك فـترة أطول من عمر الدنيا ، فالدنيـا ليست هى المقياس ، ودنياك قَدْر عمرك فـيها ، أما الآخرة فأنت خالدٌ فيها ، فتصدَّق ببعض مالك يكُنْ لك خيراً فى الآخرة.

ويلفـتنا القـرآن الكريم إلى المنـظور ، وإلى المـدخور ، فـيـقـول الحق سبحانه :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾ **[الكهف]**

ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾ **[مريم]**

إذن: لا بُدَّ أن تنظر إلى الباقيات فى الأشيـاء ؛ لأنها هى التى يُعوَّل عليها ، ويلفتنا الحق سبـحانه إلى هذا فى أكثر من موضع من القرآن الكـريم ، فيقول تعالى :

﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ⑰﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ..⑥⓪﴾ [القصص]

إذن : فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقى.

وقد قال الحق سبحانه :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ..①⓪③﴾ . [التوبة]

وسبحانه وتعالى هو واهب المال ، وهو يحترم هِبَته لصاحب المال .

وقد لاحظ العلماء أن المال حين يُضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شىء يتموله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإنْ لم يقصد .

والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأمَّنهم على عَرَقهم . وأمَّنهم على ما يملكون ، حتى لا يزهدَ أحدٌ فى الحركة ، فلو أخذ كل واحد من حركته على قَدْر نفسه ، ولم يتملك المال ، لَضنَّ الناس بالحركة .

وإذا ضَنَّ الناس بالحركة فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أنْ يجعلَ ما يزيد على حاجات الناس مِلْكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك .

والتملُّك أمـر غريزىّ فى النفس ، بدليل أن الله سبـحانه هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفهـا له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمى فيه غريزة التملك .

وقول الحق سبحانه :

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ..(١٠٣)﴾ [التوبة]

السطحيـون فى الفهم يقولون : إنهـا تُطهِّر مَنْ تأخـذ منه المال ، وتُزكِّى المال الذى نأخذ منه ، لكن مَنْ يملك عُمْقاً فى الفهم يقول : ما دامت هناك فى هذه الآية عناصـر ، فضرورىّ أن يعـود التطهيـر والتزكـية عليـها ، وأنها تُـطهِّر وتُزكِّى المأخـوذ منه صاحب المـال ، وكذلك تطهـر وتزكى المال المـأخوذ ، وأيضـاً تطهـر وتـزكى المـأخـوذ له وهو الفـقـيـر ، لأن التطـهـيـر مـعناه إزالة قذر، والتزكية نماء .

وهكذا تُطهر الصدقة وتُزكِّى عناصرَ الفعل كلها ، والتطهير لمن يعطى ، له معنى عام ، والزكاة لها معنى معه ، لأنك إنْ أخذتَ منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تُطهِّران هذا المال .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟

أنت إنْ أخـذتَ منه وهو قـادر ، معنى ذلـك أنك تُطمئنـه أنه إذا احتـاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أنْ يضيعَ

منه المال ، واطمأن لحظة أنْ أخذتَ منه المال وهو قادر كى تُعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له : أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده ، وثقَته ، وطُهرته أيضاً من أن يكون فى ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال .

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تُطهِّر المال ، لأن المال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة فالزكاة تُطهِّره .

وقد يُخيَّل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالرِّبا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً ، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً .

والسَّطحىّ يرى أن الزكاة أنقصتْ المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس مَنْ يملك الأشياء ، فالزكاة التى تعتبرونها نقصاً تُنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه يُنمِّى إنما يُنقص .

والحق سبحانه يقول :

﴿يَمْحَقُ[1] اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي[2] الصَّدَقَاتِ .. (٢٧٦)﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم]

(١) المحق: النقصان وذهاب البركة. ومحقه الله: أى ذهب خيره وبركته . (لسان العرب ـ مادة: محق).

(٢) ربا الشىء يربو : زاد ونما . وأربيته : نمَّيته . (لسان العرب ـ مادة : ربا).

وكـيف تكون الصدقـة تطهـيراً للآخـذ ، وهو لم يذنب ذنبـاً يحتـاج إلى تطهير ، بل هو مُعطَىً له لأنه محتاج ؟

ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكَسْب فهو يتطهَّر مـن الحقد على ذى النعـمة ، لأنه وصله بعضٌ من الـمال الذى عند ذى النعمة ، فـلا يحقد عليه ولا يحـسده ، فهو إنْ رأى عنده خيـراً دعا له بالزيادة ، لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟

إن الفقـير سـاعةَ يرى نفـسه فـقيـراً ، ويرى أن المجـتمع الإيمانـى يقوم برعـايتـه ولا يتركـه وحـيداً ، ويـتسـابق أهل الخـيـر لنجدتـه ، فنفسـه تنـمـو بالاطـمئنان ، لأنه فى مجتمع إيمانى .

والزكاة تُنقِّى المجتـمع من مفاسد كثيرة ، فـهى تمنع الحقد بين الناس ، لأن الفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء ، فلا يسخط الفقير على الغنىّ .

والغنىّ والفقير متساويان فى الانتـفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقـير ، ولكنه يُحِسّ بالعطاء حوله ، والغـنى حين يعطى يُحِسّ أن هذا أمان له ، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يعطيه .

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس ، المجتمع الذى مكَّن الله للمؤمنين فيه ، مِصْداقاً لقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ(١) فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ(٢) وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج]

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته ، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر ، ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد مَنْ يدوم غِنَاه ، أو مَنْ يدوم فَقْره ، لأن دوامَ الحالِ من المحَال .

إنْ عاش الغنىّ فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن ؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير ، إنْ أصبح فقيراً فسوف يجد مُقوِّمات حياته ، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء ، فيُبادر ليُعين الفقراء كنوعٍ من رَدِّ الجميل .

وبذلك يعيش المجتمع كله حياةً آمنةً ، كما أن الحياة فى مثل هذا

---

(١) مكّن له فى الشىء : جعل له عليه سلطانًا وقدرة .

(٢) قال سيد قطب فى تفسير « الظلال » (٤/ ٢٤٢٧): «« الذين إن مكناهم فى الأرض » فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر « أقاموا الصلاة » فعبدوا الله، ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين « وآتوا الزكاة » فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج «وأمروا بالمعروف» فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس « ونهوا عن المنكر » فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه ».

المجتمع إنما تُهيىء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم ، ذلك أن الأعمار بيد الله .

وعندما يُحسُّ الإنسان بأنه إنْ مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفَّل المجتمع بهم ، عندئذ يُحسُّ بالأمان فى حياته ، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حَقُّ اليتيم ، فالأب يعيش غَيْرَ مطمئن على أولاده الصغار .

ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم[1] ، ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَوْنَه ، فيُحِسُّ الأب بالأمان ، وتُحِسّ الأم بالأمان، ويُحِسّ الصغار بالأمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا[2] (9)﴾ [النساء]

فتقوى الله تكون ضماناً فى أن يكفل المجتمعُ اليتيمَ ، فيدخل الأمن فى قلب كل أب يخشى أنْ يموتَ وأولاده صغار .

---

(١) وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ وأمته وهو الذى عاش يتيماً: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9)** ﴾ [الضحى]، بل إن الله اعتبر من يَدع اليتيم أى يدفعه ويقهره ، اعتبره مكذباً بالدين ، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2)﴾ [الماعون] .

(٢) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل والشرع لا خطأ فيه .

إذن : فالاقتصاد الإسلامى مَبْنِىّ على وجود حركة فى الكون ، ولابد أن تكون هذه الحركة على قَدْر طاقة المتحركين ، وليس على قدر حاجاتهم ، حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر .

والله سبحانه يريد أنْ تُوجد الحركة فى الكون ؛ لأنه إنْ وُجدَت الحركة فى الكون انتفعَ الناس ، وإنْ لم يقصد التحرُّك ، وبعد ذلك فأيْن يذهب الذى يأخذه الله منك؟

إنه يعطيه لأخ لك ولغيره ، فما دام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففى هذا اطمئنانٌ وأمانٌ لك ، لأن الغير سيعطيك لو صِرْت عاجزاً غير قادر على الكسب ، وفى هذا اطمئنان لأغيار الله فيه .

فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى فى أَرْقى معانيه.

أليس التأمين أن تُعطِى وأنت وَاجِد ، وأنْ تأخذَ وأنت فَاقِد؟ إذن: فهذا كُلُّه من فَضْل الله .

وقَوْل رَبِّ العِزَّة سبحانه فى الحديث القدسى: «إنَّا أنزلنا» .

فساعة نسمع قوله «أنزلنا» نرى أن هناك مكانة عَلِية يَنْزِل منها شىء لمكانة أَدْنى ، ومثل ذلك أمر معروف فى الحِسِّيات ، وهو معروف أيضاً فى المعنويات.

وقد يكون هذا الشيء غير موجود فى السماء لينزل ، ولكنه فى الأرض ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وهو إنزال ؛ لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإن كان فى الأرض.

والحق سبحانه لم يَقُلْ «أنزلنا» على الذهب أو الماس أو الفضة ، أو أىّ معدن من المعادن النفيسة ، ولكنه خَصَّ الحديد بهذه الصفة ، لأن الحديد أداةٌ من أدوات نَصْر الدعوة إلى الله تعالى .

فالإنزال معناه إرادةُ الكون ، وإرادةُ الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ولذلك فالشيءُ الذى لا ينزل من السماء ربُّنا قال عنه: إنه ينزل من السماء .

❑❑❑

رغم أنف إبليس !!

[٣١] عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : قال إبليسُ : أىْ ربِّ ، لاَ أزَالُ أُغْوِى بَنِى آدمَ ، مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُم فى أَجْسَادِهم .

فقال الربُّ عزَّ وجلَّ :

« فَبِعزَّتي وَجَلالى لاَ أزَالُ أغْفِرِ لَهُمْ مَا اسْتَغْفرونى » (١)

يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ(٢) ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩، ٤١، ٧٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٨/ ٣٣٢) ، والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٤/ ٢٦١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبى فى تلخيصه. وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والطبرانى فى الأوسط ، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح ، وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى» .

(٢) صَوَّره: جعل له صورة مُجسَّمة. وتصوَّر: تكوّنت له صورة وشكل. (المعجم الوجيز ـ مادة: صور).

هذه هى قصة إبليس مع آدم ، ذكرها الحق سبحانه فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكنها فى كُلِّ موضع تأخذ لَفْتةً جديدة ولَقْطة جديدة ، وقد جاءتْ قصة خَلْق آدم بكُلِّ جوانبها فى القرآن سبْع مرات ؛ لأنها قصة بَدْء الخلق ، وهى التى تجيب عن السؤال الذى يبحث عن إجابته الإنسان.

فالإنسان تلفَّتَ ليجد نفسه فى كون مُعَدٍّ له على أحسن ما يكون ، ولم يجئ الكون من بعد الإنسان ، بل طرأ الإنسانُ على الكون ، وظلَّ السؤال وارداً عن كيفية الخَلْق .

ولكن الحق سبحانه قد حسم هذا فقال:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] **(٥١)﴾** [الكهف]

فالإنسان لا يدرى كيف تَمَّ الخَلْق ، ولا ما هى مراحله ، إلا أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بها ، فما دَامُوا لم يشهدوا خَلْق السماوات والأرض ولا خَلْق أنفسهم ، فلابُدَّ أن نأخذ ذلك عن الله ، فما يُنبئنا به الله هو الحقيقة ، وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزَيْف .

وقصة العَداء بين آدم وإبليس هى من هذا القبيل الذى يجب أن نأخذه عن الله ، فالحقُّ سبحانه أصدر أمره للملائكة ليسجدوا لآدم ، ولابُدَّ أن نعرفَ أن السجودَ لآدم هو إطاعةٌ لأمر الله ، وليستْ عبادةً لآدم .

---

(١) العضد: المعاون والمساعد والمعين. اعتضد به: استعان به وتقوّى. (المعجم الوجيز ـ مادة: عضد).

فالله سبحانه هو الذى أمر الملائكة بالسجود ، ولم يأمرهم بذلك آدم ، ولا يحقُّ له أنْ يأمرهم ، فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه .

مَنْ أطاعه كان عابداً ، ومَنْ لم يُطِعْه كان عاصياً ، ومَنْ رَدَّ الأمر على الآمر كان كافراً .

والأمر بالسجود لآدم لم يشمل الملائكة كلهم ، بل خُصَّ به الملائكة الذين لهم مُهِمة مع آدم ، هذه المهمة قد أوضحها الحق سبحانه فى قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫﴾

[الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ[1] أَمْرًا ⑤﴾ [النازعات]

إذن: هناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله ، وكل قَوْل يقوله ، وكل فِعْل يفعله ، بل ويكتبون هذه الأفعال ، ومنهم مَنْ يحفظه من الشياطين ، ومنهم مَنْ يُنفِّذ أقدار الله فى الأرض.

هؤلاء جميعاً لهم مُهمة مع الإنسان ، ولكن الأمر بالسجود لم يشمل

(١) قال على بن أبى طالب: المدبرات أمراً : الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره. وعن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل ، وملك الموت، وإسرافيل. فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات. وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح. وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر. (ذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور ٨/ ٤٠٥).

أولئك الملائكة العَالين من حملة العرش وحُرّاس السماء وغيرهم ممَّنْ ليستْ لهم مُهِمة مع الإنسان .

ولذلك عندما رفض إبليسُ السجودَ قال له الله تعالى :

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والمقصود بالعالين: الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته ، والذين يقول فيهم الحق سبحانه:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١١)﴾ [الرعد]

والملائكة لا يعصُونَ الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون.

وإنْ تساءل أحدٌ : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضِمْن الحديث عن الملائكة ؟

نقول: هَبْ أن فرداً مُخْتاراً من الإنس أو الجنّ التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يَعْصِ. أليستْ منزلته تكون مثل المَلَكِ ، بل

(١) أي: ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله. قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٣): «أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه ، وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً ، حافظان وكاتبان ».

أكثر من المَلَك ، لأنه يملك الاختيار ؟

ولذلك كـانوا يُسمُّـون إبليس «طاووس المـلائكة» أي : الذى يزهُو فى مَحْضَر الملائكة ، لأنه ألزمَ نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفَّذها ، فصارَ لا يَعْصى الله ما أمره ، ويفعل ما يُؤْمر .

وصار إبليسُ يـزهُو على الملائكة لأنهم مـجبورون على الطـاعة ، لكنه كان صالحاً لأنْ يُطيعَ ، وصالحاً ـ أيـضاً ـ لأنْ يَعْصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزةً من بين الملائكة ، وبلغ من تميّزه أنه يحضر حُضُور الملائكة .

فلمـا حضر مع المـلائكة جاء الـبلاغُ الأول عن آدم فى أثناء حـضوره ، وقال ربنا للملائكة :

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ .. (١١)﴾ [الأعراف]

وكان أَوْلَى به أنْ يُسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف[1] ذلك. وَهَبْ أنه دون الملائكة ، وما دام قد جـاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكُنْ من الأَجْدر به ـ وهـو الأَدْنى ـ أن يلتزمَ بالأمر؟ لكنه لـم يفعل ، ولأنه من الجن فقد غلبتْ عليه طبيعة الاختيار.

فسبـحانه قد أمر المـلائكة ، وكان موجوداً معـهم إما بطريق العُلُوِّ ؛ لأنه فَاقَ الملائكة وأطاع الله وهو مُخْتـار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الـدُّنُـوِّ ؛ لأن الملائكة أَرْفَع من إبليس بأصل الخِلْقة والجِبلّة ، وعلى أىِّ وَضْع من العُلُوِّ

(١) استنكف من الشيء وعنه: أنف وامتنع. (المعجم الوجيز ـ مادة: نكف) .

والـدُّنُـوَّ كان على إبليس أنْ يسجدَ .

ولكن إبليسَ قال فى الردِّ على ربِّه :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

وقال أيضاً: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]

فمـعصيـةُ إبليسَ كانت فى القـمة ، لأنه رَدَّ الأمر على الآمـر، وقال : لن أُطيعَ ، ولن أَسْـجُـدَ لآدم لأنِّى خَيْـر منه ، هو من طيـن ، وأنا من نار ، فكأنه لم يَرْضَ بحُكْم الله سبـحانه وتعـالى ، وأراد أن يُعدِّله ، وهذه معـصية فى القـمة ، جعلت الله ـ تبارك وتعالى ـ يطرد إبليسَ من رحمته ، ويَصفه بأنه رجيم [1].

فإبليس قد تأبَّى على مَنْ حكَم بالحُكْم ، ولذلك طرده الحق سبحانه من الجنة ، وصار مَلْعوناً .

وإبليسُ ساعة رفضه تنفيذَ أمر السجود كان يمتلئ بالكبر والغرور ، ففى لحظة الكبر نـسى إبليس كل شىء ، واندفع فى معصـيته يـملؤه الزَّهْو ، وأصرَّ على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

والحقُّ سبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله ـ وهو يعلم أَزَلاً أن إبليسَ قد امتنع باقتناع لا بقَهْر ، ولذلك قال إبليس:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

---

(١) رجمـه : لعنه أو طرده بالرمى بالحجـارة ، ومنه الرجيم ، فعيل بمعنى مفـعول ، أى : ملعون بالقـول أو مطرود مرمىّ بالحجارة. (القاموس القويم ١/ ٢٥٨) .

فكأنَّ المسألة دارتْ فى ذهنه ليُوجدَ حيثيةً لعدم السجود ، ولا يصحّ فى عُرْفه الإبليسى أنْ يسجدَ الأعلى للأدْنَى ، فما دام إبليسُ يعتقد أنه خَيْر من آدم ، ويظنّ أنه أعلى منه ، فلا يصحّ أنْ يسجدَ له ، وهو أعْلَى منه ، لماذا ؟

فهو اعتقد مُخْطئاً أن النارَ لها عُلُوٌّ على الطين ، وهذا خطأ ؛ لأن الأجناسَ حين تختلف ، فذلك لأن لكل جنس دَوْرَه ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، فالنارُ لها مُهمة ، والطين له مُهمة ، فالنار لا تستطيع أن تُؤدِّى مُهمة الطين ، فلا يمكن أنْ نزرعَ فى النار .

إذنْ: فالخيريةُ تتأتَّى فى الأمرين معاً ، ما دام كل منهما يُؤدِّى مُهمته ، ولذلك لا تَقُلْ : إن هذا خَيْر من هذا ، إنما قُلْ : عَمَلُ هذا أحسنُ من عَمَل هذا ، فكلُّ شىء فى الوجود حين يُوضَع فى منزلته المرادة منه يكون خَيْراً .

ولذلك أقول: لا تَقُلْ عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطَّاف : إن هذا عُود أعوج ؛ لأن مهمة الخُطَّاف تقتضى أن يكونَ أعوج ، وعوَجه هو الذى جعله يُؤدِّى مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى فى مُتَساوى المهمة .

ولكن إبليس قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. (١٢)﴾ [الأعراف]

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر ، حين أعرض عن أمر الله ، وأراد أنْ يُعدِّل مراد الله فى أمره ، وكأنه يُخطِّئ الحقَّ سبحانه فى أمره ، ويردّ الأمر على الآمر .

إذن: فالحقُّ سبحانه يُوضِّح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا

أن تميّـزكم بعناصركم ، إننى أقدر بـطلاقة قدرتى أن أجـعلَ الأدْنى يتحكَّم فى الأعلى ، لأنها إرادة مَنْ عنصرَ العناصر .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف]

وكلمة (فاهبط) تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى : أنك لَسْتَ أهلاً لهـذه المنزلة ، ولا لتلك المكانة . هذا مـا تدلُّ عليـه كلمة (فـاهبط) ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغار هو الذُّل والهوان ؛ لأنه قابلَ الأمـرَ باستكبار ، فلابُدَّ أن يُجازى بالصَّـغار. خـرج إبليس من الجنة ، وفـقـد منزلـته ومـكانته التى كـانت له بين الملائكة ، ولُعن وطُرِد من رحمة الله إلى يوم الدين ، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص]

وكان ذلك بسـبب عدم امتثالـه لأمر الله بالسجود لآدم ، فـصارت عداوة بينه وبين آدم ؛ لذلك : طلب إمهاله وإنظاره إلى يوم الدين ، فقال:

﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف]

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكى يَشْفى غلـيله من بنى آدم وآدم ؛ لأنه جاء له بالصَّـغار والذلة والطَّرْد والهـبوط ؛ ولذلك أصرَّ على أنْ يجتهدَ فى أنْ يُغوِى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً .

ولذلك قال إبليس :

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ [الأعراف]

والإغواء : إغراء بالمعصية. فكأن الشيطانَ يريد أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يُغْوِ ، لأن الحق سبحانه وتعالى لا يُغوِى وإنما يهدى ، لأن الله لو خلقه مُرْغماً مَقْهوراً ما أعطاه فرصة أنْ يختارَ كذا أو يختارَ كذا ، فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» واختار هو ألاّ يفعل إلا المعصية.

وقد بدأ إبليس بغُواية آدم عليه السلام ، فآدم عاش فى جنة تعطيه مُقوِّمات حياته بلا تعب وبلا عمل ، وكان فى الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات ، وهى حلال لآدم وحواء يأكلان منها ما يشاءان ، ما عدا شجرة واحدة[١] حرَّمها الله عليهما .

---

(١) اختلف العلماء فى هذه الشجرة على عدة أقوال ذكرها ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٩) :
- الكرم (العنب). قاله ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة.
- السنبلة . قاله ابن عباس أيضاً .
- البر (حب القمح) قاله ابن عباس أيضاً .
- النخلة . قاله أبو مالك .
- التينة. قاله مجاهد .
- الحنطة (القمح). زعمته اليهود .

قال ابن كثير: «فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة. قال الإمام ابن جرير الطبرى رحمه الله: والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده =

وكـانت هذه الشجـرة هى بداية الخطيـئـة ، بدأ إبليس يُغرى آدم وحـواء على المعصية.. كيف ؟

حاول إقناعهـما بأن عدمَ الأكل من هذه الشجرة.. سـيحرمهمـا من خير كبير .. قال تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا[1] وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾

[الأعراف]

لقد همس الشـيطان ، وأوحَى لهما بأن الحق سبحـانه أراد ألاَّ تقربَا هذه الشـجرة ؛ لأن مَنْ يأكل منهـا يصـير مَلَكاً أو خـالداً ، ولم يُمـحِّص أى منهمـا كلمات الشيطان ليعرفَ أن كَيْده كان ضعـيفاً واهياً وغبياً ؛ لأنه ما دام قد عرف أن مَنْ يأكل من هذه الشـجـرة يصيـر مَلَكًا أو يبـقى من الخـالدين ، فلمـاذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكًا أو خالداً ؟

وفى هذا دَرْسٌ يُبَيِّن لنا أن مَـنْ يُزيّن له ويتصدَّى له أحـد بالإغواء يجب عليه أنْ يُمحِّص إلى أىِّ غواية يسير، وأنْ يُدقِّق فى نتائج ما سوف يفعل .

= دليلاً على ذلـك فى القرآن ولا من السنة الصـحيحـة، وقد قيـل: كانت شجـرة البر، وقـيل: كانت شجرة الـعنب، وقيل: كانت شجـرة التين. وجائز أن تكون واحدة مـنها ، وذلك علم إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم» .

(١) السـوءة: ما يقبـح إظهاره ، وينبـغى سـتـره. وجمـعها سـوءات. وهى العورات. (الـقاموس القـويم ١/ ٣٣٤).

وفى إغواء آخر لآدم :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ[1] (١٢٠)﴾ [طه]

وهكذا نعرف أن إبليس يـأتى للإنسان من أكثـر من زاوية ؛ لذلك كانت الزاوية الأولى هـى أن هذه الشـجـرة ، مَنْ يأكل منـهـا يكون مَلَـكًا ، أو يكون خالداً.

وكـان الإغـواء الثـانى أن هذه الشـجرة تـعطى لمن يأكل منهـا بجـانب الخلود مُلْكًا لا ينتهى .

إذن: فإبليس يُصَوِّر للإنسان أن ما منعه الله عنه هو الخير ، وأنه لو عصى فسـيحصل على المال والنفـوذ ، لقد أكل آدم وحواء من الشـجرة ، فلم يخلدا ولـم يَأْتِ لهـما مُلْك لا ينـتهى ، بل ظهـرت عوراتهـمـا وعرفـا أن إبليس كـان كـاذباً ، وأن الله سـبحانه وتـعالى بمنهـجه وما ينـهانا عنه إنمـا كان يريد لهـما الخير.

ولكن الشـيطان يأتى ويُزَيِّن للإنسان طريق الـباطل ، ولو أن آدم كـان قد حَكَّم عقله لعرفَ كذبَ وَسْوسـة إبليس ، فإبليس كما يَدَّعى كان يدلُّ آدمَ على شجرة الخُلْد ، ولو أن هذه الشجرة كـانت تعطى الخُلْد فعلاً ، لما طلبَ إبليسُ

(١) بلى الثوب: رثَّ. وبليت الدار: فنيت. (المعجم الوجيز ـ مادة : بلى). وبلى الملك : زال .

من الله تبارك وتعالى أن يُبقى على حياته إلى يوم القيامة ، بل لأكلَ من الشجرة ونال الخُلْد .

ولكن إبليسَ دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية ليُوقِع آدمَ فى المعصية ، وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضاً ، ولو أن أبناء آدم حَكَّموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مُسْبقة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أنْ يُبقِيَه إلى يوم القيامة لينتقمَ من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية .

لو تنبَّهنا إلى ذلك لأخذنا حذْرنا ، وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فإنه يهرب .

وقد دخل إبليس ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله ، وأن الله عزيز لا يحتاج لخلْقه ، ولا يضرُّه سبحانه وتعالى مَنْ كفر، ولا يزيد شيئاً فى مُلْكه مَنْ آمن ، استغلَّ إبليسُ عزَّة الله فى استغنائه عن خَلْقه ، فقال كما يروى لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص]

فإبليس دخل إلى غواية بنى آدم بعِزَّة الله سبحانه وتعالى عن خَلْقه ، فلو أن الله أراد خَلْقه جميعاً مهديِّين ما استطاع إبليس أنْ يتقدَّم ناحية واحد منهم.

فالله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى للإنسان حَقَّ الاختيار ، ولو شاء

لجعله مَقْهوراً على الطاعة كباقى الخَلْق من نقطة الاختيار هذه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**[1] (٢٩)﴾ [الكهف]

إذنْ: فاللهُ سبحانه وتعالى بيَّن لنا طريقَ الهدى وطريقَ المعصية ، ثم ترك لَنا أنْ نختارَ طاعةَ الله ورحمته ، أو معصية الله وعذابَه .

ولكى نتـقى الشيطانَ فى حـياتِنَا شـرحَ لنا القرآنُ الكريم كـيف سيُـغوى إبليس بنى آدم :

﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ**[2] **لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** (١٦)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤١٢٣): «قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس، مِن ربكم الحق ، فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال ، يهدى من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إلىّ من ذلك شىء ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً ، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا ، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد. أى : إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة».

(٢) عن سبرة بن أبى الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك. قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال. قال: فعصاه وجاهد». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٨٣) والنسائى فى سننه (٦/ ٢١) وابن حبان (١٦٠١ ـ موارد الظمآن) من حديث سبرة بن أبى الفاكه .

أى : أن إبليس لا يجتهد فى إغواء مَنْ باع نفسه للمعصية ، وانطلق يخالف كُلَّ ما أمر به الله ، فالنفس الأمّارة بالسُّوء لها شيطانها ، وهى ليستْ محتاجة إلى إغواء ؛ لأنها تأمر صاحبها بالسوء.

ولذلك ، فإن إبليس لا يذهب إلى الخمارات وبيوت الدعارة ، ويبذل جَهْداً فى إغواء مَنْ يجلسون فيها ؛ لأن كل مَنْ ذهب إلى هذه الأماكن هو من شياطين الإنس .

ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة وأماكن العبادة ، هؤلاء يبذل معهم كل جَهْده وكل حيَله ليصرفَهم عن عبادة الله ، ولذلك لا بُدَّ أن نتنبه إلى أن إبليسَ لم يقُلْ : لأقعدنَّ لهم على الطريق المعْوَج ، فالطريق المعْوَج بطبيعته يتبع الشيطان .

فإبليس يريد أهل الطاعة ، يُزيِّن لهم المعصية ، ويُغريهم بالمال الحرام ، وما دام الشيطان سيُغوى وسيُضل الغير فسيختار للغواية مَنْ يكون فى طريق الهداية ، أما مَنْ غَوى باختياره وضَلَّ بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده .

وتلك ظاهرة تحدثُ للناس حينما يجدُّون ويجتهدون فى الطاعة، فالشابّ الطائع الملتزم يحاول الشيطانُ أنْ يُخَايلَه ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطانَ يتلصَّصُ على دين الإنسان ، فهو كاللصِّ ، واللصُّ لا يحوم حول بيت خَرِب ، إنما يحوم اللصُّ حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة ، فيقول الواحد منهم : حينما أُصلِّى يأتى لى الوسواس ، ويُشكّكنى فى الصلاة ، نقول

له : نعم ، هذا صحيح[1] .

وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية فى الإيمان ، لأن هذا معناه أن الشيطان يعلم أن عملك مقبولٌ ؛ ولذلك يحاول أنْ يُفسدَ عليك الطاعة ، لأنك لو كُنْتَ فاسدًا من البداية ، ووقفتَ للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس ، ولكن الشيطانَ يريد أن يُفسد عليك الطاعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ[2] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾

(الأعراف)

فمعنى (استعذ) أى : فالتجىء منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أنْ يتغلغلَ فيك ، وفى دمك[3] ، وفى خواطرك ، وهو القادر على مَنْعه .

---

(١) «عليك رحمك الله أن تحضر قلبك فى صلاتك جهد استطاعتك ومبلغ طاقتك ، وألا تصرفه هاهنا ولا هاهنا ، وألا تمر به هكذا ولا هكذا ، وأن تدفع عنه الخواطر المائلة به ، والأحاديث الشاغلة له ، وأن تسمع ما تقرأ ، وتعقل ما تفعل ، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت ، ولا يكتب لك منها إلا ما فيه حضرت» قاله أبو محمد عبد الحق بن الخراط الإشبيلى فى كتابه «الصلاة والتهجد» من تحقيقى (عادل أبو المعاطى) ـ طبعة دار الوفاء ـ المنصورة ١٩٩٢ م

(٢) نزغ الشيطان : وساوسه ونَخْسُه فى القلب بما يُسوِّل للإنسان من المعاصى . قال الزجاج : معناه إن نالك من الشيطان أدنى نزغ ووسوسة وتحريك يصرفك عن الاحتمال ، فاستعذ بالله من شرّه وامْضِ على حكمك . (لسان العرب ـ مادة : نزغ).

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢١٧٤) من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ».

قال النووى فى شرحه : « قال القاضى وغيره : قيل هو على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجرى فى باطن الإنسان مجارى دمه . وقيل : هو على الاستعارة ، لكثرة إغوائه ووسوسته ، فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارق دمه . وقيل : يلقى وسوسته فى مسام لطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب . والله أعلم » .

وحين تقـول : « أعـوذ بالله من الشيـطان الرجـيم » بفـزع والتجـاء إليه ـ سبحـانه ـ فـإنه جَلَّ شـأنهُ ينقذك مـنه ، وإنْ كنتَ تقرأ الـقرآن ، ثم جـاء لك الخـاطر من الشـيطان فـقُلْ « أعـوذ بالله من الشـيطان الرجـيم » فـإذا قُلْتَ هذا فكأنك نَبَّهتَه إلى أنك أدركتَ من أين جاءتْ هذه النَّزْغة : مرة و اثنتين و ثلاثة.

حينئـذ يقـول الشـيطان لنفسـه : إن هذا المـؤمـن حَاذق فَطِـن وحَـذِر ، لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حـنيفة ، وقـد شُهِر عنه الفُـتْيا ، وذهب إليـه سائل يقول :

ضاع منِّـى مال فى أرضٍ كنتُ قـد دفنتُه فـيها ، ولا أعـرف الآن مكانه ، دُلَّنى عليه أيُّها الشيخ ؟

وبطبيعة الحال ، كان هذا السؤال فى غـير العِلْم ، فقال أبو حنيفة : يابُنىَّ ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنِّى أحتـال لك ، إذا جاء الليل فَقُمْ بين يدىْ ربِّك مُـصلِّياً هذه الليلـة ، لعلَّ الله سبـحانه وتعـالى يبـعث لك جُنْدًا من جُنوده يقول لك عن مكان مالك.

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يُقـبل ضاحكًا مُبْتسمًا قائلاً : يا إمام لقد وجدتُ المال . فضحك أبو حنيفة وقال : والله لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك تُتمّ ليلتك مع ربِّك ، وسيـأتى ليُخبرك ، فهلاَّ أتمـمتَها شُكْرًا

لله ، هيا قُمْ إلى الصلاة .

إذن : فقد عرف الشيطان كيف يقعد ، وكيف يُقسِم ، فقد استطاع أنْ يأتى بالقسم الذى يُعينه على مهمته ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ (ص)

واستدرك على نفسه أيضًا ، فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ (ص)

لأن الذى يُريده الله مَهْديًا لا يستطيع الشيطان أن يُغويه ، لأنه لا يناهض ربّنا ولا يُقاومه ، إنما يناهض خَلْق الله ، ولا يدخل مع ربِّنا فى معركة ، إنما يدخل مع خَلْقه فى معركة ، ليس له فيها حُجَّة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أنْ يُرغمك على الفِعْل ، وإما أن يُقنعك لتفعلَ أنت بدون إرغام .

وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟

لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ (إبراهيم)

والشيطانُ لا يترك سبيلاً إلا سلكه لإغواء بنى آدم ، لذلك يقول : « أىْ رَبِّ ، لا أزال أُغْوِى بنى آدمَ ، ما دامتْ أرواحُهم فى أجسادهم » .

والقرآن الكريم يحكى لنا قوله :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾ (الأعراف)

فـإبليس يأتـى لبنى آدم من الأمـام ، ومن الخلف ، ومـن اليـمـين ، ومن اليسار .. أربع جهات يأتى الشيطان لابن آدم منها :

* والشيء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعًا هو « الدار الآخرة » وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يُشكِّكهم فى حكاية الآخرة ، ويُشكِّكهم فى البَعْث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُـقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دارٍ أُخـرى ، سيُجازى فيهـا المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

ولذلك يعـرض الحق سبـحانه وتعـالى قـضيـة البعث عَـرْضًا لا يجـعل للشيطان مَنْفـذًا فيها ، فيُـوضِّح لنا أنه سبحانه لم يعـجز عن خَلْقنا أوّلاً ، لذلك لن يعجز عـن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيـد أهون من البداية ؛ لأنه سيـعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم(١).

إنه سبحانه عندما يُبين للناس أن الإعادة أهونُ من البداية ، فهو يخاطبهم بما لا يجـدون سبـيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جَلَّ شـأنه ـ تستـوى لدى طلاقة قدرته كُلُّ الأعمال ، فليس لديه شيء سهل وهيِّن ، وآخر صَعْب وشاقّ .

(١) قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٢٧)** ﴾ (الروم)، ويقول تعالى : ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)** ﴾ (طه) ، قال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هينة . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٣٠).

* والشـيطان يأتى ـ أيضًـا ـ من الخلف ، وخلف كل واحـد منا ذريتـه ، يخاف ضَيْعـتهم ، فيُوسوس الشيطان للبعض بـالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء .

وفساد أُنَاسٍ كثـيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفـساد يأتى حين يبلغ بعض الناس مَنْصبًا كـبيرًا ، وقد كَبـرت سنّه ، ويقبل على الله بشرٍّ ، ويظن أنه يترك عـياله بخيـر . لكن ، إنْ كنتَ تخاف عليـهم حقًا فأمِّـن عليهم فى يَدِ ربِّهم ، ولا تُؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⑨﴾ (النساء)

* ويأتى الشيطان من اليمين لِيُزهِّد الناس ، ويَصْرِفهم عن العمل الحسن والطاعة ، واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين .

* ويأتى الشيطان عن شمائلهم ، لِيُغريهم بشهوات المعصية .

ولماذا لم يَأتِ الشـيطانُ للإنسان من فـوق ومن تحت ؛ لأن الفوقـية هى الجهة التى يلـجأ إليها مُسْتـغيثًا ومُسْتجيرًا بربه ، والتـحتية هى جهـة العبودية الخاصة ، فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد(١) ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه .

---

(١) عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قـال : « أقرب ما يكون العبـد من ربه وهو ساجد ، فأكـثروا الدعاء » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (٥) ﴾ (يوسف)

ويقول أيضًا :

﴿ **وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (١٤٢) ﴾ (الأنعام)

وما دام الشيطان عدو لك ، فلابد أيها الإنسان أن تتنبه ، فالله عمل لك حادثة الامتناع عن السجود لآدم حتى يُربّى فيك مناعة من الشيطان ، فتتذكر عداوته ، ولا تتبع خطواته أبدًا ، بدليل أنه تربَّصَ ببنى آدم .

قال تعالى :

﴿ **قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ**[1] **ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً** (٦٢) ﴾ (الإسراء)

وكلمة (لأحتنكن) الاحتناك له مَعْنَيان :

الأول : الاستئصال . ومنه قولهم: احتنكَ الجرادُ الزَّرْع أى استأصله .

الثانى : وهو القَهْر على التصرف ، وهو مأخوذ من معنى اللجام الذى يُوضع فى حنَك الفرس أو الحمار ، ويتحكم فيه ، وعن طريقه يتم توجيهه يمينًا أو شمالاً ، أو توقيفه عن السَّيْر.

---

(١) احتنك فلانًا : استولى عليه واستماله إليه . وقول الشيطان فيما رواه رب العزة فى قرآنه : ﴿ **لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً** (٦٢) ﴾ (الإسراء) أى : لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . (القاموس القويم ١/ ١٧٥).

فالاحتناك إما أن يكون استئصالاً للذات ، أو قَهْرًا لحركتها ، ولكن لأن إبليس يعلم حَجْمه وقَدْره ، فكما أقسم بعزة الله تذكَّر قدرته سبحانه ، وأنه إذا أراد إخلاص عبد لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذه ، فقال :

﴿ إلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾ (الإسراء)

وهذا القليل هم الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته ، فلا يستطيع الشيطان أنْ يقربَهم ، وقد أقرَّ الشيطانُ بذلك .

وقال له الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) ﴾ (الإسراء)

اذهب ، أى : مطرودًا مُبْعداً ، فالذين ستأخذهُم وتحتنكهُم وتتصرف فى حركتهم فإن جهنم جزاؤكم ، أى هم والشيطان لأنه معهم ، لكن إبليس كان يظنُّ أن الله سيقول له : فإن جهنم جزاؤهم ، وهو ليس معهم ، لماذا ؟

قال : لأننى أُنفِّذ أوامر الله ، لأنه قال لى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ[1] عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[2] وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) ﴾(الإسراء)

---

(١) أجلب عليهم : اجمع عليهم وتوعَّدهم بالشر . (لسان العرب ـ مادة : جلب).

(٢) رجل يرجل : مشى على رجليه ولم يكن له ما يركبه . والمقصود ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ .(٦٤) [الإسراء] أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . (القاموس القويم ١/ ٢٥٧).

حتى لا يظن إبليس أنه مأمور من الله بالإغواء قال الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الإسراء)

أى : أن إبليس سيدخلُ النارَ معهم ؛ لأن مَا يقوم به من إغواء لم يأمره به أحد ؛ لأن الأمـر كما قُلْنا طلب أعلى من أدنى ليـوقع فعلاً أو يُنفـذه ، فلا يظنّ إبليس أنه ينفذ أوامر الله بإغواء عباده ، بل يجب أن يعلم أن هذه ليست أوامر ، ولكنها تهـديد من الله له بأن يفعل مـا **فى وُسْعه** ، فلن يـكون فى مُلْك الله إلا ما أراد .

فيقول له الحق سبحانه :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ (الإسراء)

أى : اسـتخـفّهم واخْـدَعْـهم ووَسْوِس لهـم بصـوتك ، أو بكُلِّ صـوت شرير ، سواء كان من جنودك أو من شياطين الإِنْس .

ومـعنى (أجلب) : أى صِحْ بهم . والجلبـة هى الصوت الشـديد ، هذا الصوت يأخذ شيئًا من انتباه الخَصْم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فتستطيع أن تنقضّ عليه .

فمـعنى (أجلب عليهم بخيلك) أى : اركبْ خـيلك ، وأطلقْ صوتك ، حتى تُفزعـهم ، والإفزاع يأخذ جزءًا من الإدراك ، فيـعطل الخصم عن الإدراك فتغلبه .

فالحق سبحانه هدَّدَ إبليس بأن يستفزَّ الناس بصوته ، وأن يجلب عليهم بخَيْله ورَجْله ، أي سلاح الفرسان ، وسلاح المشاة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ... (64) ﴾ (الإسراء)

ومعنى مشاركة الشيطان لهم فى الأموال هى أنْ يُزيِّن لهم المال الحرام ، فيكسبوه من حرام ويَصْرفوه فى الحرام .

وكذلك مشاركته لهم فى الأولاد تكون بتزيين الفاحشة ، فالولد المفهوم فيه طهارة النسب يأتى الشيطان لأبيه ويُزيِّن له الحرام ، فيجعله يرتكب الفاحشة .

وحتى إن كان ابنه من صُلْبه ومن حلال ، ومولود على الفطرة يُزيِّن له الشيطان أنْ يُهوِّده أو يُنصِّره ، أو يجعلهم يقتلون أولادهم ، خشية الفقر أو العار .

وليعلم بنو آدم أن إبليس سيقف فى يوم المحاجّة يوم القيامة أمام الذين أغواهم واستفزَّهم بصوته ، وأجلب عليهم بخيله ورَجْله وشاركهم فى الأموال والأولاد ووعدهم ، يأتى يوم القيامة ويقول لهم ما رواه القرآن الكريم فى قول الله تعالى :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي

وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) **وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)** ﴾ [إبراهيم]

فالشيطان يحاول أن يُبرِّئ نفسه رغم علمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ، لذلك يحاول أنْ يُلصق التهمة بمَن اتبعوه .

فهم قد أشركوه مع الله في الطاعة ، حين استسلموا لغوايته ، ولم يكونوا من عباد الله المخلصين الذين أقسم بعزة الله ألاَّ يُغويَهم ، وكُلٌّ من هؤلاء نفَّذ ما أغواهم به ، فناداهم واستجابوا ، وناداهم الله فَعَصَوا أو كفروا ، وصاروا مثله ، فقد سبق أن أمره الله وعصاه .

لذلك كان قول الحق سبحانه :

﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا**(٢) **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ**(٣) **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)**﴾ [الأعراف]

وهذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرجنا من جنة التكليف ، كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة .

---

(١) الصارخ والصريخ : المستغيث . الاستصراخ : الاستغاثة والإغاثة . والصريخ : المغيث والمستغيث . (لسان العرب ـ مادة : صرخ).

(٢) السوءة: ما يقبح إظهاره وينبغي ستره . أي : يغطي عوراتكم ويسترها . (القاموس القويم ١/ ٣٣٤).

(٣) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون وكلها تناسب قوله تعالى : ﴿**أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)**﴾ (الإسراء) ، معك ليؤيدوك . (القاموس القويم ٢/ ٩٨) .

توبة الله على آدم :

ولكن الله عز وجل الرحيم بعباده أعدَّ للمذنبين منهم مغفرة لذنوبهم ، وشَرَع التوبة للعُصَاة ، وكان أول مَنْ تاب عليه هو آدم عليه السلام ، فقال تعالى:

﴿**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ**(١) **رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)**﴾ [طه]

إن بعض الناس يقول : إن آدم قد عصى وتابَ الله عليه . وإبليس قد عصى فجعله الله خالداً في النار .

نقول : إنكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟

إنه أكل من الشجرة المحرَّمة ، وعندما علم أنه أخطأ وعصى لم يُصِرّ على المعصية ، ولم يَرُدّ الأمر على الآمر ، ولكنه قال : يا رب أمرك ومنهجك حق ، ولكنني لم أقدر على نفسي فسامحني .

اعترف آدم بذنبه ، واعترف بضعفه ، واعترف بأن المنهج حَقٌّ ، وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى ، ولكن إبليس رَدَّ الأمر على الآمر ، قال :

﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦)**﴾ [ص]

وقال: ﴿**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)**﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)**﴾ [ص]

(١) اجتباه: اختاره واصطفاه . (لسان العرب ـ مادة : جبى) .

وقال : ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

فإبليس هنا رَدَّ الأمْر على الآمر ، لم يعترف بذنبه .

فإيَّاك أنْ تردَّ الأمر على الله سبحانه وتعالى .

فإذا كنتَ لا تصلى ، فلا تَقُلْ : وما فائدة الصلاة ؟

وإذا لم تكُنْ تزكِّى .. فلا تَقُلْ : تشريع الزكاة ظلم للقادرين .

وإذا كنتَ لا تطبق شرع الله .. فلا تَقُلْ : إن هذه الشريعة لم تَعُدْ تناسب العصر الحديث .

فإنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله ، ولكن قُلْ : يا ربى إن فَرْضَ الصلاة حَقٌّ ، وفَرْض الزكاة حَقٌّ ، وتطبيق الشريعة حَقٌّ ، ولكننى لا أقدر على نفسى ، فارحم ضَعْفى يا ربَّ العالمين .

إنْ فعلتَ ذلك تكُنْ عاصياً فقط .

وقد يقول قائل : ما دام الحق سبحانه شرع التوبة ، فلأفعلْ ما أريد من المعاصى ، وبعد ذلك أتوب .

نقول له : إنك لم تلتفتْ إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ، فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أنْ تتوبَ ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية .

وعليك أنْ تلتفتَ إلى دِقّة النصِّ القرآنى :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ [1] ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء]

فهناك مَنْ يفعل المعصية ، ويُخطِّط لها ، ويفرح بها ، ويُزْهَى بما ارتكب ، ويفخر بزمن المعصية .

وهناك مَنْ تقع عليه المعصية ، وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ، ويضرب نفسه ويُعذِّبها ويتساءل : لماذا فعلت ذلك ؟

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة مَنْ عاشوا فى عاصمة فرنسا ، ويحاول أنْ يحصلَ على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إنْ يذهب إلى باريس حتى ينغمسَ فى اللهو ، وعندما يعود يظلّ يُفاخر بما فعل من المعاصى .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين. إذن : هو إنسان وقعتْ عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أنْ هدأتْ شِرّة[2] الشهوة غرق فى الندم ، وبعد أن عاد استترَ من زمن المعصية .

هكذا نرى الفارقَ بين المخطِّط للمعصية ، وبين مَنْ وقعت عليه المعصية .

---

(١) قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . (تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٣) .

(٢) الشرة : النشاط والرغبة. وشرة الشباب : حرصه ونشاطه . (لسان العرب ـ مادة : شرر) .

والله سبحانه حين قَدَّر أمر التوبة على خَلْقه رحم الخَلْق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلاَّ لَغَرق العالمُ فى شرور لا نهايةَ لها ، بدايةً من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحرافَ عملاً له .

والمهم فى التائب أنْ يكونَ قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب .

والرسول ﷺ حين حدد معنى «من قريب» قال :

«إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1]»[2] .

والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر]

إن إبليس قال ذلك وظَنَّ أنه سيُهلك البشر جميعاً ، ويُوقعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلَصهم له ، لكن الله سبحانه خيَّب ظَنَّه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد .

فإذا ما قدَّم العبد التوبة لحظة الغرغرة ، فماذا يستفيد المجتمع ؟

---

(١) الغرغرة : تردد الروح فى الحلق . (اللسان ـ مادة : غرر) وهو قوله تعالى : **﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾** [الواقعة] وذلك حين الاحتضار .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن غريب . والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبى ، وابن حبان (٢٤٤٩ ـ موارد الظمآن) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ، لأنه تاب وقت ألاَّ شَرَّ له ، لذلك فعلى العبد أنْ يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى.

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ .. (١٧)﴾ [النساء]

تأمل كلمة (إنما التوبة على الله) تجدها فى منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً أو مَديناً ، وأحال دائنه إلى غنىّ من العباد فإن الدائنَ يفرح لأن الغنى سيقوم بسداد الدَّيْن وأدائه إلى الدَّائن ، فما بالنا بالتوبة التى أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ؟ إنه قد أحالَ التوبة على نفسه لا على خَلْقه ، وهو سبحانه أوجبَ التوبة على نفسه ، ولا يملك واحد أنْ يرجعَ فيها .

ثم قال : ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧)﴾ [النساء]

أى : أن العبدَ يرجو التوبة من الله .

والحق سبحانه يُعلِن للناس فى قرآنه :

﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر]

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورتُه وعظمتُه ، ولا يُقال (نبئ) فى خبرٍ بسيط ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ]

وقال :

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)﴾ [ص]

وهو الإخبار بنبأ الآخرة ، وما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذى يختصُّ به عباده المخلصين المتقين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتعون بخيْراتها خالدين فيها .

والحقُّ سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجس ، ولا يمكن أنْ تسلمَ النفسُ من بعض الأخطاء والذنوب والوَسْوسة ، بدليل أنه سبحانه قد حرَّم الكثير من الأفعال على المسلم ، حمايةً للفرد ، وحمايةً للمجتمع أيضاً ؛ ليعيش المجتمع فى الاستقرار الآمِن .

فقد حَرَّم الحق سبحانه على المسلم السرقةَ والزِّنا وشُرْب الخمر وغيرها من الموبقات[1] والخطايا والهواجس التى تقوده إلى الإفساد فى الأرض.

وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعنى أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرّمًا ومُجرِّماً لمَنْ يفعل ذلك ، كما يُلزم كُلَّ المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، ألاَّ يُؤرّق نفسه بتلك الغفلات ، فسبحانه رءوف رحيم .

---

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وبق الرجل : هلك . قال الفراء : أوبقت فلانًا ذنوبه أى أهلكته . (لسان العرب ـ مادة : وبق). وعن أبى هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يا رسول الله وما هن ؟ . قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩) كتاب الإيمان .

والحق سبحانه لا يُغلق باب التوبة أمام العاصى ، فلو لم تُشرع التوبة والعفو والمغفرة من الله لَزَادَ الناس فى معاصيهم وغرقوا فيها وتمادَوْا فى الشَّرِّ.

إن الله تبارك وتعالى حين يفتحُ باب التوبة يريد لحركة العالم أنْ تسيرَ ، هَبْ أنَّ نفسًا غفلتْ مرة ، أو قادتْها شهوتُها مرة إلى معصية ، أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء .

لو لم تكُنْ هناك توبة ومغفرة لانقلبَ كل هؤلاء إلى شياطين ، ولكن الحق سبحانه يُطمئن المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرَّة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تُخرجه من حظيرة التقوى ؛ لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين .

فقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾ (آل عمران)

فالفاحشة التى تكون من نَزْغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تُخرجهم أبدًا عن وَصْفهم بأنهم مُتقون ؛ لأن الحق سبحانه هو الغفور :

﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ... (١٣٥) ﴾ (آل عمران)

فالحق سبحانه وتعالى يعلم أن بنى آدم لا يمكن لهم أن يُراعُوا حقوقه

كما يجب أنْ تُراعى ، فـلابُدَّ أن تُفلتَ منهم أشياء ، وهو سبـحانه وتعالى يعلم ذلك ؛ لأنه خـالقه ، فـأمرهـم ـ جَلَّتْ حكمتـه ـ أنْ يستـغـفروه ، لِيُكفِّـروا عن سيئاتهم .

□□□

٣٢ قال الله تعالى فى الحديث القدسى :

« يَا مُـوسَى ، لَنْ تَرَانِى ، إِنَّهُ لَنْ يَرَانِى حَىٌّ إلا مَــاتَ ، وَلا يَابِسٌ إلا تَدهْدَه[١] ، ولا رَطْب إلا تفــرَّق . إنمــا يَرانِى أَهْلُ الجنَّةِ الذين لا تَمُوتُ أَعْيُنهم ، ولا تَبلَى أجْسَادُهُم » [٢]

---

(١) يتدهده : يتدحرج . والدهدهة : قذفك الحجارة من أعلى إلى أسفل ، دحرجة . دهدهه : قلب بعضه على بعض . (لسان العرب ـ مادة : دهده).

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٣٥) ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٤٤) وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** .. (١٤٣) ﴾ (الأعراف) .وأورد السيوطى أثرًا آخر فى الدر المنثور (٣/ ٥٤٦) وعزاه لابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس : « إن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه ، فسأله فقال : ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ** .. (١٤٣)﴾ (الأعراف) قال : فحف حول الجبل بالملائكة ، وحف حول الملائكة بنار ، وحف حول النار بملائكة ، وحف حولهم بنار ، ثم تجلى ربك للجبل تجلى منه مثل الخنصر ، فجعل الجبل دكًا وخر موسى صعقًا ، فلم يزل صعقًا ما شاء الله، ثم إنه أفاق فقال : ﴿ **سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** (١٤٣)﴾ (الأعراف) يعنى : أول المؤمنين من بنى إسرائيل» .

يقصُّ علينا رَبُّ العزَّة سبحانه هذا الموقف مع موسى كليم الله فى قرآنه فيقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾

(الأعراف)

لا بُدَّ أنْ نعرف أن قضية رؤية الله فى الدنيا محسومة ، وأنه لا سبيلَ إلى ذلك والإنسان فى جسده البشرى ، لأن هذا الجسد له قوانينُ فى إدراكاته ، ولكن يوم القيامة نكون خَلْقًا بقوانين تختلف .

ففى الدنيا لا بُدَّ أن تخرج مُخلَّفات الطعام من أجسادنا ، وفى الآخرة لا مُخلَّفات ، وفى الدنيا يحكمنا الزمن ، وفى الآخرة لا زمن ، إذْ يظلُّ الإنسان شبابًا دائمًا . إذن : فهناك تغيير .

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة ، ففى الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله ، وفى الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى ، وهذا قمة النعيم فى الآخرة .

أنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله ، وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى ـ عليه السلام ـ بأن أراه العجز البشرى ؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكًا .

وكأن الله يريد أن يُفهِم موسى أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته تعالى رحمة منه ، لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل ، فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى ؟

وإذا كان موسى قد صُعِق برؤية المتجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّى ؟

والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله . فنحن نعلم أن كُلَّ تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء ، وضربنا لذلك مثلاً من دُنْيانا العملية ، ولله المثَلُ الأعلى دائمًا ، وهو مُنزَّه عن كل مثال .

نجد الإنسان منّا عندما يُدخِل الكهرباء إلى بيته لرغبته فى الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة ، ولكنه عندما يريد أنْ ينامَ فهو يطلب الانتفاع بقانون الظُّلْمة ، فيطفىء المصابيح ، ويضع مصباحًا صغيرًا لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوى .

لذلك يأتى الإنسان بمُحوِّل للطاقة ، فيستقبل المحوِّل طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويُخفِّضها بصورة تناسب المصباح الصغير ، وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف فى الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام .

لذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٠٣) ﴾ (الأنعام)

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصرَ آلةُ إدراك لها قانونها بأن ينعكس

الشعاع من المرئىّ إلى الرائى ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته، وأصبح مَنْ يراه قادرًا عليه ، ولصار مقدورًا لكم ، لأنه دخل فى إدراككم .

فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدورًا لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدورًا أبدًا ، إذن: فمن عظمته أنه لا يُدْرك : أنت قد ترى الشمس ولكن أتدَّعى أنك أدركتَها ؟ لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة .

فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادرًا ، وصار الله مقدورًا عليه ، والقادر بذاته ـ كما قلنا ـ لا ينقلب مقدورًا لخَلْقه أبدًا .

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا :

هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه ، سواء فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

بعضهم قال : لا أحد يرى الله بنصِّ الآية : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ .

ونقول : لكن هناك آيات فى القرآن تقول :

﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ (القيامة)

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتُفيدها ، وأيضًا فالله يعاقب منْ كفر به ، بأن يحتجب عنه ، لأنه سبحانه القائل :

﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)** ﴾ (المطففين)

فالكافرون محجوبون[1] عن رؤية الله عقابًا لهم ، ولو لشتركنا معهم

---

(١) الحجاب : الستر الحاجز . والمحجوب : الممنوع من الوصول . وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٨٥) : « قال الإمام الشافعى : فى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ـ عز وجل ـ يومئذ . وهذا الذى قاله الإمام الشافعى رحمه الله فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما =

وحُجبنا كما حُجبوا ، فما مَيْزتنا كمؤمنين ؟

وحين يَحتجُّ عالم منهم بأن رؤية الله غير مُمكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى :

﴿ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴿١٤٣﴾ ﴾

(الأعراف)

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ(١) مُوسَىٰ صَعِقًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف)

إذن : فالله يتجلى لبعض خَلْقه . أما أن يراه الخلق فى الدنيا فلا ، لأن تكويننا غير مُؤهَّل لأنْ يرى الحق سبحانه ، بدليل أن الأصلب والأقوى منَّا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندكَّ .

فلما اندكَّ الجبل خَرَّ موسى صَعِقًا ، فإذا كان موسى قد خرَّ صَعِقًا(٢) لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه ؟ إذن : فهو غير مُعَدّ له .

وموسى قد واعده ربه ليأتيه ، فقال تعالى :

= دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة) وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل ـ فى الدار الآخرة رؤية بالأبصار فى عرصات القيامة وفى روضات الجنات » .

(١) خر يخر : سقط من علو إلى سفل بصوت . (القاموس القويم ١/ ١٩٠) .

(٢) الصعق : أن يُغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه ، ثم استعمل فى الموت كثيرًا . (لسان العرب ـ مادة : صعق).

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .. (١٤٢) ﴾ (الأعراف)

وقيل : كان موسى ـ عليه السلام ـ قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابُدَّ أن يكون الإعداد بطُهْر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يومًا ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكًا وتسوك به ليذهب رائحة فمه .

فأوضح الحق سبحانه له : أما علمتَ يا موسى أن خلوف[1] فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل عليّ بريح المسك فزد عشرة أيام ، حتى تأتى كذلك[2] .

وعندما جاء موسى للميقات كَلَّمه ربُّه ، وتكليم الله لموسى هو نقطة تميُّز لموسى ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي (١٤٤) ﴾ (الأعراف)

وحينما خَصَّ الله موسى بميزة أنْ تكلَّم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفائى ، وكأنه قال لنفسه : ما دام قد كلمنى ربى فقد أقدر أن أراه ، لأن

---

(١) الخلوف : تغيُّر ريح الفم لتأخر الطعام . (لسان العرب ـ مادة : خلف).

(٢) أخرجه الديلمى فى الفردوس بمأثور الخطاب (٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه : « لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يومًا وقد صام ليلهن ونهارهن ، فكره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه : لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذى كان ـ قال : أى رب كرهت أن أكلمك إلا وفِيّ طيب الريح . قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشرة أيام ثم إيتنى ، ففعل موسى الذى أمره ربه ، فلما كلم الله موسى قال له ما قال » . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٣٥) وعزاه للديلمى .

استطـابة الأُنْس تمدُّ للنفس سُـبُل الأمل فى الامتـداد فى الأشيـاء ، مثلمـا قال موسى من قبل رَدّاً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (طه)

كان الجواب يكفى أن يقول « عصا » لكنه قال :

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾﴾ (طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟

وأراد بالكلام أن يُطيلَ الأُنس بربه ، وكـأنه عـرف أنه من غيـر اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة ، رَدّاً على سؤال .

ولله المثَل الأعلى ، نجد الإنسـان منّا حين يرى طفلاً صغيرًا فـهو يداعبه ويُطيل الكلام معه إيناسًا له ، وحين وجد مـوسى أن الله يُكلّمه استشرفت نفسه أنْ يراه .

وموسى لم يَقُلْ : أَرِنى ذاتك ، بل قال : ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إنْ أراه الله فهذا أمرٌ بمشيئة الحق ، وقدَّم موسـى الطلب مُعلَّقًا بمشـيئة الله وإرادته ، لأنه يعلم أنه غيـر مُعَدٍّ لاستقبال رؤية الله ، لأن تكوينه لا يقْوى على ذلك .

---

(١) هش الشجر يهـشه : ضربه بعصًا ليسـقط ورقه لتأكله الماشية . قـال تعالى عن موسى: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴿١٨﴾﴾ (طه) أى : أسقط بعـصاى أوراق الأشجار على غنمى لتأكلها . (القامـوس القويم ٢/٣٠٣) .

وحتى فى الوحى والكلام لم يُكلِّم ربُّنا الناس مباشرة ، بل لا بُدَّ أن يصطفى من الملائكة رُسُلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أنْ يصطفى من البشر رُسُلاً ، ويُبلِّغ الرسلُ الناس كلامَ الله ، لأن الصفات الكمالية العالية الخالقة لا يمكن أنْ يستوعبها المخلوق .

وسبحانه هنا يُعلِّل لموسى بعملية واقعية فأوضح :

لن ترانى ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تُمكِّنك من رؤيتى انظرْ إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، فإن استقرَّ مكانه يمكنك أن ترانى .

إن الجبل بحُكْم الواقع وبحُكْم العقل ، وبحُكْم المنطق أقوى من الإنسان وأصلب منه وأشدّ ، ولما تجلَّى ربُّه للجبل اندكَّ ، والدَّكُّ هو الضغط على شىء من أعلى ليُسوَّى بشىء أسفل منه .

فطبيعة موسى لا تَقْوى على تجلِّى الله ، بدليل أن الأقوى منه لم يَقْوَ .

والحق سبحانه لم يقُلْ : « أنا لا أُرَى » بل قال « لن ترانى » .

فهناك فرق بين العبارتين . أنا أُرى ، لكن أنت بتكوينك الحالى الدُّنيوى لن ترانى ، إنما قد تُغيِّر حالتك إلى أنْ ترانى ، وإذا كان البشر يستطيعون أن يجعلوا لمن لم يَرَ شيئًا أن يرى ، فيظل يُقوِّى من بصره إلى أن يرى .

وبعد ذلك أراد الله أنْ يلفتنا لَفْتة تصاعدية ، ويُبيِّن لنا أن موسى قد صُعِق لرؤية المتجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ... (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

ويُقال : خَرَّ الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل . وصَعْقة موسى تُعبِّر عن الإغماءة الطويلة ، فهى صعقة ليست مميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصَّعْقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله .

لقد انصعق ؛ لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليّات المخالفة لنواميس الكون ، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلَّمه الله ، فلماذا يُصعِّد المسألة ويطلب الرؤية ؟

ولماذا لم يترك الأمور للفُيوضات التى يعطيها الله له ، ويتنعَّم بفيض جود لا ببذْل مجهود ؟

ويُقرّر موسى ويقول : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

أى : بأن ذاتَكَ ـ سبحانَكَ ـ لا يقدر مخلوقٌ أنْ يراها ويُدركها ، لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر ، لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته ، وقال :

﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

ويُذكِّر الحق سبحانه بنى إسرائيل بما قالوه ، فقال :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (55) ﴾ (البقرة)

فبعد أن تاب الله علـى قوم موسى بعد عبادتهم العـجل عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديّتـهم ، فَهُمْ كانوا يريدون إلهًا مـاديًا ، إلهاً يرونه ، ولكن الإله من عظمته أنه غَيْب لا تُدركه الأبصار .

فكوْنُ الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر ، هذا من عظمته جَلَّ جلالُه ، ولكن اليهـود الذين لا يؤمنون إلا بالشىء المادى المـحسّ ، لا تتسع عـقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله سبحانه وتعالى فوق المادة وفوق الأبصار .

فهم طلبوا الرؤية مَجْهورة واضحة يُدرِكُونها بحواسِّهم ، وهذا دليل على أنهم مُتمسِّكون بالمادية التى هى قِوَام حياتهم .

نقول لهؤلاء : إن سؤالكم يتسِمُ بالغباء ، فهم لم يلتفتوا إلى أن بعضًا من كمال وجـلال الله غَيْب ، لأنه لو كان مشهـودًا مُحسّاً لَحُدِّد وحُيِّـز ، وما دام قد حُدِّد وحُيِّز فى تصـوُّرهم ، فذلك يعنـى أنه سبحـانه قد يوجـد فى مكان ، ولا يوجد في مكان آخر .

والحـق سـبحـانـه مُنزَّه عن مِـثْل ذلك ؛ لأنه مـوجود فى كُـلِّ الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن نرى آثار أعمال وجميل صُنْعه فى كُلِّ الكون.

إذن : فكَوْنُ الله غَيْـباً هو من تمام الجلال والكمـال فيه ، لكن اليـهود قد

صَوَّروا الأشياء كُلَّها على أنها حِسِّية ، حتى أمور اقتيات حياتهم وهى الطعام ، لقد أرادها الله لهم غَيْباً حتى يُريحهم فى التيه ، فأرسل عليهم المنَّ والسَّلْوى(1) كرزق من الغيب الذى يأتى إليهم ، لم يستنبتوه ، ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كُنْهه ، ولم يجتهدوا فى استخراجه.

إنه رِزْق من الغيب(2) ، ومع ذلك تمرَّدوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب ، وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا(3) وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا(4) بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) ﴾ (البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما أَلِفُوا ، وأنْ يَرَوْا هذا الطعام كأمر مادىّ من أمور الحياة ، لذلك تشكَّكُوا فى رِزْق الغَيْب ، وهو المنّ والسَّلْوى وقالوا : « مَنْ يُدرِينا أنَّ المنَّ قد لا يأتى ، وأنَّ السَّلْوى قد لا تنزل علينا ».

(1) المن : ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاء طيبًا لبنى إسرائيل. والسلوى : السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا في الشتاء إلى البلاد الدافئة لمصر والسودان ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى موطنه فى أوربا ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده. (القاموس القويم ١ / ٢٤٠ ، ٢ / ٣٢٦)

(2) قال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) ﴾ (البقرة).

(3) البقل : نبات عشبىّ يؤكل أو تؤكل بذوره ، أو كل ما اخضرت به الأرض. والفوم : الثوم. وقيل فيه أقوال أخرى : الحنطة ، الحمص. (القاموس القويم ٢ / ٩٢).

(4) باءوا : رجعوا بإثم استحقوا به النار. (لسان العرب - مادة بوأ)

فلم تكُنْ لهم ثقَــة فى رزق وُهب لهم من الغــيب ، لأنهم تـناولوا كل أمورهم بمـادية صِرْفـة ، وما دامت كل أمورهم مـادية فهم فى حـاجة إلى هِزّة عنيفة تهزُّ أوصال ماديتهم هذه ، لتُخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب.

فرغْم أنهم رَأوا المعـجزات ، وشَقَّ الله البحر لَهُم ، وعبـروا البحر وهم يشاهدون المعجزة فلم تكُنْ خافـية عنهم ، بل كانت ظاهرة لهم واضحة ، دالّة دلالة دامغة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته.

ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرة ، أى لم تكْفِـهم هذه المعـجزات ، وكـأنما كـانوا بماديتـهم يريدون أنْ يروا فى حياتهم الدنيوية مَنْ لا تدركه الأبصار.

أما فى الآخرة فسيكون الإنسان قد تَمَّ إعداده إعداداً آخر ليرى الله ، نحن الآن فى هذه الدنيا بالطريقة التى أعدَّنَا بها الله لنحيا فى هذا العالم لا نستطيع أنْ نرى الله.

ومسألة إعـداد شىء ليمارس مهمـةً ليس مُؤهّلاً ولا مُهيَّـأ لها الآن ، أمر موجـود فى دُنْيانا ، فنحن نعرف أن إنسـاناً أعمى يَتم إجراء جـراحة له ، أو يَتم صناعة نـظارة طبية له فـيرى ، ومَنْ لا يسـمع أو ثقيل السـمع نصنع له سمـاعة فيسمع بها.

فإذا كـان البشـر قد اسـتطاعوا أنْ يعـدُّوا بمقـدوراتهم فى الكون أشـياءَ لِتُؤهّلهـم إلى استعـادة حاسَّة مـا ، فمـا بالُنا بالخالق الأكـرم الإله المربِّى ، ألاَ

يستطيع أنْ يُعيد خَلْقنا فى الآخرة بطريقة تتيح لنا أنْ نرى ذاته ووجهه ؟

إنه القادر على كُلِّ شىء.

إن آيات القرآن صريحةٌ فى أن رُؤْية الحق سبحانه وتعالى من نِعَم الله على المؤمنين ، وهى زيادةٌ فى الحُسْنى عليهم.

قال تعالى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ[1] وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾ (يونس)

فالزيادة عطاء زائد فى الحسنات ، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ، ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فبواحدة ، وهذا الكادر لا يُحدِّد فضل الله ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

فمراتب الجزاء تتعدد : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحُسْنى ، والزيادة عن الحُسْنى.

وقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك :

«إذا دخلَ أهلُ الجنة الجنةَ قال : يقول الله تبارك وتعالى : تُريدون شيئاً أزيدكم ؟

فيقولون : ألم تُبيِّض وُجُوهنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنة ، وتُنجِّنَا من النار ؟

قال : فيكشف الحجاب فَما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم

(١) القترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان. (لسان العرب - مادة : قتر).

عز وجل»[1].

إنه نعـيم على قَدْر إمـكانات الله سبـحانه ، ولا مُـقـارنَة بين إمكانات الله وإمكانات خَلْقه ، وفوق ذلك فهو نعيمٌ دائم لا يتركك فيزول عنك ، ولا تتركه لأنك فى الجنة خالدٌ لا تموت.

يقول تعالى :

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) ﴾

(التوبة)

فَمَنْ عبدَ الله ليدخلَ الجنةَ أعطاها له ، ومَنْ عبده سبحانه لأنه يستحق أنْ يُعبد فسوف يرتقى فى الجنة ليرَى وجه الله فى كُلِّ وقت ، وأما الآخرون الذين أطاعوا رجاءَ ثواب الجنة فسيروْنَه لمحات ، ولـذلك يكون الجزاءُ فى الآخرة على قَدْر العُمْق الإيمانىّ للعبد.

وجنَّةُ الآخرة ليس فيها مُنَغِّصَات الدنيا ، بل هى صفاء واستمتاع ، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده مَا تشتـهيه نفسه ويُبعد عنه جميع المنغِّصات ، وهو نعيمٌ مُقيمٌ دائم لا ينتهى.

❑❑❑

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨١) ، والإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى فى هذا الكتاب (١/ ٣٦٧ - ٣٨٤)

٣٣ قال رب العزة فى الحديث القدسى:

«النَّظْرةُ سَهْمٌ مَسْمومٌ مِنْ سِهامِ إبْليسَ، مَنْ تركَها مِنْ مَخَافَتي أَبْدلْتُه إيمَاناً يَجِد حَلاَوَتَهُ فِى قَلْبِه» [١]

لقد رَأفَ الحقُّ سبحانه بالرجل والمرأة أنْ أمرهما بغضِّ البصر، لأن الإنسان لن يستطيعَ مُطْلقاً أنْ يفصلَ بين الإدراك والوُجْدان والنُّزوع ، فكُلٌّ من الإدراك والوُجْدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيمائى لكُلٍّ من الرجل والمرأة.

فإمَّا أنْ يعفَّ الإنسانُ نفسَه ويكبت أحاسيسه ، وإمَّا ألاَّ يعف فَيَلَغ[٢] فى أعراض الناس ؛ لذلك خاطب الحقُّ سبحانه رسولَه ليُوجّه الرجال ، فقال:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) أورده المنذرى في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٧) وعزاه لعبد الله بن مسعود. وكذا العجلونى في كشف الخفاء (٢/ ٤٥٥) ، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد(٨/ ٦٣) عزوه كلهم إلى الطبرانى وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف. وقد أورده الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣١٤) من حديث حذيفة غير مروى عن رب العزة ، قال الذهبى : « فيه واه وضعيف ».

(٢) الولغ : شرب السباع بألسنتها ، وولغ الكلب في الإناء : شرب فيه بأطراف لسانه . (لسان العرب - مادة : ولغ) والمقصود به الخوض في أعراض الناس.

خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ (النور)

وكذلك النساء ، فقال :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا (٣١) ﴾ (النور)

فالآيتان تأمران الرجل والمرأة بغضِّ الأبصار وحفْظ الفروج.

والإنسان له إدراكات متعددة ، وكُلُّ جهاز إدراك له مَنَاط ، فالأذن تسمع الأصوات ، والأنفُ تشمُّ الرائحة ، واللسان يتذوَّق المطعومات والمشروبات ، ويتكلم بما يُراد ، والعين ترى المرئيات.

وأفـتَنُ شيء يصيب الإنسان من ناحيـة الجنس يأتى عن طريق العـين، فالعين تُبصِر ما حولها ، فهناك مُبْصِر (بكسر الصاد) وهو العين ، وهناك مُبْصَر (بفتح الصاد) وهو مصدر الفتنة التى ستراها العين.

فلا بُدَّ أن يضع الحقُّ مناعة فى كِلاَ الطرفين ، فأمرنا بغضِّ البصر ، وبعد ذلك ستأتى الآيات التى تأمر المبْصَر (بفتح الصاد) بعدم إبداء زينته.

فبالنسبـة للعين أمرنا بغضِّ البصَر وأمر المؤمنات بالحـشْمة وعدم إبداء الزينة ، وبذلك يمنع المسألة من الناحيتـين ، فحين تغضُّ بصرك عن محارم الله لا يَهُمك إنْ كانَ هناك زينةٌ أم لا.

- فإنْ غَضَّ الرجلُ بصره ولم يكُنْ للمرأة زينة ، فالمسألة سليمة تماماً.
- وإن غضَّ بصره وكانت المرأة مُـبْديةً زينتها ، فالمسـألة سليمة أيضاً ،

لأنه لن يرى منها شيئاً يفتنه طالما غَضّ بصره.

- وإن نظر إليها وهى غير مُبْدية لزينتها فلن يحدثَ شيء.
- ولكن الخطورة فى الحالة الرابعة ، وهى أنْ ينظرَ الرجل إلى المرأة وهى مُبدية لزينتها ، فهنا مَكْمَن الخطر.

فالمؤمن يغضُّ بصره ، والمؤمنة لا تُبدى زينتها ، وتغضُّ بصرها أيضاً ، حتى لا تُفتنَ برجل وَسيم قد يكون أحسنَ من زوجها.

كُلُّ هذه المسائل مَنْع للشيء البشع الذى قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ (الإسراء)

والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يتكلَّم عن أوامره ونواهيه ، فنجده مرة يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ (البقرة)

ومرة أخرى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ (البقرة)

وهناك فارق بين الاثنين ، فقوله تعالى (لاتعتدوها) يعنى : هذا حَدُّكَ فلا تتعدَّه ، فأنت وصلتَ إلى الحدِّ ولكن لا تتعدّه.

ولكن حين يقول سبحانه (فلا تقربوها) فأنت لم تصل إلى الحدِّ ولكنك بعيدٌ عنه ، والملاحظ أن الحق سبحانه بعد كل الأوامر يقول (لا تعتدوها) ، وعند النواهى يقول (لا تقربوها).

فالأمر المنهىّ عنه لا يتركك حتى تصلَ إليه ، ولكن يأمرك بالابتعاد عنه حتَّى لا يُغريك الشيطانُ بالوقوع فيه.

إذنْ : هناك فَرْق بين الفعل وبين أنْ تقربَ الفعل ، ومع أن المحرَّم هو الفعل ، فقد نهاك عن الاقتراب منه ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يرحمَ عواطفك فى هذه المسألة بالذات ، وهى مسألة الغريزة الجنسية ، لأنك إنْ حُمْتَ حول الحِمَى تُوشِك أنْ تُواقِعه[1] ، فحين تبتعد عنه يكون خيراً لك.

وقد قَسَّم العلماء مظاهر الشعور إلى ثلاث مراحل :

مرحلة الإدراك   مرحلة الوُجْدان   مرحلة النُّزُوع

وضربْنا مثلاً لذلك فَقُلْنَا : أنت تسير فتجد بستاناً فيه وردة جميلة ، ساعةَ ترى هذه الوردة الجميلة يُقال : إنك أدركت جمال هذه الوردة ، فهذا إدراك ، فلم يمنعْكَ أحدٌ أن تنظرَ إلى الوردة وترى جمالها.

فإذا ما أعجبتْكَ وراقتْكَ واستقرَّ فى نفسك حُبُّ الوردة ، يُقال : هذا وجدان. فانتقلت من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الوُجْدان.

فإذا مددْتَ يدكَ لتقطفها فهذه مرحلة النُّزوع.

الشرع هنا لا يمنعك من أنْ ترى وردةً فى بُسْتان ، ولم يمنعك أن تُعجبَ بها ، ولكنه يمنعك أنْ تمُدَّ يدكَ لِتقْطفها.

(١) عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين وإن الحرام بَيّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٩٩) كتاب المساقاة ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٢ ، ٢٠٥١).

فالتشريع يتكلم عن مرحلة النُّزوع إلاَّ فى مسألة واحدة ، هذه المسألة هى التى لا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوُجْدان ، ولا الوُجْدان عن الإدراك ، لأنها مراحلُ مُتداخلة فى بعضها ، حيث لا تَقْوى النفس البشرية على الفَصْل بينها.

فمثلاً ، إذا رأى إنسانٌ فتاة جميلة فَعَشقها وأُعجب بها ، فهذا إدراك ووجدانٌ ، ثم أراد الاقتراب منها نقول له : هذه ليست لك.

فهذه المراحل لا يسهل فَصْلُها عن بعضها ، لأن الإدراك ولَّد وجداناً ، والوُجْدان أحدث فى النفس البشرية عملية غريزية عنيفة لا نستطيع أنْ نفصلَ النُّزوع عنها ، فإمَّا أنْ تنزع وتذهب إليها ، وإمَّا أنْ تعفَّ.

فإنْ نزعتَ وذهبت إليها أصبحتْ المسألة فوضى ، وإنْ لم تفعل تتضايق وتتألم ، وتظلّ عالقة بذهنكَ ويُتعبك التفكير والتعلُّق بها.

فربُّنا من رحمته قال لك : يا عبدى أنا أعلم بك ، فافْصِل الإدراك والوُجْدان عن النُّزوع فى المرأة بصفة خاصة ، لأنك لا تستطيع إنْ أدركتَ جمالاً ألاَّ تجدَ فى نفسك عشْقاً وحُباً ، وأنت مُحرَّم عليك النُّزوع.

فإنْ أقبلْت هتكْتَ أعراض الناس ، وعَمَّتْ الفوضى ، وإنْ عففْت أتعبتَ نفسك وظللْتَ فى هَمٍّ وغَمٍّ ونكد وألم نفسىّ ، فمن الأفضل لك ألاَّ ترى شيئاً من ذلك ، وألاَّ تجد حتى لا تنزع.

ولذلك حَرَّم الله علينا أنْ ننظرَ إلى أعراض غيرنا ، حتى يُريح الإنسانُ نفسَه من أول الأمر.

فقال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... (٣٠) ﴾ (النور)

فهناك غَضُّ النظر إلى محارم الله ، لأنك لو نظرتَ لأدركتَ ، ولو أدركتَ لَوجدْتَ ، ولو وجدْتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدت الحياة واعتديْتَ على الأعراض ، وإنْ كتمْتَ في نفسك تعبْتَ وتألمتَ وعانيتَ ، وعشْتَ حياةً تعيسة.

فالحقُّ سبحانه اختصر الطريق لنا ، وأمرنا بغضِّ البصر من البداية حتى لا نقع في هذه المشكلة ونمنع حدوثها ، وحتى نحمي أعراض الناس ونرحم نفوس الشباب من أنْ تكتمَ وتكبتَ وتمرض وتتألم.

بعض المتحايلين على أوامر الله يدَّعُون أن النظرةَ لا تُحدث شيئاً ، وأن كل واحد في حاله ، ونحن نقول لهم : هذا كلام الله الذى خلقنا ويعلم دخائل نفوسنا وطبيعتنا ، وهو الذى أمرنا بذلك.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ (الإسراء)

لم يَقُل لا تزنوا ... ولكن أمرنا بعدم الاقتراب منه ، والاقتراب يكون بالنظر وبالمخالطة والمعاشرة والحديث بحجة أن هذا ابنُ خالتها ، وهذا ابن عمتها ، وهذا ابن عمها ، وهذا تربَّى معها ، وهذا زميلها.

وهذا كله فساد فى فساد ، لأنه طالما يحل له أنْ يتزوَّجها فلا عُذْرَ

لاختلاطه بها ، وعليه أنْ يبتعدَ ما دام ليس مُحرّماً عليها ، وكفى المجتمعات مشاكل ومتاعب.

فامنعوا المسائل من أوَّل مراحلها.

لذلك أمر الحق سبحانه النساء بإخفاء الزينة ، فقال تعالى :

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا[1] **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ**[2] **عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**[3] **... (٣١) ﴾** (النور)

الزينة هي الأمر الزائد عن الخِلْقة الفطْرية ، ولذلك يقولون عن المرأة الجميلة بطَبْعها أنها ليست بحاجة إلى الزينة ، فكانوا يُسَمُّونها غانية[4] ، أي : غَنِيَتْ بجمالها أنْ تتزيَّنَ.

والمرأة تُحبّ دائماً أن تتزيَّنَ وتُبرِز جمالها ومفاتنها ، خاصة إذا كانت غير مُتَديِّنة ، وذلك حتى تجذب أنظار الرجال إليها ، حتى أنك أحياناً ترى سيدة مُسِنَّة ، ومع ذلك تضع الأصباغ والمساحيق على وجهها ، وهذا شيءٌ غير لائق بها.

---

(١) أي : لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال عبد الله بن مسعود : الزينة زينتان ، فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينة يراها الأجانب ، وهي الظاهر من الثياب. (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٣)

(٢) الخمر : جمع خمار. وخمار المرأة : ما تغطي به رأسها ، وقد أمر الله النساء بإسداله على صدورهن. والخمار : خمر الشيء ستره ، وهو كل ما ستر وغطَّى. (القاموس القويم ١/ ٢١٠).

(٣) الجيب : جيب القميص والدرع. وهو ما يفتح منه على الصدر. ومعنى قوله تعالى: **﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ (٣١) ﴾** (النور) أي : يغطين أعلى صدورهن مع وجوههن. (القاموس القويم ١/ ١٣٨).

(٤) الغانية التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحَلْي. (لسان العرب - مادة : غنى).

فالحقُّ سبحانه أمرَ المسلمات بغضِّ أبصارهنّ ، وعدم إبْداء زينتهنَّ ، ومع ذلك رَحم الله ضَعْف الأنوثة ، فقال:

﴿ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. (٣١) ﴾ (النور)

مثل عينيها التى ترى بهما فى الطريق ، وقد يكون فيهما كُحْل ، وكذلك يدها قد يكون فيها خاتم أو حُلىّ ، أو حنّاء ، فهذا مُبَاحٌ لها ، لكن زينة الصدر أو زينة الأُذن لا بُدَّ أنْ تُداريها بالحجاب أو الخمار ، وكذلك الأسْورة والخُلْخال.

ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ (٣١) ﴾ (النور)

ومن العجيب أنك تجد الكثير من الفتيات والسيدات فى زماننا هذا لا تكتفى الواحدة منهُنّ بوضْع المساحيق على وجهها ، بل تكشف شعرها وصَدْرها ، وبعد ذلك تُعلِّق فى عنقها قلادةً ذهبية فيها مصحف.

وهذا شىءٌ عجيبٌ ومفارقات غريبة تدلُّ على عدم الوَعْى أو الفهم.

ويَقُصُّ لنا الحق سبحانه فى قرآنه مثالاً عملياً من قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، فيوسف بدأت متاعبه فى القَصْر عندما بلغ مرحلة الفُتُوة ، ففى طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل ، فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها.

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأتْ تُدرك مفاتنه ، وأخذ

خيالها يسرحُ فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوُجْدان بالعاطفة المشبوبة[1]، ولو كانت محجوبة عنه لَمَا حدثتْ الغوَاية بالإدراك والوُجْدان.

وهذا يعطينا علَّة غَضٍّ البصر عن المثيرات الجنسية ، فكانت نظرتها إلى يوسف عليه السلام وهو فى فُتوته ، بعد أنْ بلغ أَشُدَّه نظرة مختلفة ، يُوضِّحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ[2] ... (٢٣) ﴾ (يوسف)

والمراودة مطالبةٌ برفْق ولين بستْر ما تريده ممَّنْ تُريده ، فإنْ كانَ الأمر مُسهّلاً فالمراودة تنتهى إلى شيء ما ، وإنْ تأبّى الطرَفُ الثانى بعد أنْ عرفَ المرادَ فلن تنتهى المراودة إلى الشيء الذى كنت تصْبو إليه.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن أَثَر النظَر فى النسوة اللاتى أرسلت إليهن امرأة العزيز بعد أن شاعَ أمر حبِّها وهُيَامها بفتاها :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ[3] لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ .. (٣٢) ﴾(يوسف)

---

(١) شب النار والحرب : أوقدها. شَبّة النار : اشتعالها. (لسان العرب - مادة : شبب) والعاطفة المشبوبة : المشتعلة المتقدة.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها. أي : هلم لك. قيل : هى قبطية وقيل : حورانية (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٣)وانظر أيضاً (الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١١٨) وقال في (٢/ ٢٥٤) : «هيت : اسم فعل بمعنى : أسرع وبادر ».

(٣) يقال : حاش لله ، تنزيهاً له. قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله. (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٧).

فَهُنَّ حين آذَيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً مـا من الحُسْن ، لكنهن حين رأيْنَه فـاقَتْ حقـيقـته المـرئية كُـلَّ صورة تخيَّلْنها عنه ، فحدثَ لهن انبهار.

وأوَّلُ مراحل الانبـهار هى الذُّهول الذى يجـعل الشىء الذى طرأ عليك يذهلك عَمَّـا تكون بِصَدده ، فإنْ كان فى يَدك شىء قـد يقع منك ، وقد قطعتْ كُلٌّ منهُنَّ يدها بالسِّكين التى أعطتها لها امرأةُ العزيز لتقطيعِ الفاكهة ، أو الطعام المقدَّم لَهُنَّ.

□□□

٣٤ قال الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى للنفس:

«اخْرُجِى. قالتْ : لا أَخْرجُ إلاَّ كَارِهةً. قالَ: اخْرُجِى وإنْ كَرِهْتِ» (١)

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً .. (١٤٥) ﴾ (آل عمران)

فالله سبحانه هو الذى يُطلق الإذن ، والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة ، ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مَرَّةً هذه العملية للحق سبحانه ، فيقولُ سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾ (الزمر)

(١) أخرجه البزار (١/ ٣٧١ - كشف الأستار) من حديث أبي هريرة ﷺ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٢٥) : «رجال ثقات».

ومرَّة أخـرى يسند القـرآن هذه العمليـة لملَك واحد هو مَلَكُ الـموت ، فيقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (السجدة)

ومرَّة يسندها الحق سبحانه إلى رُسُل من المعاونين لملَك الموت:

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الأنعام)

فقبضُ الروح والإماتة له آمرٌ أعلى ، وهـو الحق سبحانه ، ومن بعد ذلك هناك مُوكَّلٌ عامٌ هو « عزرائيل » مَلَك المـوت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة .

وهذه ثلاثة أساليب يَصفُ بـها الحق سبحـانه عملية الوفـاة وقَبْض روح العبد ، ولـيس فى هذا تناقضٌ أو تضاربٌ أو اختلاف ، بل هو إيضـاح لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو سبحانه الآمر الأعلى ، يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزْرائيل يُطلق الأمر لجنوده .

فهذه الأساليب الثلاثة كلها صحيحة ، لأنها تتعلَّق بمدارج الأمر .

فـالحق سبـحـانه وتعـالى صادق فى كُلِّ بلاغ عنـه ، لأن كُلَّ أمر يُحَـدِّد الأجل ليس بمـراد الموَكّـل بإنهاء الأجَل ، إنمـا هو بإذن من الله تعـالى الذى

---

(١) الحفظة : جمع حافظ . أى : ملائكة رقباء . (القـاموس القويم ١/ ١٦٣) والحفظة : الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بنى آدم من الملائكة ، وهم الحافظون . (لسان العرب ـ مادة : حفظ).

يُحدّد ذلك ، وما دام كُلُّ أمرٍ قَدْ صدرَ منه فهو سبحانه الذى يتوفَّى الأنفس، وبعد ذلك فالمَلكُ الذى يتوفَّى الأنْفسَ - عزرائيل - له أعوان.

فملَكُ الموت عندما يتلقَّى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشرَ كُلُّ واحد مُهمته(١).

إذن : فصَيْرورة الأمر بالموت نهائياً إلى الله ، وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإِذْن ، والإِذْنُ يقتضى مأذوناً ، والمأذون هم ملائكةُ الموت الذين أذن لهم مَلَكُ الموت بذلك ، وملَكُ الموت تلقَّى الإِذن من الله سبحانه وتعالى(٢).

إذن : فأمْرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قُدرته وتحديده لكل أَجَلٍ بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخّر.

---

(١) قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد ، فجلس رسول الله وجلسنا حوله ، فجعل يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى الأرض ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول : اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا ، وإن كنتم ترون غير ذلك ، وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها ، فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين » أورده القرطبي في التذكرة (ص١٢٩) وعزاه لأبي داود الطيالسى وأحمد بن حنبل.

(٢) نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « ارفق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال ملك الموت عليه السلام : يا محمد ، طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها ». أورده القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٧٦) ط. دار التراث القاهرة.

لقد أبهمَ الله زمانه ، وأبهمَ مكانه ، وأبهمَ سببه ، وأبهمَ قَدْره. وهذا الإبهام هو أشدُّ أنواع البيان ؛ لأنه ما دام قد أبهمه فى كُلِّ هذه الأمور يجب أنْ نستعدّ للقائه فى كُلِّ زمانٍ ، وفى كُلِّ مكانٍ ، وبأىِّ سبب.

وإياك أن تتعجَّب لأنه يحدث فى أىِّ سنٍّ ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان ؛ لأنه سبحانه لو حَدَّده زماناً أو مكاناً أو سنّاً أو سبباً ، لكَانَ على الإنسان أنْ ينتظرَ الموت.

لكن الحق سبحانه شاء هذا الإبهامَ ، وهو أَقْوى أنواع البيان ، ليلْفِتك ويحثَّك على أن تنتظره فى أىِّ زمان ، وفى أىِّ مكان ، وبأىّ سبب ، وفى أىِّ سنٍّ.

وبهذا يكون الموتُ واضحاً أمامنا جميعاً ، ولذلك تخشى ارتكاب أىّ ذنب حتى لا تُقبض رُوحك وأنت على الذنب ، لأنك لا تحب أنْ تلقى الله وأنت عَاصٍ.

إنك لا تضمن من عُمرك أنْ تعيشَ إلى آخر الوقت ، ولذلك عندما نقول : إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أنْ نُصدِّق ذلك ، لأن البعض يقول : ولماذا لم يُبيِّن الله لنا ذلك ؟

ودائماً أقول : لقد أوضح الله ما أبهم ، فإن الإبهامَ هو أَقْوى بيان ، أَلَمْ نَرَ إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه فى مسألة ، فكان الطبيب سببَ موته ؟ لقد رأينا ذلك ، لقد أخذ هذا الإنسانُ بالأسباب ، ولم يمنع ذلك أن قَدرَ الله قد نفذَ فيه ، فقد يُخطىء الطبيبُ مثلاً فى إعطاءِ حُقْنة فتنتهى الحياة.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ .. (٣٤) ﴾ (الأعراف)

ولنعرفْ جميعاً أن كُلَّ أجلٍ - وإنْ طالَ - فهو معدود ، وكُلّ معدود قليلٌ مهما بَدا كثيراً.

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً .. (١٤٥) ﴾ (آل عمران)

هذا القَوْل قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أَمْر اختياريّ ؟

لا ، ولكن قَوْل الحق سبحانه هنا له إيحاءٌ ، لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أنْ يفعلَ كذا ، فهذا معناه أن لفلان أنْ يختارَ أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفي قدرة فلان أنْ يفعلَ أو لا يفعل ، أما عن قدرة الله فلا يمكن أنْ يقولَ أحدٌ ذلك.

إننا نفهمه على فَرْض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموتَ إلا أنْ يأذنَ الله ، فإذا كانت النفس هي التي تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة ، مع ذلك لا تملك أنْ تموتَ ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة ؟

إذن : فالموت إنْ أرادتْهُ النفس فلن يأتيَ إلا أنْ يكونَ الله قد أَذِن بذلك ، وإننا نجد في واقع الحياة صَوراً شتّى من هذه الصُّور.

نجد مَنْ يضيق ذرعاً بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسعُ للبلاء

والكَدِّ فى الدنيا فينتحر ، إنه يريد أنْ يفرَّ ممَّا لا يقدر على دفع أسبابه.

أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرَّحْبة ، فأىُّ شقاء أو بلاء يُقابله يقول : إن لى رباً ، ومَا أجراه علىّ ربِّى فهو المربِّى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعلَّ هذا البلاء كفَّارة لى عن ذنب.

وهذا عكس مَنْ يفرُّ ممّا لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتلَ نفسه[1] ، وكُلٌّ منّا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك ، لكن يتم إنقاذهم ويُدركهم مَنْ ينفذ مشيئةَ الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصاً سامة ، أو إطفاء حريق مَنْ أشعل فى نفسه النار.

فالمنتحر يريد لنفسه الموت ، ولكن الله إذا لم يأذن فلا يُبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنْتحراً يريد أنْ يُطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد مُنْتحراً آخر يريد أنْ يشنقَ نفسه بحبل مُعلّق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟

لأنه لا يقبض الحياةَ إلا مَنْ وهبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسانٌ آخر . وهنا يَرِدُ المَثلُ الشعبىّ : لو صبر القاتل على المقتول لماتَ بمفرده .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٣٦٤ ، ٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد الله البجلى أن رسول الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزَّ بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات ، قال الله تعالى في حديثه القدسي : « بادرنى عبدى بنفسه ، حرمت عليه الجنة » انظر شرح هذا الحديث (١ / ١٢٣ - ١٣٤) (الحديث التاسع).

إن اللحظة التى تُفارق الروحُ مادة الجسد موقوتةٌ بأجل محدود ، فمرّة تأتى اللحظةُ بدون سبب ، فيموت الإنسانُ حَتْف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل ، إنهم ينسوْنَ أنه مات لأنه يموت بكتاب مُؤجّل .

ولذلك نجد إنساناً يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب لإجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت.

إن الكتابَ إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسانُ بأسد ، فيستوى الموت بالنَّاب ، كالموتُ بظُفْر الأسد . فإنْ نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قُرْص دواء أو جَرْعة ماء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٣٥) ﴾ (الأنبياء)

وما دامتْ كُلُّ نفس ذائقةَ الموت ، فهذه قضية كونية عامة ، فإنْ كان الموتى من الأخيار ، فالموت تعجيلٌ بهم إلى لقاء الله ، وإن كانوا أشراراً فالموت يُريح الدنيا منهم ، فالموْت خَيْرٌ فى كلاَ الحاليْن[1].

ولكن كيف يُذاق الموت ؟

وإذا كان الذَّوق هو إحساسُ الإنسان بألم الموت ، فكيف يذوق الإنسان ألمَ الموت بعد أنْ يموتَ ويفقد الإحساس ؟

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٥١٢) عن أبى قتادة بن ربعى الأنصارى أنه كان يُحدِّث أن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال : مستريحٌ ومستراحٌ منه. قالوا : يا رسول الله ، ما المستريح والمستراح منه. قال : « العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجل ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ».

قالوا : إن المقصودَ كلُّ نفسٍ ستذوق مُقدِّمات الموت ، فيأتى على الإنسان وَقْتٌ - مهما كان صحيحاً - يدرك أنه لاَ محالةَ ميِّت ، فيذوق مُقدّمات الموت التى يعرف بها أنه سيموت.

وإذا استعرضنا كُلَّ ما فى الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلاَّ الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف ، إذن : فلا بُدَّ أنْ نلتفتَ فى حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أنْ نعُدّ العُدَّة لذلك ، وكلُّنا سائرون إلى هذه النهاية.

ولكن استقبالَ الموت فى لحظات السَّكَرات[1] يختلف بين المؤمن والكافر.

فعابد الدنيا عمل من أجلها فقط ، ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتى له الموت يجد أنه لم يُقدِّم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أنْ يتركَ نعيم الدنيا ليُلاقى عذابَ الآخرة.

أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتى له الموت فهو يستبشر ، لأن الذى ينتظره خير يفوق كُلَّ الذى سيتركه ، كمثَلِ إنسان يعيش فى كوخ صغير ، ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألاَ يكون سعيداً ؟

وكذلك المؤمنُ عندما يأتيه الموت يصبح كالذى ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر ، أما صاحب الدنيا فمثَل الذى يُؤخذ من قصر إلى نار مُحرِقة ،

(١) السكرات : جمع سكرة وهو شدته وغَشْيته التى تدل الإنسان على أنه ميت . (لسان العرب - مادة : سكر).

ولذلك فهو يكره ساعة الموت [١].

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن في الدنيا لا بُدَّ أنْ نأخذَ بالأسباب لنصنع ما نريد.

والمثال : أنك إنْ أردتَ أنْ تأكلَ فلا بُدَّ من أنْ تطهوَ الطعام أو أنْ يُعده لك غيرك ، وإنْ أردت أنْ تلبس فلا بُدَّ لك ممنْ يصنع لك القماش ويَحيك الثوب.

ووراء كل نتيجة تُوجد سلسلة طويلة من الأسباب ، فهناك الذى يزرع ، والذى يحصد ، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش.

أما فى الآخرة فلا تُوجَد أسباب ، بل بمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجدْه أمامك ، أليستْ هذه حياة نعيم ؟

إذنْ : فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن [٢] ، والذى ينقبض وجهه ويتشنَّج عندما يأتيه ملَكُ الموت هو الكافر والعاصى ، لأنه سينتقل من

---

(١) عن عائشة ﵂ قالت قال رسول الله ﷺ : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فقلت : يا نبي الله أكراهية الموت فكلنا نكره الموت. فقال : ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بُشّر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٤) والترمذي في سننه (١٠٦٧). وقال : حسن صحيح.

(٢) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥).

نعيم حتى ولو كان نسبياً إلى عذاب رهيب.

ويُقال : إن فلاناً أحسنَ الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظةَ الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سَمْحة مُسْتريحة.

نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذبُ الإنسان فيها على نفسه ، ونحن نعلم أن الإنسانَ حين يشتدُّ عليه المرض فهو يتشبَّث بالأمل فى أنْ ينالَ الشفاء على يَدِ طبيب بارع ، لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموتَ يتخلَّله ، وأنه ميِّت لا محالة ، مصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) ﴾ **(الواقعة)**

حينئذ يستعرض أعماله ، فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره ، فيُقبض على هذا الوضع.

أما مَن امتلأت حياته بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقْبض على هذا الوضع.

وهذا مَا نُسمّيه الخاتمة ، فلحظةُ الاحتضار فيها يقينٌ بالموت ، ففى ساعة الاحتضار يخلو الذِّهْن من أىِّ شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بُؤْرة شعوره.

وقد أبهم الحق سبحانه مكان موت أحدنا ، فقال تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ[1] مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء)

فالحق سبحـانه هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان ، فـالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحـتياط من المـوت - مكاناً - عليه أن يـعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك.

فلطافة تغلغل الموت تخترق أيَّ مكان[2] وزمان ، ما دام الحق سـبحانه قـد قضى به ، فـلا أحـدَ يسـتطيع أنْ يحتـاطَ منه أبداً ، فـإذا كـان الله قد جـعل للإنسان رُوحاً يهبه بها الحياة ، فلماذا لا نتصوَّر أن للموت حقيقة.

فإذا مَا تسلَّل الموتُ للإنسـان فإنه يسلُب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قَوْل الحق سبحانه وتعالى فى سورة الملْك :

﴿ تَبَـارَكَ الَّذِى بِيَـدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَـدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِى خَلَقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك)

إذن : فالمـوتُ ليس عمليةً سلبـيةً كمـا يتوهَّم بعضُ الناس ، بل عـملية إيجـابية وهو مـخلوق بسـرٍّ دقيق لـلغاية يناسب دقـة الصـانع ، ووصف الحق سبحـانه أمرَ الموتِ والحيـاة فى سورة الملْك ، وقدَّم لنا الموتَ عـلى الحياة ، مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ، ثم يأتى الموت.

---

(١) البروج : جـمع برج ، وهو الركن المرتفع أو الحصن الـعالى ، والبيت يُبْنى فـوق السور أو في أعلى الحصن . والبناء المشيد : الذي أحكم بناؤه وطلى ورفع عالياً. (القاموس القويم ١/ ٦١، ٢/ ٣٦٣).

(٢) أورد القرطبي فى التـذكرة (ص ٧٥) من قول ابن عبـاس : « كان إبراهيم عليه السـلام رجـلاً غيوراً ، وكان له بيت يتعبـد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم ، فإذا هو برجل في جـوف البيت فقال : من أدخلك دارى؟ فقال : أدخلنيها ربها. قـال إبراهيم : أنا ربها ، قال : أدخلنيها من هو أملك بها منك ، قال : فمن أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ».

لا ، إن المـوتَ يكون أولاً ، ومنْ بعـده تكون الحـيـاة ، فالحـيـاة تعطى للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسبابَ المخلوقة ، فيحـرثُ الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ، ويُمتَّع به السمع والبصر ، فيظنُّ أن الحياة هى المخلوقة أولاً.

وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ (النساء)

أى : أينمـا تُوجــدون يُدرككم المـوت ، وهـذا دليـل على أن الإنسـان عندما تدبُّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أنْ يُدركها فى الزمن الذى قدَّره الله.

وكلمـة « يدرك » تُوضِّح لنا أن المـوتَ يلاحق الروح حـتى إذا أدركهـا سلبها ، وكما قال الأثر الصالح عن ملاحـقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جَرَتْ ، فلا أحدَ منكم إلا هو مُدْرَك ».

ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق :

« الموت سهم أُرسِل إليك ، وإنما عمرك هو بقدْر سفره إليك ».

وهكذا نعـرف أن قـوله الحق : (يدرككـم) يدل على أن المـوت يلاحق حياة الإنسان ، ويجرى وراء روحه حتى يُدركها.

والحق سبحانه يوضح أنه أَتَى بالموت ليؤدى أمرين :

الأمر الأول : أن مَنْ يؤمن عليه أنْ يستحـضرَ الموت لأن جزاءه لا يكون

له منفذ إلا أنْ يموتَ ويَلْقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعةَ يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ، لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والأمر الثاني : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعدّ له ويخاف أنْ يُلاقي ربه.

إذن : فكلمة « الموت » تعطي الرغَب والرهَب ، فصاحب الإيمان ساعةَ يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعبَ الدنيا لن تدوم ، أريد أنْ ألقى ربي.

ولذلك يجب أنْ يستحضرَ المؤمنون بالله تلك القضية ، وحين يستحضرون هذه القضية يهونُ عليهم كُلُّ مُصَاب في عزيز ، فالإنسان ما دام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذي راح منه إما مؤمن وإما غير مؤمن.

فإنْ كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذي افتقده ؛ لأن الله عَجَّل به ليرى خَيْره ، فإنْ حزنتَ لفقد قريب مؤمن فأنت تحزنُ على نفسك ، وإنْ كان الذي ذهب إلى ربه غَيْر مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شرِّه [1].

إذن : الموت راحة ، والذي عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رغب ، أما الكافر فهو خائف ، وهذا رَهب.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم ». أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٩٤٤) كتاب الجنائز.

ولذلك فمن الحُمْق أنْ يحزنَ الإنسان على ميِّت ، وعليه أنْ يلتفتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء)

فقدَرُ الله لا يمكن أنْ يمنعه مانع مهما كان ، ولا يمكن أنْ يحمى الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره الله له.

ولذلك يردُّ الحق سبحانه على الذين قالوا :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا .. ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران)

فكأنهم أرادوا أنْ يُعلِّلوا القتل أو الموت بأسباب ، ومَن الذى قال : إن القتلَ أو الموتَ يتعلّق بأسباب ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ... ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران)

إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ، ومجهولة الزمان ، ومجهولة المكان ، ومجهولة العمر.

إذن : فما دامت المسألة مجهولة ، فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكانَ لكم أنْ تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم.

هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسنٍّ ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة.

إذن : فَهُمْ عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة ، فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية ، ولذلك يأتى الردُّ من الحق سبحانه بأمر واضح للرسول ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ... (١٥٤) ﴾ (آل عمران)

فكأنك أيُّها الميِّت قد تكون أحرصَ على لقاء الموت من حرْص الموت عليك ، بدليل أننا قُلْنا : إن الإنسان يكون مريضاً ويُلِحّ على أن تُجْرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلاً : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فيأتى له المريض بوساطة لكى يقبلَ الطبيبُ إجراءَ العملية الجراحية ويُلح عليه ، ويُعْلى أجْر الطبيب وقد يموت المريض.

إذن : فهو يُلحّ على الموت ويحرص عليه.

ولا بُدَّ أنْ يُقابل المؤمنُ مَوْتَ عزيز عليه بالصبر والتسليم لِقدَرِ الله ، وهؤلاء وصفهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ (البقرة)

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثوابُ عليها.

وأىُّ أمر يصيب الإنسان ، إمَّا أنْ يكونَ له دَخْل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن يجــزع لأنه هو الذى جــاء بالأمر المؤلم لنفــسه ، وإمّــا أنْ تكــونَ مصيبة لا دَخْلَ له بهــا ، وحدثتْ له من غــيره مــثلاً ، وعــند ذلك عليه أن يبــحث عن سبــبها : أَعَدْلاً أم ظُلْــمًا ؟ إنْ كانت عَدْلاً فــهى قد جبــرت الذنبَ ، وإنْ كانت ظُلْمًا فــسوف يقتصُّ الله له ممَّنْ ظلمــه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كِلْتَا الحــالتين رابح.

إذن : فالمؤمن يســتقبل كُلَّ مصيبــة متوقعاً أن يأتى له منهــا خير ، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيّم نفســه تقييماً حقيــقياً : « هل لى على الله حق ؟ أنا مملوك لله وليس لى حَقٌّ عنده ، فما يُجريه علىّ فهو يُجريه فى مُلْكه هو »

ومنْ لا يعجبه ذلك فليتأبَّ على أىِّ مصيبة ، ويقول لها : لا تصيبينى.

ولن تســتطيع دَرْء أىِّ مــصــيبــة ، ومــا دُمْنا لا نــستــطيع أن نمنع وقــوع المصائب والأحــداث ، فَلْنقبلْها - كمؤمنين - لأن الحقَّ سبــحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعزنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

إننا بهــذا الــقــول ننسب ملكيــتــنا إلى الله ونقــبل مــا حــدث لــنا ، فنحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه.

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة)

فكُلُّنا نعيش برحمات الله ، حتــى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ،

ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعَم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى ، فَمَنْ يعِشْ فى هذه الحياة وهو مُطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاةُ من الله عطاءُ الرحمة والبركة.

والصلاةُ من الملائكة استغفارٌ.

والصلاة من المؤمنين دُعاءٌ.

□□□

٣٥ يقولُ ربُّ العزَّة فى الحديث القدسى :

«أنا معَ عَبْدى إذا هُوَ ذَكرنِى ، وَتحركَتْ بِى شَفَتَاهُ»[١]

الله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذِّكْر ، فكُلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرَهم وزَادَهم ، هـذه هى رغبـة الكريم فى أنْ يُعطى بشـرط أنْ نكون أَهْلاً للعطاء ، لأنه يريد أنْ يُعطيك أكثرَ وأكثرَ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (البقرة)

اذكروا الله فى كُلِّ شىء : فى نِعـمه ، فى عطائه ، فى سِتْره ، فى رحـمته، فى تَوْبتـه . فاذكـرونى بالطاعة أذكـرْكُم بالخيـر والتجليّـات ، فالذِّكْـر يُورِث

---

(١) أخرجـه أحمد في مسنده (٢/ ٥٤٠) ، وأخرجه البـخارى في صحيحـه معلقًا مـجزوماً به (كـتاب التوحيد - باب ٤٣) وعـزاه ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١٣/ ٥٠٠) لأحـمد والبخارى في خلق أفعال العباد والطبرانى من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال ابن حجر : « قال ابن بطال : معنى الحديث : أنا مع عـبدى زمان ذكره لى ، أى أنا معه بالحفظ والكلاءة لا أنه معه بذاته ، حيث حل العبد. ومعنى قوله « تحركت بي شفتاه » أي : تحركت باسمى لا أن شفتيه ولسانه تتحرك بذاته تعالى لاستحالة ذلك. انتهى »

اطمئنان القَلب.

يقول تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨) ﴾ (الرعد)

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقرارُه وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل لِيُناقشها من جديد ، فالقلب يطمئنُّ بذكر الله ، فما أنْ يَذكرَ الله حتى يجد الاطمئنان ، ويتثبت قلبه.

ولكن الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٢) ﴾ (الأنفال)

والوَجَلُ هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة واضطراب فى القلب ، وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ، أَلاَ يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨) ﴾ (الرعد)

فى الحقيقة ، لا يوجد تعارضٌ بين القولين ، لأن ذِكْر الله تعالى يأتى بأحوال مُتعدِّدة ، فإنْ كان الإنسانُ مُسْرِفًا على نفسه ، فهو يرجفُ حين يذكر الله الذى خالف منهجه ، وإنْ كان الإنسان يُراعى حَقَّ الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعة فلا بُدَّ أن يطمئن قلبُه لحظة ذِكْر الله ، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إذن: فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسَطْوة صفات الجلال، والاطمئنانُ إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال.

ولذلك تجمعهما آيةٌ واحدة هي قَوْل الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ...** (٢٣) ﴾ (الزمر)

فالجلود تقشعر خوفًا ووَجَلاً ومهَابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئنانًا وطَمَعًا في حنان المنَّان سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**[1] **وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** (٢٠٥) ﴾ (الأعراف)

والذِّكْر مرور الشيء، إنْ كان بالبال فهو ذِكْر في النفس، وإنْ كان باللسان ولا يُسمع الغير ويُسمعك أنت، فهذا ذِكْر السر، وإنْ كان جَهْرًا، فالمطلوب منك أنْ يكونَ دون الجَهْر، فلا ترفع صوتك بالذِّكْر لدرجة الإزعاج.

والحق سبحانه يقول مرة: ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ ...** (٤١) ﴾ (الأحزاب)

ومرة يقول: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ ...** (٢٠٥) ﴾ (الأعراف)

فقوله « اذكر الله » يُشعِر سماعها التكاليف؛ لأن الله هو المعبود، والمعبود هو المطاع في الأوامر والنواهي.

أما قوله « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباكَ به من أفضال، خلقك

(١) الأصيل: الوقت حين تصفرّ الشمس بعد العصر إلى المغرب، وقد يُراد به العشى. والجمع أُصُل. وجمع الجمع آصال. (القاموس القويم ١/ ٢١).

وربّاك ، وأعطاك من فَيْض نعمه مَـا لا يُعَدُّ ولا يُحصَى ، فاذكر ربك ؛ لأنك إنْ لم تعشقْـه تكليفًا فأنت قـد عشقتَه لأنه مُـمدُّك بالنِّعَم ، وسبحانه يتـفضّل علينا ويُوالينا جميعًا بالنعم.

وأضرب لك هذا المثل ـ ولله المـَثَلُ الأعلى وهو منزّه عن التشبـيه ـ وأنت لك أولاد ، وتعطى لهم مصروفًا ، وحين تعطى لهم المـصروف كل شهر تجدهم لا يحرصون عـلى أنْ يروْكَ إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطى لهم مـصروفهم يوميًا ، فأنت تلتفت لتجدهم حولك.

فإن كنت نائمًا يدخل ابنك لغرفة نومك يسـير بجانبك ويتنحنح ليقول : إنه يحتاج لشيء موجـود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عَـبْدٌ لإحسان ربِّك ؟

ومـا دُمْتَ عَبْـدَ الإحـسان فـاذكـر مَنْ يُحسِن إلـيك ، اذكر ربك دائمًـا . واذكره على حالين ، اذكره تضرُّعًـا أى بذلَّة ؛ لأنك قد تذكر واحدًا بكبرياء إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلّة عبودية لمقام الربوبية.

واذكر ربك خـيفـة أى : خائفًا مُـتضـرِّعًا ؛ لأنك كلما ذللْـتَ له يُعزُّك ، فعبوديتك لله تعطى خَيْرَ الله لك.

والذكْر حدث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، والغُدوّ والآصال زمنان يسـتوعـبان الـنهار ، فـالغدوُّ هو أول النـهار ، والآصـال هو من العصـر للمغرب .

هذه الأزمنة التى يُطلب فيها الذكر ، فقبل أن تخرج للعمل فى أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة ، وفى نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليُزيح عنك متاعب هذا اليوم.

لذلك ، إياك أنْ تشغلك الحياة عن واهب الحياة ، ولك أن تذكرَ ربّك وأنت تعيش مع كل عمل تؤدّيه وتقوم به ، وأنْ تقابل كُلَّ نتيجة للعمل بكلمة «الحمد لله »[1] وعندما ترى أى جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أنْ تقول « ما شاء الله »[2] وعندما ترى أيّ شيء يعجبك تقول «سبحان الله».

ولذلك ، حينما دعا الله خَلْقه المؤمنين به إلى صلاة الجمعة قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨﴾ (الجمعة)

ونعرف أن الصلاة إنما هى ذِكْر لربنا ، فماذا بعدها؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩﴾ (الجمعة)

أى : إياك أن يشغلك انتشارك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله ،

(١) ورد ذكر «الحمد لله» فى القرآن ٢٤ مرة ، وكلها تأتى بعد نعمة يتمها الله على خلقه مثل : خلق السماوات والأرض ـ الهداية إلى الحق ـ وهب البنين لإبراهيم ـ نزول الكتاب ـ النجاة من الظالمين ـ إذهاب الحزن .

(٢) يقول تعالى :﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ... ㊴﴾ (الكهف)

والأخْذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله ، بل عليك أنْ تذكرَه سبحانه وتعالى .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين به ـ وهو العليم ـ أن يداوموا الولاء له سبحانه كل يوم خَمْس مرات ، ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى ، وينبهنا أن نداوم على ذكره ، فكأنه يقول :

إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله[1]، أو تعتقدوا أن ذكر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذِكْر الله فى كل أحداث الحياة ، فإنْ فعلتُم ذلك وذكرتم الله كثيرًا فستكونون من المفلحين.

وذِكْر الله كثيرًا معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك، فتخشاه وتحمده ، وتستعين به ، وهكذا تكون الصِّلة دائمةً بينك وبين الله عز وجل فى كل وقت.

إن رسول الله ﷺ وهو معصوم ومُوحىً إليه وله من الصحابة ما يطمح أيُّ عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضًا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه وأبيه سيدنا على كرم الله وجهه.

قال الحسين : يا أبى ، قُلْ لى عن مجلس رسول الله ﷺ .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ ﴾ (المنافقون)

قال على كرَّم الله وجهه : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر(١) .

وفى الحديث : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذّكر »(٢) .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمَنْ كان قائمًا فقعد فقد أدَّى حركة هى القعود ، ومَنْ كان جالسًا فقام فقد أدَّى حركة هى القيام.

فكان رسول الله ﷺ يذكر الله فى كل حركة ، شاكرًا نعمة الخالق عز وجل ، وهو يُوجِّه الإنسان إلى ذكر خالقه عندكل قيام أو قعود ، ورسولنا ﷺ يُعلّمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أنْ نذكرَ الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وقد قال ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذى ردّ علىَّ روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره »(٣).

فعلينا أنْ نُحسن الأدب مع الله بأنْ نذكره فى كل حركة ، فكل شىء فى

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٣) عن الحسن بن على قال : سألت خالى هند بن أبى هالة التميمى ، وقال : «رواه الطبرانى وفيه مَنْ لم يسم» وقد أخرجه أيضًا البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه النسائى فى سننه (٣/ ١٠٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٦١٤) من حديث عبد الله بن أبى أوفى وتمامه : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقل اللغو ، ويطيل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، ولا يستنكف أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له الحاجة ». قال الحاكم : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) أخرجه النسائى فى «عمل اليوم والليلة» (حديث٨٧٢) من حديث أبى هريرة ؓ .

هذا الكون باسم الله ، يتم باسم الله وبإذن من الله ، وحين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخَّرْتَ ما فى الكون ليخدُمَك وينفعل لك .

وحين لا تبدأ العمل باسم الله ، فليس لك عليه جزاء فى الآخرة ، فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا ، وبترْتَ أو قطعْتَ عطاءه فى الآخرة ، فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة فأقْبِلْ على كل عمل باسم الله .

قبل أنْ تأكلَ قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به، عندما تدخل الامتحان قُلْ باسم الله فيُعينك على النجاح، عندما تدخل إلى بيتك قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى يسَّر لك هذا البيت ، عندما تتزوَّج قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك .

فى كل عمل تفعله ابدأه باسم الله ؛ لأنها تمنعك من أىِّ عمل يُغضب الله سبحانه وتعالى ، فأنت لا تستطيع أنْ تبدأ عملاً يُغضب الله باسم الله ، إذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر ، أو أنْ تفعل عملاً يُغضب الله ، وتذكرْتَ باسم الله ، فإنك ستمتنع عنه ، ستستحى أنْ تبدأ عملاً باسم الله يُغضب الله ، وهكذا ستكون أعمالك كلُّها فيما أباحه الله .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ ... (٢٠٥) ﴾ (الأعراف)

والحق سبحانه يقول ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... (١١٠) ﴾ (الإسراء)

فـاختـار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَم على واجب الوجـود ، وهو اسمُ ذات لا يدلُّ على صفـة معينة ، لكنه يحمل فى طيـاته كُلَّ صفات الكمـال فيه، فإن كـان للأسماء الأخـرى مجال، فـالقادر فى القدرة، والحكـيم فى الحكمة ، والقابـض فى القَبْض ، والعـزيز في العزة ، فـإن لكل اسم مجـالاً وسيـالاً، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات.

﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... (١١٠) ﴾ (الإسراء)

فأىُّ اسم تدعو به ، لأن أسماءه كلها حسنى ، لكن ليكُنْ عندك ذكاء فى الدعاء ، فـتدعو بما يناسب حاجـتك ، فإنْ أردت علْمًا فـقُلْ : يا عالم علِّمنى ، وإنْ كنتَ ضعـيفًا فقُلْ : يا قـوىُّ قوِّنى ، وإنْ أردتَ العزة فقُلْ : يا عـزيز أعزَّنى وهكذا ... فإنْ أردت فقُلْ : يا الله تكفكَ كل شىء .

والتسبيح من ذكْر الله عَزَّ وجَلَّ ، قال تعالى :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) ﴾ (الحجر)

فهكذا يمكن أن تُذهبَ عنك أىَّ ضيق ، أن تُسبِّح الله، فإذا ما جافاك البشر أو ضايقك الخَـلْق، فاعلم أنك قادر علـى الأُنس بالله عن طريق التسـبيح ، ولن تجـدَ أرحم منه سبـحـانه ، وأنت حين تُسـبِّح ربَّك فـأنت تُـنزِّهه عن كلِّ شىء وتحمده، لتعيش فى كَنَف رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ (الصافات)

ولذلك إذا ضاق صدرُكَ فى الأسباب فاذهب إلى المُسبب.

ونحن دائمًا نقرنُ التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص فى الذات، أو فى الصفات ، أو فى الأفعال ، وسبحانه كامل فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تشبه أىَّ ذات ، وصفاته أزلية مطلقة .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الروم)

فكل من المساء والصباح آية منه سبحانه ، فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبدًا .

فكأنَّ سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزع إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يأوى إلى رُكْن شديد .

ولهذا ، فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزه عن أن يكون مثلك ، والحمد لله واجب فى كل الأوقات ، فسبحانه الذى خلق المواهب كلها لتخدمك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله سبحانه أنه قد وهبه تلك الموهبة ، فَخَيْر تلك النعمة يصل إليك .

وحين تُسبِّح بحمد الله ، فسبحانه لا يخلف وعده لك بكل الخير ، فكلُّنا قد نُخلف الوعد رغمًا عنا ، لأننا أغيار ، أما الحق سبحانه فلا يخلف وعده أبدًا، ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْت الله وحمدته .

والحق سبحانه يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) ﴾ (الأحزاب)

ويقول تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44) ﴾ (الإسراء)

وتسبيح الله وتنزيهه ثابت لله تعالى قبل أنْ يخلقَ منْ يُنزِّهه ، وثابت لله من جميع مخلوقاته فى السماوات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نَشَازًا فى منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونىّ.

فالتسبيح لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا منْ أطلعه الله عليه ، فجميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شىء ، فهى تسجد وتسبّح بالإجماع ، وأحْرى بالإنسان أنْ يكون مُنْسجمًا مع الكون فلا يشذ عنه فى تسبيحه لله وذكرِه سبحانه .

٣٦ الأمة الوسط

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال[١] قال رسول الله ﷺ : « يَجِيء النبىُّ ومـعَـهُ الرجُـلاَنِ ، ويَجِيءُ النبىُّ ومعَهُ الثَّلاثةُ وأكثَرُ من ذَلكَ وأقلَ ، فيُـقالُ له : هَلْ بلَّغْتَ قوْمكَ ؟ فيقول : نَعَمْ . فيُدْعى قَومُه ، فيُقَالُ : هل بلَّغكم؟ فيقـولون : لا . فيُـقالُ : مَن شَهـد لك ؟ فيقول: محمد وأمتُه ، فتُدْعى أمةُ محمد فيُقَالُ: هل بلَّغ هذَا؟ فيقولون : نَعَمْ. فيقول : ومَا علْمكُم بذلك؟ فيـقـولُونَ : أَخْـبَرنَـا نبيُّنَا بذلكَ أنَّ الرُّسُلَ قَدْ بلَّغُوا فَصدَّقْناهُ . قال : فذلكُم قولُه تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة)

فالأمة التى تتبع منهج الإسلام ـ وهو منهج الاعـتدال ـ هى الأمة المهتدية التى تسير إلى العـمل الصالح الصحيح ، وتعمل بـه وتُطبِّقه ؛ لأنه المنهج الذى ينسخ ما قبله ويُصحِّحه.

والرسول ﷺ هو المهيـمن على كُلِّ منْ سبقه من الرسل ، وحـياته وما جاء فيها من سلوك هو سُنة إيمانية تهدى المؤمنين إلى الطريق المستقيم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٨٤) من حديث أبى سعيد الخدرى. وقد أخرجه أيضًا البخارى فى صحيحه (٤٤٨٧) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٢) من حديث الخدرى أيضًا.

والحق سبحانه يريدنا أن نتنبه إلى نعمته فى أنه جعلنا أمةً وسَطًا ، فكُلُّ ما يُشرِّعـه الله يدخل فى باب النعم على المؤمنين ، وإذا كان الاتجاه إلى الكعـبة هو اختبارٌ لليـقين الإيمانى فى نفوس المسلمين ، فإنه سبحانه جـعلنا أمة وَسَطًا نعمة منه سبحانه.

وما دُمْنا وَسَطًا فـلابُدَّ أن هناك أطرافًا حتى يتـحدَّد الوسط ، هذا طرف ، ثم الوسط ، ثم طرف آخر ، ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن مـا معنى « أمـة وسطًا» ؟ وسط في الإيمان والعـقـيدة ، فـهناك مَنْ أنكروا وجـود الإله الحق، وهنـاك مَنْ أسـرفـوا فـعـدَّدوا الآلهـة ، هذا الطرف مخطىء، وهذا الطرف مخطىء.. أما نحن المسلمين فقلنا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واحد أحد.

وهذه بدهيـة من بَدَهيـات هذا الكون؛ لأن الله ـ تبـارك وتعـالى ـ خلق الكون وخلق كل مـا فيـه ، وقال سـبحـانه: إنه خلق .. ولم يَأْت، ولن يأتى مَنْ يدَّعى الخَلق.

إذن : فالدَّعْوى خالصة لله ـ تبارك وتعالى ـ ولو كان فى هذا الكون آلهة متعددة لادَّعى كل واحد منهم الخَلقْ ؛ ولذلك فإن الله جَلَّ جلاله يقول :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون)

أى: لَتنازعَ الخلق ولاضطربَ الـكون ، فالإسـلام دين وسط بين الإلحـاد وتعدُّد الآلهة ، على أن هناك أُناساً يُسرفـون فى المادية ويُهملون القيم الروحية، وأُناساً يهملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها.

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين ؛ لأن عندهم المال والقوة، الإسلام جاء وسطًا ، فيه المادة والروح ، وإياك أن تقول: الروح أحسن من المادة، أو المادة أحسن من الروح ، فالمادة وحدها والروح وحدها مُسخَّرة وعابدة ومُسبِّحة لله تعالى، لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس، والنفس هى التى لها اختيار ، تطيع أو تعصى، تعبد أو تكفر، والعياذ بالله.

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء ، وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ، ولا المادة وحدها ، وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء ، فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وَسَطاً تجمع خَيْرَ الطرفين ، نعرف أن الدين جاء ليعصمَ البشر من أهواء البشر.

والحق سبحانه يقول: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.. (١٤٣)﴾ (البقرة)

أى : أن الحجة ستكونُ لكم في المستقبل ، وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى مَا يُقنِّنه دينكم.

والله تبارك وتعالى قال: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا(١٤٣)﴾(البقرة) ولم يقل«الوِسط» بكسر الواو ـ أى : المنتصف ـ حتى لا يُقال: إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماماً. ولكن بعضهم سيميل قليلاً إلى هذه الناحية أو تلك ، بحيث يتم اللقاء.

ولذلك عندما يقولون : نأخذ أموال الأغنياء ونُوزِّعها على الفقراء نقول لهم: وعندما يأتى فقير فى المستقبل .. من أين تعطيه بعد أنْ قضيتَ على الأغنياء؟

وقد سمعتُ من شخص له تجربة فـي السياسة والحكم قال: إن الذى كان يعمل معى وأضاع مـاله كله على الخمـر والقمـار والنساء كان أحـسنَ منِّى ؛ لأننى احتـفظت بأموالى ونمَّيْتهـا فقالوا : إنك إقطاعى وصـادروها.. بينما ذلك الذى أسرف لم يفعلوا به شيئاً.

قلت : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منك أنْ تُنمِّىَ مالك؛ لأنك إنْ لم تُنَمِّه ودفعتَ عنه زكاةً (٥ , ٢٪)، فالمال يَفْنى خلال أربعين سنة، ولكن إذا نميتَ مالك وجـاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعـوى أنك إقطاعىٌّ، فإنهم يقـضون على العـمل في المجتـمع ؛ لأنه إذا كان سـيأخـذ ناتج عمله بدون حَقٍّ، فلـماذا يعمل؟

إن الإسلام جاء ليـزيد مجال حركة الحـياة ويضمن مال المتحـرك، ليأخذ من ماله زكاة ، ويُعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع ، هذا وَسَط.

ولأن منهج الإسلام هو المنـهج الوسط ، فكانت الأمة المكلَّفة بـتبليغ هذا المنهج هى خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، فقال الحق سبحانه :﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** (١١٠)﴾ (آل عمران)

فـالحق سبـحانه وضع عـناصر الخـيرية فى أمـة مـحمـد ﷺ إلى قيـام الساعة، وائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد ﷺ على المنهج ؛ لذلك لم يأتِ نبىٌّ بعد سيدنا رسول الله ﷺ .

فالمصـافى الاجتماعـية ستظل موجـودة فى أمة محمـد ﷺ ، أما الأمم

السابقة، فبمرور الزمان يتخفَّف أتباع الرسالات السابقة من التكاليف ، حتى اندثرتْ وذهبتْ ، ومن رحمة الله تعالى بخَلْقه يُجدِّد سبحانه وتعالى الرسالة ببعْثِ رسول جديد.

والرسالة الجديدة تُعطِي ما كان موجوداً أوّلاً، فيما يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التى لا تتغير ، وتأتى الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة ، فإذا أمكن للبشر أنْ يُعدِّلوا من سياسة البشر يظل الأمر كما هو، فإن ارتكب واحد مُنكراً وضرب قومه على يده استقام أمْرُ الرسالة ، وبقيت هذه الأمة على الخير.

لماذا؟ لأن مَصَافى اليقين في النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسُها ، إن هناك واحداً تجد مصافي اليقين فى ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه فيرتكب المعصية وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية.

وتجد إنساناً آخر لا يجد فى نفسه مصافى اليقين ، ولكنها موجودة فى غيره ، فنجد مَنْ يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فإذا امتنعتْ المصافى الذاتية للإيمان ، وكذلك امتنعتْ المصافى الإيمانية فى المجتمع ، فلا أملَ هنالك، لذلك يجب أنْ يأتىَ رسول جديد ، ويُنبِّه الناس بمعجزة ما.

لذلك قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)** ﴾ (آل عمران)

فأمة محمد أفضل أمة أُخرِجَتْ للناس لا حَسَباً ولا نَسَباً ، ولكن اتباعاً لمنهج ، ومَن يتَّبع المنهج بـ«افعل» و«لا تفعل» فهو الذى يُطبِّق عملية الإيمان

بالله ، ومن أهل الكتاب مَنْ يؤمن بالله فيصير مسلماً ، ولكن الكثير منهم يخرج عن حدود الإيمان.

فموكب الرسالات سائر من لَدُنْ آدم ، وكلما طرأتْ الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً يُنَبِّههم ، ويُوقظ القيم والمناعة الدينية التى توجد في الذات، بحيث إذا مالتْ الذات إلى شىء انحرافى تتنبه الذاتُ نفسها وتقول : لماذا فعلتُ هكذا؟ وهذه هى النفس اللوّامة ، فإذا ما سكتتْ النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمّارة بالسوء طوال الوقت ، فالمجتمع الذى حوله يُعدِّله.

أما إذا فسد المجتمع ولم يجد العاصى مَنْ يوصيه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فإن الله يتدخّل بإرسال رسول جديد، ومعجزة جديدة ، ومنهج جديد، لكن الله ائتمن أمة محمد ﷺ على هذا الأمر، فلم يجىء رسول بعده ؛ لأننا خَيْر أمة أُخرجَتْ للناس.

والخيرية تتجلى فى أننا نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر، فالتواصى باقٍ إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهذه خاصية لن تنتهى أبداً ، فإنْ رأيت منكراً فلا بُدَّ من خلية خَيْر تنكره. وتقول : لا.

وإذا كان الحق قد جعل محمداً ﷺ خاتم الرسُل، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتى رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ .

فـخيـرية هذه الأمة ناشـئة من حَـمْل رسـالة الدعوة ، وقـد كرَّم الله أمـة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعـوته إلى يوم القيامة ، لقد بلَّغ الرسول مَنْ عاصروه من أمـته ، وعلى أمته أنْ تبلّغ مَنْ بعده ؛ لذلك يشـهد علينا رسول الله، ونشهد نحن على الناس.

وفي الحديث الشريف : «نضَّـر الله امرءاً سمع مقـالتى فوعاها، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع» (١).

وهكذا تظل فى الأمـة هذه الخـيـرية ، وتحـمل دعـوة رسولهـا، حـيث لا رسولَ من بعده إلى يوم القيامة، ولأهمية هذا الدور الذى يقوم به المسلمون فى كل زمـان ومكان يُنبِّـهنا رسول الـله ﷺ إلى مسـألة هامـة فى مـجال حَـمْل الدعـوة ونَشْرها ، فـيقـول: «كل منكم يقف علـى ثُغْرة من ثغـرات هذا الدين، فإياكم أنْ يُؤتَى الدين من ثُغْرة أحدكم».

فليـعلم كل مسـلم أنه محـسوب للـدين أو عليه ، فـالعـيون تتطلع إليـه وترصُد تصرُّفـاته فى مجتمعـه ، فهو صورة للدين وسفـير له ، وعليه أنْ يُراعى هذه المسئـولية ، ويقوم بها على أكـمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وَجْـهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

(النساء)

---

(١) أخـرجه أحـمد فى مـسنده (١/ ٤٣٧)، والتـرمذى فى سننـه (٢٦٥٧،٢٦٥٨)، وابن ماجـه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/ ٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود.

والشهيد هو: الذى يشهد ليُقرِّر حقيقة. ونحن نعلم أن الحق سبحانه أخبرنا: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ (فاطر)

وهذا النذير شهيدٌ على تلك الأمة أنه بلَّغها المنهج، ورسول الله ﷺ شهيد على أمته أنه بلَّغَ ، فيقول: أنا أبلغتهم الموقف، ولا عُذْرَ لهم لأننى أعلمتُهم به.

والله قد جاء بكتابه المعجزة ، وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلَّغوا أممهم، فكأن الرسول حين سُجِّل فى كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلَّغوا أممهم فهو سيشهد أيضاً.

والحق سبحانه وتعالى يُوضِّح أن حال هؤلاء سيكون فظيعاً حينما يأتى يوم العَرْض يوم القيامة ، ويقولون: إننا بلغناكم، أو : أن الحق عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم ، وبالنسبة لرسول الله ﷺ وأمته أو للأمم كلها، فنحن أيضاً سنكون شهداء: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ (البقرة)

فنحن بنصٍّ هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة.

وقد روى عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال له: «اقرأ علىَّ القرآن. فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : نعم ،إنِّى أحبُّ أنْ أسمعه من غيرى، فقرأت سورة النساء ، حتى أتيتُ إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ (النساء). فقال: «حَسْبُكَ، فإذا عَيْناه تذرفان الدموع» [1].

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٠)، والبخارى فى صحيحه (٥٠٥٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٠) من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.

فإذا كـان الشهيـد ﷺ بكى من وَقْع الآية ، فكيف يكون حال المشـهود عليه؟ الشـهيـد الذى سيشـهد بكى من الآية ، نعم ، لأنك تعـلم أن رسول الله ﷺ مُلِىء قلبه رحمةً بأمته.

والحق سبـحانه يُنبِّهنا إلى ضـرورة أنْ نستعـدَّ لليوم الذى يجمع الله فـيه الرسل يوم الحـسـاب ، أى: أننا علينا أنْ نـراعىَ الالتـزام فى تكالـيف المكلِّف الأعلى فى كل عمـل من أعمال الحياة ؛ لأنه سبـحانه سوف يـسأل الرسل فى ذلك اليوم.

يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** (١٠٩)﴾ (المائدة)

أى: أنهم سيُـسْـألون : كـيف اسـتـجاب النـاس للمنهج الذى دعـوتُم إليه؟وفى هذا تقـريع لمن خالف الرسل، ولم يؤمنـوا برسالات الرسُل، ذلك أنَّ مهمة الرسل هى البلاغ عن الله.

يقول تعالى: ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** (٣٥)﴾ (النحل)

والبـلاغ هو إنهاء الأمـر إلى صاحبـه ، وقد قـال نوح لقومـه: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦٢)﴾ (الأعراف)

أى: أُبلِّغكم كُلَّ ما جعله اللـه منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقـيمة الثابتة، مثلما قال سبحانه:

﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** (١٣)﴾ (الشورى)

وهو الأمور المستقرة الثابتة العَقَديّة والأحكام التى لا تتغير. وفى آية أخرى قال سبحانه على لسان هود عليه السلام:

﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ** [1] **وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)** ﴾ (الأعراف)

وقال سبحانه فى حَقِّ صالح عليه السلام وقومه ثمود: ﴿**لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)**﴾ (الأعراف)

وكأن سيدنا صالحاً قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم، وتحنَّن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله، لكنهم لم يستمعوا للنُّصْح ، ولم يُحبُّوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما أَلِفَه من الشرِّ ، وعندما ينصحه أَحَدٌ يغضب عليه.

ويقول الله عن بلاغ عيسى عليه السلام لرسالة الله:

﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)**﴾ (المائدة)

وهذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق سبحانه وبين عيسى ابن مريم

---

(١) وقد ردَّ هود على قومه بهذا لأن الملأ الذين كفروا من قومه قالوا: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ**﴾ (٦٦: الأعراف) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٤): «أى: فى ضلالة، حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده».

عليه السلام ، يوم يجمع الحقُّ سبحانه وتعالى الرسل ، وقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام ـ من خلال قوله لربه تبارك وتعالى ـ المنهج الذى جاء به على الناس جميعاً ، وبلَّغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه : عَبْدٌ لله، وأنه رسوله.

وما دام الحق سبحانه علاّم الغيوب فهو أعلم بكُلِّ شيء حتى بما فى النفس، كأنه يُثبتُ أيضاً أن نفسه لم تُحدِّثه بأىِّ خاطر من تلك الخواطر، ويعلن أنه لم يُبلِّغ إلا ما أمر به الله.

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه: إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أنْ يشهدَ فقط، والله القادر وحده على أنْ يشهد ويُغيِّر ويمنع.

والحق سبحانه يُقرِّر فى كتابه القرآن أنه ما من أمة إلا وقد أُرْسِل فيها رسول يُبلِّغ رسالات الله إلى قومه ، فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** (٣٦)﴾ (النحل)

وقال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** (٢٤)﴾ (فاطر)

ولكن ، ماذا كان موقف أقوام الرسل منهم ، يقول تعالى:

﴿**فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** ...(٣٦)﴾ (النحل)

٣٧ أَلْوَاحُ مُوسَى

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ :

«لَيْسَ الخَبرُ كالمعَاينَةِ، قَالَ اللهُ لموسَى : إنَّ قوْمكَ صنَعُوا كَذَا وكَذَا ، فَلَمْ يُبَالِ، فلمَّا عَاينَ أَلْقَى الألْواحَ»(١)

يقول الحق سبحانه:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾

(الأعراف)

هذا الوَعْد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينما كلَّم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور (٢) كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من ربٍّ العالمين، وأنه أرسله ليخلِّص بنى إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه ، وأنه سيمدُّه بآيات ومعجزات ، حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧١)، والطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٤٥١) ، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .قال الحاكم :«حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولفظ أحمد:«ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(٢) الطور : جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر . ويُسمَّى أيضاً «**طُورِ سَيْنَاءَ**» (المؤمنون :٢٠).«**وَطُورِ سِينِينَ**» (سورة التين :٢) .(القاموس القويم ١/ ٤٠٨)

وذلك بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه إلى فرعون ، وما حدث مع السحرة ، ثم نجاة موسى وقومه ، بأنْ شقَّ الله جَلَّ جلاله لهم البحر [١] ، هذا فى وقت لم يكُنْ المنهج قد نزل بعد ، ولذلك فبمجرد أن نجَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى وقومه وأغرق فرعون ، كان لا بُدَّ أن يتم إبلاغ موسى بالمنهج.

وكان الوَعْد يشمل أربعين ليلة ، هذه الليالي الأربعون حُدِّدَتْ كثلاثين أولاً ، ثم أتمها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعشر أخرى.

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أنْ تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه سبحانه سيُنزِل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خَلْق الله لتسير حركة حياتهم عليه.

لكن ما إنْ ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل، فى مدة الثلاثين يومًا ، ولم يشأ الله أنْ يُرسِل موسى بعد الثلاثين يوماً [٢]، بل أتمها بعَشْر أُخَر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يُعنِّفهُ ، ويشتد عليه ، ويأخذ بلحيته يجرُّه إليه ، إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل.

وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون:

﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ (طه)

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) (الشعراء).

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٤٣) : «الأكثرون على أن الثلاثين هى :ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد ومسروق وابن جريج».

وقد كان موسى ـ عليه السلام ـ قد أوصى هارون بأن يخلفه فى قومه ، أى : أن يكون خليفة له فيهم إلى أن يرجع ، والحق سبحانه يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ (الأعراف)

وهو قَوْل فيه تحنُّن، أى: أن موسى يقول لأخيه هارون: لى بك صلَةٌ قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة ، فأنا أَخٌ لك وأنت أخٌ لى ، ومن حَقِّى عليك أن تسمع كلامى وتخلفنى، فالأُخوَّةُ مقرونة بأنك شريكٌ معى فى الرسالة.

إذن : نجد أن موسى قد قدَّم حيثية الأُخوَّة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكَّد عليه السلام بكلمة «قومى» أنهم أعزّاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نَهياً فاعلموا أن موسى هو أوَّل مَنْ يُطبِّقه على نفسه.

وقيل : كان موسى ـ عليه السلام ـ قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولا بُدَّ أن يكون الإعداد بطُهْر وبتطهير ، وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليُذهب رائحة فمه.

فأوضح الحق سبحانه له: أما علمتَ يا موسى أن خُلُوف [1] فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أنْ تُقبِلَ علىّ بريح المسك فزِدْ عشرة أيام حتى تأتى كذلك [2].

---

(١) الخلوف : تغيُّر ريح الفم لتأخر الطعام . (لسان العرب ـ مادة : خلف) .

(٢) أخرج الديلمى فى «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٤٢٧) (حديث رقم ٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه : «لما أتى موسى ربه ، وأراد أن يكلمه في الثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، فكره أن يكلم ربه عزوجل ، وريح فيه ريح الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتى موسى: لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذى كان ـ قال : إنى يارب كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب =

قال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ؛ لأن الثلاثين يوماً هي الأيام التي عبد فيها القوم العجل بعد موسى ، فكان ولابُدَّ أن تكون هناك فترة من الفترات ، حتى يميز الله الخبيث من الطيب.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾

(الأعراف)

والميقات هو الوقت الذي يُعَدُّ لعمل من الأعمال ، وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة ، وقال له **﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾** (الأعراف)

والاصطفاء هو استخلاص الصَّفْوة ، والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل، بالإضافة إلى شرف تكليم الله له.

وحينما خصَّ الله موسى بميزة أن تكلّم إليه حصل من موسى استشراق اصطفائي، وكأنه قال لنفسه: ما دام قد كلّمني فقد أقدر أنْ أراه ؛ لأن استطابة الأُنْس تمدُّ للنفس سُبُلَ الأمل في الامتداد في الأشياء ، فقال : **﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ(١٤٣)﴾** (الأعراف)

فقال الحق سبحانه له:

= الريح. قال : أما علمت يا موسى أن فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشرة أيام ففعل موسى الذى أمره ربه، فلما كلم الله موسى قال له ما قال .

﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

وسبحانه هنا يُعلِّل لموسى بعملية واقعية ، فأوضح : لن ترانى، ولكن حتى أُطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكِّنك من رؤيتي انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، فإن استقرَّ مكانه يمكنك أنْ ترانى.

إن الجبل بحُكْم الواقع ، وبحُكْم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان ، وأصْلَب منه وأشدّ ، ولما تجلّى ربُّه للجبل اندكَّ.

إذن: فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خَلْقه ، ولكن المهم أيقْوى المستقبل للتجلِّى أو لا يقوى؟

وبعد ذلك أراد الله أنْ يلفتنا لَفْتةً تصاعدية ، ويُبيِّن لنا أن موسى قد صَعق لرؤية المتَجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّى؟

ويقول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام: **﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً [1] وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾** (الأعراف)

(١) قد ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٥٩) آثاراً ، ذكر فيها بعض هذه المواعظ المكتوبة فى التوراة. منها.

ـ اتق الله يابن آدم ، وإذا شبعت فاذكر الجائع. أخرجه أحمد فى الزهد عن خالد الربعى.

ـ ابن آدم ، ارحم ترحم ، إنه من لا يَرحم لا يُرحم ، كيف ترجو أن أرحمك وأنت لا ترحم عبادى. أخرجه أحمد عن قتادة.

ـ يابن آدم ، لا تعجز أن تقوم بين يدى فى صلاتك باكياً ، فإنى أنا الله الذى اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نورى. أخرجه أحمد وأبو نعيم فى الحلية عن مالك بن دينار. =

ونحن نعـرف الألواح ، وكُنَّا نكتب عليهـا قديماً ، وللكتـابة على الألواح سبب ، فـقديماً كـانوا يكتبون عـلى أىِّ شىء مبسـوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مـكتوبة على جلود الحيوانات، فمثـلاً نجد قدماء المصريين قد كـتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذى أتاح لنا معرفة تاريخهم.

وكان العـرب يكتبون على اللُّحف المأخـوذة من النخل ، وكذلك كتـبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسـوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليهـا ، وكانت هذه الوسـيلة مشـهورة جداً لـديهم ، وصار كل مكتـوب عليه يُسمُّونه لَوحاً.

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة، والموعظة تعنى ألاّ تُنشِىء حُكْماً لـلسامع ، بل تَعظُه بتنفيذ مـا عُلِم له من قبل؛ ولذلك يُقَـال : واعـظ ، وهو الذى لا يُنْشىء مـسـائل جـديدة ، بل يعـرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويَعظُه بما يعلم.

والحق سبـحانه يأمر مـوسى أن يأمر قـومه أنْ يأخذوا بأحـسنها ، فيـقول تعالى : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا(١٤٥) ﴾ (الأعراف)

فالإنسان إذا روَّض نفسه وذلَّلها وعوّدها على الأحسن يكون قد فَهِم عن الله ، فهناك حَسَن وهناك أَحْسَن ، فلتأخذوا بالأحسن منهما.

= ـ ابن آدم ، تفـرغ لعبادتـى أملأ قلبك غنى وأسُـدّ فقـرك ، وإن لا تفعل أمـلأ قلبك شغـلاً ولا أسدّ فقرك. أخرجه أحمد وأبو نعيم عن خيثمة.

ولكن بنى إسرائيل لم يعملوا وَفقْ منهج الإيمان ، بل إنهم عبدوا عِجْلاً صنعه لهم السامرى [1] من الذهب الذى سرقوه من أهل مصر ، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾ (الأعراف)

لقد احتال بنو إسرائيل على أهل مصر، وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيردونها من بعد ذلك [2]، ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلى معهم ، وغرق قوم فرعون وبقيتْ الحلىّ مع قوم موسى، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحلىّ عِجْلاً.

وقد صنعه السامرىّ من الذهب ، وكأنه يريد أنْ يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه من الحلىّ المسروقة، وصنعه بطريقة تجعل هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دُبره هَبَّة الهواء صنعتْ وأحدثتْ فى جوفه صوتاً يشبه صَوْت وخُوار البقر الذى يخرج من فمه.

---

(١) السامرى : رجل من منافقى بنى إسرائيل، أغواهم بعبادة عجل صنعه كعجل أبيس من الحلىّ أثناء غياب موسى ـ عليه السلام ـ لمناجاة ربه. (القاموس القويم ١/ ٣٢٧) . والسامرة : قبيلة من قبائل بنى إسرائيل قوم من اليهود يخالفونهم فى بعض دينهم، إليهم نسب السامرى الذى عبد العجل. (لسان العرب ـ مادة : سمر).

(٢) قال قتادة فى قوله **﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾**(١٤٨: الأعراف) استعاروا حلياً من آل فرعون، فجمعه السامرى فصاغ منه عجلاً فجعله الله جسداً لحماً ودماً له خوار . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٦٣).

وقد اختار السامرى العجل ؛ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوْا قدماء المصريين وهم يعبـدون العجل لمزية فيه ، فقـد كانوا يروْنَ فيه مظهر قـوة ، كما عبـد الآخرون الشمس حين رأوا فـيها مظـهر قوة ، وكـذلك مَنْ عبدوا القـمر والنجوم ، وقدماء المصريين عبدوا العجل ؛ لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل حين يريدون حَرْثَ الأرض.

وكان العجل أيِّداً ، أى : قوياً شديداً فى حَرْث الأرض ، وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عِجْلاً يعبدونه بعد أن أتمَّ عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله؟

وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببـنى إسرائيل البحر ، ومـروا على قوم [1] يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام:

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨) ﴾ (الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لا بُدَّ أن يتلقَّى من المعبـود أوامر، وأن يكون عند المعبـود منهج يريد من العبـد أن يُنفِّذه ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يُبلِّغون رسالات الله وكلام الله للبشر.

أما الذين يعـبدون الشمس ـ مثـلاً ـ فنسألهم: لماذا تعبدونهـا؟ وما المنهج الذى أرسلتْه الشمس لكم؟ وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونَهْياً فى «افعل» و «لا تفعل»

---

(١) قال قـتادة :هم قوم لخم. وقـال أبو عمران الجـونى: هم لخم وجذام. (الدر المنثـور ٣/ ٥٣٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٤٢) : «قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين. وقيل : كانوا من لخم».

واتخاذ العجل فى ذاته ليس معصية إذا اتخذته لـلحرْث أو للذبح لتأكل لحمه ، ولكن المعصية هى اتخاذ العجل معبوداً ، ولم تعبـدوه سراً بل عبدتموه جَهْراً ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجاً إلى شهود ولا إلى شهادة ؛ لأنه حَدَث عَلَناً وأمام الناس كلهم.

وقد جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتملأ قلوبكم بالإيمان ، وتجعلكم لا تعبدون إلا الله ، فلقد شَقَّ لكم البحر ومررتُم فيه وأنتم تنظرون وترون.

أى : أن المعجزة لم تكُنْ غَيْباً عنكم ، بل حدثتْ أمامكم ورأيتموها ، ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله ، بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلهاً من دون الله وعبدتموه ، فكيف تدَّعُون أنكم آمنتم بما أُنزِل إليكم ، لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهاً.

وبعد أن ذكّرهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بكُفْرهم بعبادتهم للعجل ، وكان هذا نوعاً من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر ، أراد أنْ يُؤَنِّبهم مرة أخرى ، وأنْ يُذكِّرهم أنهم آمنوا خَوْفاً من وقوع جبل الطور عليهم ، ولم يكُنْ الجبل سيقع عليهم ، لأن الله لا يقهر أحداً على الإيمان ، ولكنهم بمجرد أنْ رَأَوْا جبل الطور فوقهم آمنوا.

ولا بُدَّ أنْ نؤمن أن رفع جبل الطور فوق اليهود لم يكُنْ لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يُقال : إنهم أُجبروا على ذلك ، ولكن اليهود قوم ماديون

لا يؤمنون إلا بالمادة ، والله تبارك وتعالى أراد أن يُريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله.

ولقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا[1] فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)﴾ (البقرة)

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يُصوِّر لنا ماديتهم ، فالحب أمر معنوى، وليس أمراً مادياً ؛ لأنه غير محسوس ، وسبحانه يريد أنْ يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أنهم أُشْربوا العجل ذاته ، أى : دخل العجلُ إلى قلوبهم.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يلفتنا إلى الشيوع فى كل شيء بكلمة (أُشْرِبُوا) ؛ لأنها وصف لشُرْب الماء ، والماء يتغلغل في كل الجسم ، والصورة تُعرب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل ، حتى كأن العجل دخل فى قلوبهم ، وتغلغل ، كما يدخل الماء فى الجسم ، مع أن القلب لا تدخله الماديات.

ويقول سبحانه عنهم:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ[2] فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾ (الأعراف)

---

(١) أُشرب فى قلبه الشيء أو أُشرب حُبّه : أى خالط حبّه قلبه كأنه شربه. قال تعالى ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ..﴾ (٩٣: البقرة) أى: حب العجل (القاموس القويم ١/ ٣٤٤).

(٢) قال الفارسى : ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم. وقال الفراء : يُقال سقط فى يده وأُسقط من الندامة. وسُقط أكثر وأجود.(لسان العرب ـ مادة : سقط) وقال الإمام أبو يحى زكريا الأنصارى =

وهذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور. لكن الناس الذين امتلكوا قَدْراً من البصيرة أو بقية إيمان قالوا: هذه الحكاية سخيفة، وما كان لنا أنْ نفعلها وندموا على ما كان.

(سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ) أي: جاءت أنيابهم على أيديهم، كأن الندم بلغ أشده، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم، ورأوا أن ذلك باطل وخُسْرَان، أي: قالوا: لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكوننَّ من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عزوجل.

ثم رجع موسى بعد أنْ تلقَّى وَحْىَ الله، وأخذ الألواح، وبها من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ..** (١٥٠) ﴾ (الأعراف)

وكوْنُ موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسفاً، يدلُّنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل، والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسمَّوْها «المواجيد النفسية» أي: الشيء الذي يجده الإنسان فى نفسه، وقد يُعبَّر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية، ولذلك تجد فارقاً بين مَنْ يحزن ويكبت فى نفسه، وبين مَنْ يغضب.

= فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» (ص ١٥١): «إن قلت: كيف عبَّر عن الندم بالسقوط في اليد؟ قلت: لأن عادة من اشتد ندمه على فائت، أن يعضَّ يده غماً، كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ (٢٧: الفرقان) فتصير يده مسقوطاً فيها، لأن فاه قد وقع فيها».

فمَنْ يغضب تنتفخ أوداجه ، ويحمر وجهه ، ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر ، وتندفع يداه ، وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ، وقدَّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى في مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لا بُدَّ أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح.

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج ، بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، فالحزن قد اشتد عليه وتمكّن منه ، فقال لهم:

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠)﴾ (الأعراف)

فقوله سبحانه : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ... (١٥٠)﴾ (الأعراف)

أى : استبطأتمونى. وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتمها بعشر. فتساءل موسى : هل ظننتم أننى لن آتى؟ أو أننى أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى ، أو من أجل إله قادر؟

فهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتمونى ، أو خفتم أن أكون قد متّ ، فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا؟ ثم : ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ..(١٥٠)﴾ (الأعراف).

وهنا فى هذا الحديث القدسى: «فلما عاين ألقى الألواح».

ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقال عنها الحق سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ (١٤٥)﴾ (الأعراف)

وقد فصَّل الحق سبحانه ما فى الألواح فى قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ[1] بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)﴾ (المائدة)

فالتوراة فيها نور وهدى ، ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التى طلب الله منهم أن يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة.

وقد كتب الحق على اليهود في التوراة التى وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب وأوجب عليهم أن النفس بالنفس.

هذه الألواح بما فيها من وصايا وأحكام ألقى بها موسى ، ثم ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ... (١٥٠)﴾ (الأعراف)

وهذا نزوع غضبيٌّ جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأُخوَّة هنا لا نفعَ لها، فماذا كان ردّ الأخ هارون؟

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ (الأعراف)

ونلحظ أن هارون قال لأخيه ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ (الأعراف) ولم يقل «ابن أب» ،

(١) الحَبْر: العالم ، وجمعه أحبار .(القاموس القويم ١/ ١٤٠). وهو العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه .(اللسان ـ مادة : حبر).

لأن أبا موسى وهارون طُوى اسمه فى تاريخ النبوات ، ولم يظهر عنه أىّ خبر ، والعلم جاءنا عن أمه ؛ لأنها هى التى قابلت المشقات في أمر حياته ؛ لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتهما.

وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما ـ موسى وهارون ـ وهو أخوة الأم، وله وجود مستحضر فى تاريخهم ، أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ؛ لذلك نجد أخاه هارون يُكلِّمه بالأسلوب الذى يُحنِّنه:

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي (١٥٠)﴾ (الأعراف)

وما دام قد قال: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي (١٥٠)﴾ (الأعراف) فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدَّى ما عليه ، لدرجة أنهم فكروا فى قتله.

ويتابع الحق سبحانه بلسان هارون: ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ (الأعراف)

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخَصْم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيُفرحهم.

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أنْ يُسمعنا ويُسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يُقصِّر .

قال : إن القـوم استضـعفـونى لأنى وحدى ، وكادوا يقـتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة فى الحياة ، حتى أنهم كادوا يقتلونه.

إذن: فهو لم يوافقهم على شىء ، ولكنه قـاوم على قدر الطاقة البشرية؛ لذلك يُذيّل الحق الآية بقوله سبحانه:

﴿وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ (الأعراف)

وكأنه يقول لموسى : إنك إنْ آخذتنى هذه المؤاخـذة فى حالة غضبك ربما ظُنَّ بى أننى كنتُ معهم ، أو سلكتُ مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته.

وفى آية أخرى قال تعالى إن هارون قال لموسى : **﴿يَا ابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾**(طه)

موسى عاد من ميقات الله وهو فى قمة الغضب ، وأمسك بأخيه هارون يجُرُّه من رأسه ولحيته ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين:

الأمـر الأول : كيف يُلقى الألواح وفيها المنهج؟

والأمر الثانى : كيف يأخذ أخاه هذه الأَخْذة قبل أنْ يتبيَّن وجه الحق منه؟

ولذلك قـال موسى : **﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾** (الأعراف)

قـال : يا ربِّ اغـفـر لى ، إنْ كـان قـد بدرَ مِنِّى شىء يخـالـف منطق الصواب والحق ، واغفر لأخى هارون ما صنع ، فـقد كان يجب عليه أنْ يأخذَ

فى قتال مَنْ عبدوا العجل حتى يمنعهم ، أو ينالوا منه ولو ما دون القتل جُرْحاً أو خَدْشاً ، ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة.

ثم يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ (الأعراف)

وهل للغضب سكوت؟ وهل للغضب مشاعر حتى يسكت؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجانُ النفس لتعمل عملاً نزوعياً أمام مَنْ أذنب، فكأن الغضب يُلح عليه ، ويقول للغاضب: اضرب ، اشتم ، اقتل. فشبّه اللهُ الغضب بصورة إنسان يُلحُّ على موسى فى أنْ يفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه.

وأوَّلُ عمل قام به موسى ساعةَ أنْ كان غضبان أَسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه ، وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقىٌّ ، فالغضب جعله يُلقِى الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أنْ يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب ، وكانت الألواح مُلْقاةً فأخذها ثانية.

ووصف الحق سبحانه الألواح ، فقال :

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ (الأعراف)

وقد وصف الحق سبحانه توراة موسى ، فقال:

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** (٤٤) ﴾(المائدة)

فالهدى هو الطريق أو الدَّرْب الموصّل للغاية ، وهو ما يدل على الغايات؛ لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء في أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التى يجب أنْ تسودَ ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ، فشرّع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهَدْياً جديداً ليذكرنا.

وقد تعالى فى آية أخرى : ﴿**ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** (١٥٤) ﴾ (الأنعام)

والتمام هو استيعاب صفات الخير؛ ولذلك يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** (٣) ﴾ (المائدة)

«أكملتُ» فلا نقصان. و«أتممتُ» فلا استدراكَ. فالإكمال هو أنْ يأتىَ الشىء على كماله ، وكمالُ الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه. وقد أتمَّ الله استمرار النعمة بتمام المنهج.

ولكن ، لماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام؟

جاء ذلك ؛ لأن الذين تصدَّوْا للجاج والجدل معه ﷺ هم اليهود. وحينما جاء موسى ـ عليه السلام ـ بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما فى التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا.

أما الذين استمرت حياتهم إلى أنْ جاء رسول الله ، فكان المطلوب منهم أن يؤمنوا به ، لأن الحق أوضح لهم فى التوراة أن هناك رسولاً قادماً ، ولا بُدَّ أنْ تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ؛ لأنكم وإنْ كنتم مؤمنين بموسى وعاملين بمنهجه فلا بُدَّ من الإيمان بمحمد ﷺ .

والسابقون لكم أَحْسَنُوا فى زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة ، فإنْ أردتُمْ أن يُتِمّ الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بُدَّ أنْ تعلنوا الإيمان بمحمد ﷺ ، منكم مَنْ أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتمَّ لهم الحُسْن.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ (١٥٤)﴾ (الأنعام)

أى: أنه مناسب لزمنه أي: القيم التى تناسب الوقت الذى يعيشونه ، فإذا ما جئْنا بتفصيل جديد فى القرآن فهو مناسب لوقته.

ولقائل أنْ يقولَ : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفَرْق بين تفصيل وتفصيل؟ نقول: إن كُلَّ تفصيل مناسبٌ لزمنه ، وآيات القرآن مُفصّلة جاهزة ، ومُعدَّة لكل زمن وللناس جميعاً ، إلى أنْ تقومَ الساعة.

وفى موضع آخر قال تعالى:

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾ (البقرة)

فالكتاب هو التوراة ... والفرقان هو الأشياء التى يُفرِّق الله فيها بين الحق والباطل ، فكأن «الفرقان» يُطْلَق مرة على التوراة ؛ لأنها تُفرِّق بين الحق والباطل، ويُطْلَق أيضاً على كل ما يُفَرِّق بين الحق والباطل .

ولذلك سُمِّيَ يوم بدر «يوم الفرقان» ؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل ، فكأن منهجَ الله وكتابه يُبيِّن لنا أيْنَ الحق ، وأين الباطل ، ويُفرِّق بينهما .

والحق سبحانه يقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

ولا يقول موسى لقومه **﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿٢٠﴾﴾** (المائدة) إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمَّل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزَّجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون ويفطنون إلى ذِكْر نعمة الله عليهم.

ومعنى ذِكْر النعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهى.

فذِكْر النعمة يؤدى إلى شكر المنعم ، ويؤدى أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى مَنْ أنعم ، ويجعلنا نستحى أنْ نأخذَ نعمته لتكونَ مُعيناً لنا على معصيته.

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

وهى نعَم كثيرة تمتَّعوا بها ، إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتُبيِّن القدرة مجالات تصرُّفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وكأن الماء صار صخراً ، وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه.

إنها عجائب القدرة ، ألم يُظلِّلكم بالغمام؟ ألم يُنزِل عليكم فى التِّيْه المنّ والسَّلْوى؟

كُلُّ هذه النعم ، ألاَ تستحق الذكر لله والشكر لله والاستحياء من أنْ تعصوه ، أو أنْ تُرهِقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم؟

إن كُلَّ هذه النعم تستحق الشكر ، والشكر ذِكْر ، وأكثر من هذا فإن الحق سبحانه أرسل إليهم كثيراً من الرسل ، فكلما أدركتْهُم غفلة فإن الحق يُرسِل لهم نبياً ، فكلما عَصَوْا الله واستعصتْ داءاتهم أرسلَ لهم رسولاً.

وكان عليهم أنْ يعلموا أنَّ داءاتهم قد كثُرَتْ ، وصار مرضهم مُسْتعصياً ؛ لأنه لو لم يكُنْ المرض مُستعصياً لَمَا كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء ، ومع ذلك رحمهم الله ، وكلما زَادَ داؤهم أرسل لهم نبياً.

ولم يَكْتَفِ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بأنْ جعل فيهم أنبياء ، بل قال:

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا (٢٠)﴾ (المائدة)

ولكن ، هل قابل بنو إسرائيل نعم الله الكثيرة بالشكر والامتثال للمنهج؟ هل التزموا بما جاء في هذه الألواح؟

قال تعالى: **﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)﴾** (النساء)

فالكلام المنزَّل من الله وُضِع أولاً وَضْعه الحقيقى ، ثم أزالوه وبدَّلوه ،

ووضعوا مكانه كلاماً غيره ، فقوله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ (٤١)﴾ (المائدة) ، فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدَّس من موضعه الحق ، ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حَسْب أهوائهم بما اقتضتْه شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع ، وهو جدير بها.

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (١٣ : المائدة)

فَهُمْ على قدر كبير من السوء ، بدرجة أنستهم الشيء الذى يأتى لهم بالحظِّ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد ﷺ وكتمانها ، ولو كانوا قد آمنوا بها لكان حظُّهم كبيراً ، ذلك أنهم نسُوا أمراً كان يعطيهم جزاءً حَسَناً.

والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكُنْ على بالهم ، فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلُّوا على ذكْر منه ، كما أنهم كتموا ما لم ينسُوه ، والذى لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووْا ألسنتهم به.

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل ، وقالوا إنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله.

يقول الحق سبحانه :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ (البقرة)

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد هنا أنْ يُبيِّن لنا مدى تعمُّد هؤلاء للإثم ، فهم لا يكتفونَ مثلاً بأن يقولوا لغيرهم : اكتبوا ، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا أن الأمر قد تَمَّ كما يريدون تماماً ، فليست المسألة نزوة عابرة ، ولكنها مع سَبْق الإصرار والترصُّد، وهم يريدون بذلك أنْ يشتروا ثمناً قليلاً ، هو المال أو ما يُسمَّى بالسُّلْطة الزمنية ، يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان.

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك ؛ نَسُوا حظاً مما ذُكِّرُوا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزَّلة إليهم ، وحَرَّفوا الآيات المنزَّلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله.

٣٨ بَاب التَّوْبة وَالرحْمَة

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ قال : قالتْ قُرَيْشٌ للنبى ﷺ : ادْعُ لنَا رَبَّكَ أنْ يجعلَ لنَا الصَّفَا ذَهبًا ونُؤمن بك ، قال : وتفعلُونَ؟ قَالُوا : نعَمْ . قال : فَدَعَا فَأَتَاهُ جِبْريلُ فَقالَ : «إنَّ ربَّكَ - عَزَّ وجلَّ - يقرأ عليْكَ السَّلَام . ويقُولُ : إنْ شئْتَ أَصْبحَ لهُم الصَّفَا ذَهبًا ، فمَنْ كفَر بَعْدَ ذلكَ منهم عذَّبْتُهُ عذَابًا لا أُعذِّبُه أحدًا منَ العَالمينَ ، وإنْ شئْتَ فتحْتُ لهم بَابَ التَّوْبة والرَّحْمة . قَالَ : بلْ بَاب التّوبة والرَّحْمةِ»(١).

يقول الحق سبحانه عن مُشْركى قريش:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا(٢) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

والمتأمِّل فى كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البعد

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٤٢) ، والحاكم فى مستدركه (١/ ٥٣ـ٢/ ٣١٤ـ٤/ ٢٤٠) وقال : «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٦) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما وقال :«رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح».

(٢) كِسَف السحاب : قِطعه. فكل شىء كسفته فقد قطعته. (لسان العرب ـ مادة : كسف).

عن مجال المعجزة التى يُراد بها فى المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله.

وهذه لا تكون إلا فى أمر نبغَ فيه قومه ولهُمْ به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صِدْق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق.

فظهر من هذا القول سوء النية المبيَّتة منهم ، فالرسول لن يأتى بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلَّف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤْتى به من آيات ، ولكن الحق سبحانه هو الذى يُرسِل الآيات المناسبة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (المائدة)

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يرسل هذه الآيات رحمةً بمَنْ سألوا الرسول ﷺ عنها ، فقد سأل قوم [1] عن ناقة وعقروها فأبادهم الله ، وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم ، وتوعَّدهم الحق بعدها إنْ لم يؤمنوا ، وكانت سنة الله مع خَلْقه إن اقترحوا هم آية ولم يُصدِّقوها ، فإن الحق يُهلِكهم أو يُعذِّبهم.

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ (الأعراف) ثم قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴿٧٧﴾﴾ (الأعراف)

وحين يطلب أتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب فى طياته التفلّت والتحلّل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)﴾ (الإسراء)

فليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شىء ، والحق - تبارك وتعالى - قادر أن يُنزل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجزه شىء ، ولايتعاظمه شىء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات.

يقول تعالى : **﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا (٥٩)﴾** (الإسراء)

فقوم ثمود طلبوا معجزة بعينها [1] ، فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فَمَا كان منهم إلا أَن استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التى طلبوها ، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها. أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها.

هذه السابقة مع ثمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً مِنَّا عن الإتيان بها.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٨) :«كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنُوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عزوجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها».

فالمسألة ليست مسألة الإتيان بالآيات والمعجزات ، فالله سبحانه قادر قدرةً مطلقة لا يُعجزه شيء ، فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم فى الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾ (الرعد)

فالكافرون تساءلوا ـ كذباً ـ عن مجيء آية ، وكان تساؤلهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع يناقضون به أنفسهم ، فقد قالوا: **﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾** (الزخرف)

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتَمَنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين«مكة أو الطائف».

وهم من قالوا أيضاً : **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ(٦)﴾** (الحجر)

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغُوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب والبيان ، والفصاحة ، ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم فى البلاغة و القصائد ، فهم أمة تطرب فيها الأذن لما ينطقه اللسان.

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتى نزلتْ على الرسل السابقين عليهم

السلام ، ونسوا أن الآية الكونية عمرها مقصور على وقت حدوثها ، ومَنْ رآها هو مَنْ يُصَدِّقها ، أو يُصدِّقها مَنْ يخبره بها مصدر موثوق به.

والحق سبحانه يُبيّن لنا أنهم غارقون فى العناد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حجج يتلكئون بها حتى لايؤمنوا ، فتعنتوا ، ولم يكتفوا بالقرآن معجزة وآيات تدلهم إلى سواء السبيل ، بل اقترحوا هم الآية حَسْب أهوائهم ، ولذلك نجدهم قد ضلُّوا.

ويقول الحق سبحانه عن اقتراح من اقتراحاتهم: ﴿**قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا** (٢١)﴾ (الفرقان)

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كل البُعْد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد.

لذلك يقول الحق سبحانه رَداً على لجَج هؤلاء وتعنُّتهم :

﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** (١١١)﴾ (الأنعام)

وقد قالوا أيضاً : ﴿**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ**[1] **أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** (٩٣)﴾ (الإسراء)

(١) الزخرف : الذهب ، ثم استعمل فى الزينة وفى أثاث البيت الجميل. وقوله تعالى : ﴿**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ** (٩٣)﴾ (الإسراء) أى : من ذهب أو كله زينة وأثاث جميل . (القاموس القويم ١/ ٢٨٥).

ويظهر أنهم تسرَّعوا فى هذا القول ، ورأوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوى عليه نفوسهم من عناد: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

وكأنهم يُبيِّتون العناد لرسول الله ، فهم كاذبون فى الأولى ، وكاذبون فى الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذى أرادوا ما آمنوا.

وقد ردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ[1] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ (الأنعام)

فقد طالب المكذِّبون الرسول ﷺ أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى ، فبعد أنْ وضَّح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كأن يُفجِّر لهم الرسول ﷺ يَنْبُوعاً فى أرض مكة لاينقطع ماؤه ، أو يكون رسول الله ﷺ بمكة بستان من نخيل وعنب ، تتخلله الأنهار ، أو أن يدعوَ لرسول الله ﷺ أن تُنزل عليهم السماء قِطعاً كعذاب شديد.

أو أنْ يتجسَّدَ لهم الله والملائكة ليَرَوْهم رَأْيَ العين ، أو أن يكون لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أنْ يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه يُنزِّه ذاته أن يتحكم فيه أحد ، أو يشاركه فى قدرته ، فيعلن لهم على لسان رسوله ﷺ قوله سبحانه وتعالى :

(١) القرطاس: الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه .(القاموس القويم ٢/ ١١٣)

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ (الإسراء)

لأن الذي يبعث الآيات هو رَبُّ العالمين ، ولا أحدَ يجرؤ أن يفرض على الله آياته ، ورسول الله ﷺ هو مستقبل لآيات الله لا مقترحٌ للآيات ، ذلك أنه ﷺ يعلم أن مَنْ يقترح على الله آية ثم تأتى ، فيكذب بها يصيبه ويناله الهلاك ، هذه سنة الله.

وانظر إلى رَدِّ القرآن على كُلِّ هذا التعنُّت السابق : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي... (٩٣)﴾ (الإسراء)

ولأن الأمور التى طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَداً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتى لا تُطلق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غنىً عن ذلك فى كتاب الله الذى نزل إليهم.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ (العنكبوت)

وقد قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ (المائدة)

كأن عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ؛ لأنكم ما دُمْتُمْ قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صِدْق رسوله ،

وحَسْبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى ، وعليكم أنْ تُلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم أنكم مؤمنون به.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾ (المائدة)

وكأنهم أرادوا أنْ يتشبَّهوا بسيدنا إبراهيم الخليل عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه ، لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عَيْن اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت بعد ذلك حقيقة واضحة.

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين أنْ يؤمن الإنسان بذاته ، وأنْ يشهد بالإيمان عند غيره ، فالذى يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق.

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام ، وهو يختلف عن قولهم فى هذه المائدة ـ قال سبحانه:

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ (المائدة)

والمقارنة بين قَوْل الحواريين وقَوْل عيسى ـ عليه السلام ـ تدلُّنا على الفارق بين إيمان المبلّغ عن الله ، وإيمان الذين تلقَّوْا البلاغ عن عيسى ، إيمان عيسى هو الإيمان القوىّ الناضج ، أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص.

لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقّى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ عن الله ، وتَمَّ

ذلك بواسطة رسول ؛ ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه فى سُلَّم الإيمان درجة أعلى ، إنه يتلقى عن الله ؛ ولهذا صَحَّح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه.

لقد قال عيسى داعياً الله: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة)

وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ، ملتزماً بالتكليف القادم منه ، ثم جاء بنداء الربوبية ، فيا مَنْ أنزلتَ علينا التكليف ، ويا مَنْ تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تُنزل علينا مائدة من السماء.

وأخذ نداؤه زاوية القيم ، ثم زاوية المادية وهى الرزق ، لكن الحواريين قدَّموا بشريتهم ، فطلبوا من المائدة الأكل والطعام ، فقالوا : ﴿ **نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾** ﴾ (المائدة)

أما عيسى ابن مريم عليه السلام فقد أخَّر الطعام عن القيم بصفائية اختياره رسولاً ، فقال : ﴿**اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾**﴾ (المائدة)

ويجيب الحق سبحانه على دعاء عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾**﴾ (المائدة)

وقد اختلف العلماء [١] : أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة ، أم لم

---

(١) اختلف العلماء على قولين: =

ينزلها؟ إن هناك مَنْ تمسَّكوا بقول الحق سبحانه : ﴿ **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ..** ﴿١١٥﴾ (المائدة) . وهناك مَنْ قالوا: إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها.

وكان محمد ﷺ رحيماً بآله وعشيرته ؛ لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه.

والرسول ﷺ كان يُحزِنه أنْ يسارعَ البعض فى الكفر ، فقد كان ﷺ يحرص على أنّ يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحزن إلى قلبه ، فهو ﷺ رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾ (الأنبياء)

ودليل ذلك أن جاءه التخيير ، فقد نادى جبريل رسول الله ﷺ ، وقال : «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك

= **الأول:** أنها لم تنزل . قال مجاهد: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء وكذا قال الحسن البصرى. وقال مجاهد أيضاً : مائدة عليها طعام أبوْها. قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١١٩) : «هذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم».

الثانى: أنها نزلت. قال ابن كثير فى تفسيره :«الذى عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذى اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها ووعد الله ووعيده حق وصدق ، وهذا القول هو الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم».

ملك الجبال لتـأمره بما شئت فيهم. قال : فنـادانى ملك الجبال وسَلَّم علىّ ، ثم قال : يا محمـد ، إن الله قد بعثنى إليك وأنا ملك الجبال لتأمـرنى بأمرك ، فما شئْتَ؟ إنْ شئْتَ أُطبق عليهم الأخشبين [1]؟ فقـال النبى ﷺ : «بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً» [2].

فـالرسول ﷺ لا يُشـفق على هؤلاء فقـط ، ولكنه يحرص أيضـاً على الأجيـال القادمـة ، وقد كان ، وخـرج من أولاد كفار قـريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء.

فكان رسول الله ـ كما أخبـر الله فى آيات القرآن ـ يحزن عندما لايذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق سبحانه: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)** ﴾ (الكهف)

ولذلك حين عَلِم الحق ـ عـلم وقوع ـ أن رسـول الله مـهـتم بأمـر أمتـه ومشـغول بها وحريـص عـلى أنْ يشملها الله بمغـفرته ورحمتـه ، وألا يسوؤه فيها ، أخبره المولى ـ عزوجل ـ بأنه سوف يُرضيه فى أمته.

وقـد ورد فى الحديث مـا يؤيد ذلك ، فقـد روى عبـدالله بن عمـرو بن العـاص أن النبى ﷺ تلا قَـوْلَ اللـه عـزوجل فى إبراهيم ﷺ ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)** ﴾ (إبراهيم) وقول عيسى عليه السلام ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)** ﴾ (المائدة).

(١) **الأخشبان** : هما جبـلا مكة ، أبو قبيس والجبل الـذى يقابله ، قال ابن حجـر فى الفتح (٦/ ٣١٦): «سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما».

(٢) حديث متـفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

فرفع ﷺ يديه فقال: أمتي أمتي وبكى ، فقال الله عزوجل: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ، فقل: إنَّا سنُرضيك فى أمتك ولا نسوؤك» [(١)].

فمن رأفته ﷺ صَعُب على نفسه أنْ ينال قومه مشقة ، فالرحمة والرأفة مصدرهما ما وهبه الله إياه من فَهْمٍ لقيمة نعمة الإيمان.

ولقد امتنّ الله على أمة العرب التى استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله ﷺ بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبه ونسبه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ محباً لقومه حريصاً على هدايتهم.

قال تعالى : ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)**﴾ (التوبة)

أى : تعز عليه مشقتكم ويؤلمه عنتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص الضَّنُّ بالشىء ، فكأنه ﷺ يضنُّ بقومه.

وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا المعنى في الحديث الشريف:

«إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم[(٢)] وأنتم تقحمون فيه»[(٣)].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢) كتاب الإيمان من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى هذا الحديث فى (المجلد ١/ ص ٥١٥ ـ ٥٣٢) .

(٢) حُجْزة الإنسان: معقد السراويل والإزار . واحتجز بالإزار إذا شدَّه على وسطه. فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشيء والتعلق به. (لسان العرب ـ مادة : حجز).

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

لذلك حَـزن رسول الله ﷺ على قـومـه لما رأى من كفـرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قـبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنـك إذا أحببتَ إنساناً أحـببت له مـا تراه من الخيـر ، كمَنْ ذهب إلى سـوق ، فوجـدها رائجة رابحة ، فدلّ عليها مَنْ يحب من أهله ومعارفه.

كـذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حـلاوة الإيمان أحب أن يشاركـه قومـه هذه المتعة الإيمانية ، والحق ـ سبحـانه وتعالى ـ يُسلِّي رسوله ، ويُخفِّف عنه ما صُدم في قومه ، فيقول له:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ (النحل)

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ (الأنعام)

فالمسـألة ليست مسـألتك أنت ، إنهم يعرفـون أنك يا محمـد صادق لا تكذب أبداً ، فـالحق سبـحانـه يخاطب رسـوله ﷺ هنا للتـسلية ، ويعطيـه الأُسْوة التى تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذِّبون به ، فيقول:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ (آل عمران)

فالحق سبحانه يُوضح لرسوله ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السـماء ، فلا تبتـئس ولا تحزن ، فهذا التكذيب ظاهرة عـانى.منها كل الرُّسل السـابقين لك ؛ لأنهم يجيـئـون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فـلا بُدَّ أنْ يُكذَّبوا.

والرسول ﷺ لم يكُنْ رحمة لمن أُرسِل إليهم فقط ، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم ، والعالم هو كل ما سوى الله ، فالملائكة عالم ، والجن عالَم، والحيوان عالَم ، والنبات عالَم ، فالرسول ﷺ رحمة لكل هذه العوالم.

وانظر إلى رحمة رسول الله ﷺ بالحيوان في قوله الشريف:«دخلت امرأة النار في هِرَّة حبستها ، لا هى أطعمتها ، ولا سقتها ، ولا تركتها ، تأكل من خشاش [1] الأرض»[2].

كما يخبرنا حديث آخر أن الله غفر لرجل سَقى كلباً ، كان يلهث من شدة العطش ، فنزل البئر وملأ خُفَّه ماء وسقى الكلب فغفر الله له. فحتى الكلب نالته الرحمة [3].

فكُلُّ ما جاء به النبى ﷺ داخل فى عناصر الرحمة ، فالله تعالى أرسل رسوله رحمةً للعالمين ، وحتى ينال الناس هذه الرحمة لابُدَّ أن يؤمنوا بالله ويتبعوا منهجه ، فإنْ أعرضوا وتولَّوْا فلا عُذْرَ لهم ولا حجة.

---

(١) من خشاش الأرض : يعنى من هوامِّ الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها . (لسان العرب ـ مادة : خشش).

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣١٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٢) من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٣)عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه **العطش** ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : **لقد** بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له . قالوا : يارسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال : **في كل ذات** كبد رطبة أجر» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) كتاب السلام.

٣٩ قَدْ فَعَلْتُ

عَن ابْنِ عبَّاسٍ قَالَ : لما نزلَتْ هذه الآيةُ ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ (٢٨٤) ﴾ (البقرة) قَالَ : دَخَلَ قُلُوبَهُمْ منها شَيْءٌ لَمْ يدخُلْ قُلُوبَهُم مِنْ شَيء ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : «قُولُوا : سَمِعْنا وأَطعْنَا وسلَّمنا». قال: فألقَى اللهُ الإيمانَ في قُلوبهم ، فأنزلَ اللهُ تَعالَى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ . (البقرة ٢٨٦)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ.

﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا(١) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا (٢٨٦)﴾ (البقرة)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا (٢٨٦)﴾ (البقرة)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ (٢).

---

(١) الإصر: القيد والثقل والعهد المؤكد ، وسميت التكاليف الشاقة إصراً لأنها تشق على المكلف وتثقل عليه. (القاموس القويم ١/ ٢١)

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٦) ، والترمذى فى سننه (٢٩٩٢) ، وأحمد فى مسنده(١/ ٢٣٣) . قال الترمذى : هذا حديث حسن.

إن حسابَ الحق دقيق عادل ، فالذين ثقُلَتْ كفَّة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس ، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كفَّة أعمالهم السيئة ، فصاروا من أصحاب النار.

والحق سبحانه يطلب مِنَّا أن نكون دائماً على ذِكْر من قضية واضحة، هي: أن الكون كله لله ، والبشر جميعاً بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخْفى على الله ؛ لذلك قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..(٢٨٤)﴾ (البقرة)

فلن يخرج كائن مَنْ كان عن مُلْكه سبحانه ، وما دام كل شيء في الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده سبحانه ، فكل شيء في الوجود هو مِلْكٌ لله ، وهو يتصرّف بقدرته فيما يملك.

فإياكم أنْ تظنُّوا أن هناك مَهْرباً أو مَحصياً أو مَعْزلاً أو مفراً ، فلله ما في السموات وما في الأرض ، فلا السماوات تُؤوي هارباً منه ، ولا مَنْ في السماوات يعاون هارباً منه ، فسبحانه المحيط عِلْماً بكل شيء ، والقادر على كل شيء.

والحق سبحانه وتعالى يصفُ نفسه ، فيقول: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾ (الأنعام)

إنه إله واحد يعلم السِّرَّ والجهر ، ويترتب على هذا أساسُ الثواب والعقاب ، فلا تظن أيها الإنسان أنكَ تُفلت من حساب ربك ، وإنْ كان سبحانه يعلم السر فمن باب أَوْلَى أن يعلم الجهر.

إنه سبحانه وتعالى يعلم السر من قبل أن يكون سراً ، وكل أمر قبل أنْ يصبح جهراً يكون سراً ، وقبل أنْ يكونَ سراً هو أخفى من السر.

والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تَمَّ تسجيله علينا ، إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، فسبحانه يقول:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ (الإسراء)

والحساب معناه أن للإنسان رصيداً ، وعليه أيضاً رصيد ، يقول تعالى : **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾** (الأعراف)

إذن : نحن أمام نوعيْن من البشر ، هؤلاء الذين ثقُلَتْ كفَّة الخير فى ميزان الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور فى ميزان الحساب، فماذا عن الذين تساوت الكِفَّتان في أعمالهم ، فاستوت حسناتهم مع سيئاتهم؟

إنهم أصحاب الأعراف الذين ينالون المغفرة من الله ؛ لأن مغفرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقتْ غضبه جَلَّ وَعلاَ ، ولو لم يجىء أمر أصحاب الأعراف فى القرآن لقال واحد: لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم ، وأخبار الذين خفَّتْ موازين الخير عندهم ، ولم يَقُلْ لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم.

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر ، وأوضح لنا أن المغفرة

تسبق الغضب عنده ؛ لذلك فالحساب لا يكتفى الحقُّ فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق ؛ لذلك يُطمئننا الحق سبحانه فيقول:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ (الفرقان)

إن الحق سبحانه يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كفَّة الميزان ، ويطمئننا أيضاً على أنه سبحانه سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وأننا سنأخذ من حسناتهم ، لتُضاف إلى ميزاننا.

إذن: فالطمأنينة جاءت من طرفيْن: طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا ينُسى أنه يدخل في حسابنا ، وطمأننا أيضاً على ما أصابنا من شَرِّ الأشرار ، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا.

إن هذه المسألة تحتاج إلى دقَّة بالغة ؛ لأننا وجدنا بعضاً من صحابة رسول الله ﷺ قد وقفوا فيها موقفاً أبكى بعضهم.

فهذا عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ حين سمع هذه الآية قال: لئن آخذنا الله على ما أخفيْنا فى نفوسنا لنهلكن ، وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء[١].

وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن ، لقد وجد إخوانُه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية [٢] .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٣٨) أثر عبدالله بن عمر.

(٢) قال ابن مرجانة : فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس : يغفر الله لأبى عبدالرحمن، لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبدالله بن عمر. ذكره ابن كثير في تفسير الآية (١/ ٣٣٨).

فأنزل الله بعدها قوله : ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** (٢٨٦) ﴾ (البقرة)

فالحق سبحانه لم يُكلفكم إلا ما هو فى الوُسْع ؛ لأن الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو ما لا قدرةَ لنا عليه ، وهذا بعيد عن التكليف.

القسم الثانى: لنا قدرة عليه ، لكن بمشقة ، أى : يجهد طاقتنا قليلاً.

القسم الثالث: التكليف بالوُسْع.

إذن: فالحقُّ سبحانه لا يُكلِّف النفس إلا بتكليف تكون فيه طاقتها أوسع من التكليف ، كلَّف الحقُّ كلَّ مسلم بالصلاة خمسة فروض كُلَّ يوم ، وتملأ أوقاتها بالصلاة ، وكان من الممكن أن تكون عشرة ، بدليل أن هناك أناساً تتطوع ، وهو سبحانه كلَّف كل مسلم بالصوم شهراً ، ألاَ يوجد مَنْ يصوم ثلاثة أشهر؟ ومثل هذا فى الزكاة ، فهناك مَنْ كان يخرج عن ماله كله لله ، ولا يقتصر على ما يجب عليه من زكاة.

إذن : فهذا فى الوُسْع ، ومن الممكن أن تزيد ، فكل التكاليف التى كلَّفنا الله بها فى وُسْعنا ، وأقل من وُسْعنا ، بدليل أن المشرِّع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوُسْع.

ومثال هذا قوله تعالى عن الصيام : ﴿**وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** (١٨٥) ﴾ (البقرة)

فعليك أن تتقى الله ما استطعت بما كان في استطاعتك من الوُسْع ،

وساعة تكون غير مستطيع فهو سبحانه الذى يُخفِّف ، إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجاً عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتك ، فالله هو الذى يُخفِّف عنك.

ولذلك ، فعلى الإنسان ألاَّ يستخدم القول الحق: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**(٢٨٦)﴾ (البقرة) ، فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يُقدِّر الوُسْع ، ثم يبنى التكليف على الوُسْع ، بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس، وهو الذى أنزل التكليف لوُسْع النفس ، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوُسْع النفس حينما قرر لها المنهج.

إن الله قد كلفك فهو عليمٌ بأن ذلك فى وُسْعك؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وُسْعها ، ونحن نسمع الآن صيحات تقول : إن العصر لم يَعُدْ يحتمل ، وأن ظرف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هى تبرير أنه ليس فى وُسْعنا أنْ نُؤدِّى بعض التكاليف.. ربما كان هذا التكليف في الوُسْع في الماضى عندما كانت الحياة بسيطة ، وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة.

نقول لمن يردد هذا الكلام : إن الذى كلَّفك قديماً هو الله سبحانه وتعالى، إنه يعلم أن في وُسْعك أن تؤدى التكليف وقت نزوله ، وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة ، والدليل على ذلك أن هناك مَنْ يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل فى باب الإحسان.

فهناك مَنْ يصلى الفروض وهى التكليف ، وهناك مَنْ يزيد عليها السنن، وهناك مَنْ يقوم الليل فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض.

وهناك مَنْ يصوم رمضان ، ومَنْ يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية ، أو كل اثنين وخميس على مدار العام أو فى شهرَىْ رجب وشعبان .

وهناك مَنْ يحج مرة ، ومَنْ يحج مرات... وهناك مَنْ يلتزم بحدود الزكاة ، ومن يتصدق بأكثر منها.

إذن : كل التكاليف التى كلفنا الله بها فى وُسْعنا وأقل من وُسْعنا ، ولا يقال : إن العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ، ونزيد عليها دون أىِّ مشقة.

وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم فى غير الوُسْع ، فإن الله يُخفِّف التكليف ، فالمسافر تقول له الشريعة: أنت تخرج عن حياتك الرتيبة ، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مُسْتقر ؛ لذلك يُخفِّف الحق عليك التكليف ، فَلَكَ أن تفطر في نهار رمضان ، ولك أنْ تقصُرَ الصلاة.

والحق سبحانه يعلم أن الوُسْع قد يضيق ؛ لذلك فإنه جَلَّ شأنه يخفف حكم التكليف ، ويمنح الرخص عند ضيق الوُسْع ، ومثال ذلك قول الحق تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ (الأنفال)

فكان المقاتل المسلم مطالباً بأن يقاتل عشرة من الكافرين ، فكانت النسبة واحداً إلى عشرة ، ولكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ خفف هذا الحكم ، فقال تعالى:

﴿**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾**﴾ (الأنفال)

ونحن نعلم أن هناك شروطاً للمقاتل ، أولها : أن يكون المقاتل قوىَّ البدن وقوىَّ الإيمان ، وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها ، بحيث يستطيع أن يناور ، ويُغيِّر مكانه في المعركة ، ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة ، بل لابُدَّ من كرّ وفرّ ، وإقبال وإدبار ، وخداع للقتال ومناورات ، مثلما فعل خالد بن الوليد فى كثير من المعارك.

إذن : فلكَيْ تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين ، لا بُدَّ أن يتحقق فى هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجَلَد ، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجَلَد ضعيفاً ، وقد تأتى للإنسان فترات ضعف ، وتأتيه أيضاً فترات قوة.

ومن رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ بالمؤمنين أنه خفَّف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات ضعف تصيب الإنسان ؛ لذلك جعل النسبة واحدا إلى اثنين.

والحق سبحانه يقول على لسان عباده المؤمنين:

﴿**رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴿٢٨٦﴾**﴾ (البقرة)

ولقائل أن يقول : إن الرسول ﷺ طمأننا ، فقال : «رُفع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرِهوا عليه» (1). فكيف يأتى القرآن بشىء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناسُ ربهم ليرفعه عنهم؟

على مثل هذا القائل نردُّ : هل قال أحد : إن رَفْع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر ؟ لعل الرفع حدث بعد أنْ دعا الرسول والسابقون من المؤمنين ، فما دام قد رُفع فمعنى ذلك أنه كان موجوداً. إذن: فلا يقولَنَّ أحد: كيف تدعو بشىء غير موجود؟

أو : أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيمانى ، أى : الله يحب ألاَّيعصَى إلا خَطأ أو نسياناً ، وأن الله لا يصحّ ولا يستقيم أن يُعصى قصداً ؛ لأن الذى يعرف قَدْر الله حقاً لايليق منه أن يعصى الله إلا نسياناً أو خطأ ؛ لأن الخالق هو المنعم بكل النعم ، وبعد ذلك كلفنا ، وكان يجب ألاَّ نقصد المعصية .

ولذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد سمَّى ما حدث من آدم معصية ، مع أنه يقول : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) ﴾ (طه).

وسمَّى الله النسيان فى قصة آدم معصية ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ(121)﴾ (طه) ، فكان النسيان أولاً معصية ، ولكن الله أكرم أمة محمد ، فرفع عنها النسيان ، وفى مسألة آدم : هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه ، فآدم

(1) أخرج ابن ماجه فى سننه (2045) والدارقطنى فى سننه (4/ 170)والحاكم فى المستدرك (2/198) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتى: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

خُلق بيد الله ، ونحـن مخلوقون بقـانون التكاثر ، وآدم تلقَّى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول ، وكُلِّف بأمر واحد ، وهو ألاَّ يأكل من الشجرة.

فإذا كـان آدم مخلوقـاً من الله مبـاشرة ، ومكلفـاً من الله مبـاشرة ، ولـم يُكلَّف إلا بأمر واحـد ، وهو ألاَّ يقربَ هذه الشجـرة ، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة ، فماذا نسى؟ وماذا تذكَّر؟ إنها معصية إذن.

لقد كان النسيان بالنسبة لآدم مـعصية ، لأنه مخلوق بيد الله ؛ لذلك لم يكُنْ من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد ، وما كان يصح له أنْ ينسى ، ولعل سيدنا آدم نُسِّي لحكمة يعلمهـا الله ، ربما تكون ليعمر الأرض التى جعله الله خليفة فيها.

أما بالنسـبة لأمة محـمد ، فحينمـا نقول: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** (٢٨٦)﴾(البقـرة) فكأننا يا رب نقـدرُك حق قَدْرك ، ولا نجتـرىء على عصيانك عمداً ، وإنْ عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أو خطأ ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى.

ولكن ، ما النسيان؟ وما الخطأ ؟

فالخطأ كـأن يقصـد الإنسان شيـئاً ويحدث غـيره ، أما الـنسيان فـهو ألاَّ يجيء الحكم على بال الإنسان.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك.

﴿**رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**(٢٨٦)﴾(البقرة)

والإصْر: هو الشـيء الثقيل الذى يـثقُل على الإنسـان. ومن ذلك الإصر

الذى نزل على اليهود : إنْ أردتم التوبةَ فاقتلوا أنفسكم ، أو تصدَّقوا ، أو زكُّوا بربع أموالكم.

وقد قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ (٥٤)﴾ (البقرة)

وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى هذا ، جعل موسى بنى إسرائيل يقفون صفوفاً ، وقال لهم : إن الذى لم يعبد العجل يقتل مَنْ عبده ، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشقُّ عليه التنفيذ ، فرحمهم الله بأن بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجدوا مشقة فى تنفيذ القتل. وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً (١).

والحق يوضح أن الإسلام لم يأتِ بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التى كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التى رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بُدَّ أن يضيعها.

ومن لُطْف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله بن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر وثابت بن قيس ، كل هؤلاء قالوا : والله لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا.

وقال سيدنا عمر : والله لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا ، والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك. إذن : فهذا لُطْف ، إنه بيَّن لهم : لوكتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى ، ماذا كانوا يفعلون؟

(١) انظر الروايات التى وردت فى هذا فى تفسير ابن كثير (١/ ٩٢ ، ٩٣).

لكن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ استجاب لدعائهم:

﴿وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ(٢٨٦)﴾ (البقرة)

لقد استجاب الحق سبحانه لهم ، ولم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا.

وعندما نقول : ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فنحن نُصدّق أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله :نعم». ومعنى «قال الله : نعم» أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة.

أى : أن الله لن يُحمّلنا ما لا طاقة لنا به.

وعندما نقول : ﴿وَاعْفُ عَنَّا (٢٨٦)﴾ (البقرة)

فنحن نتوجه إلى الله ضارعين : أنت يا حقُّ تعلم أننا مهما أُوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أنْ نُؤدِّى حقّك كاملاً ؛ ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أنْ تعفو عنا.

ومعنى العَفْو مَحْو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة ، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر ، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب.

ولنتعلم ما علَّمه رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين ، لقد سألت رسول الله إذا صادفتْ ليلة القدر فقالت : إنْ أدركتنى هذه الليلة بماذا أدعو؟

انظروا إلى رسـول الله ﷺ ، لقـد علَّم أم المؤمنين عـائشة أن تدعـو بمقـاييس الخيـر الواسع ، فقـال لها: «قـولى : اللهم إنك تحب العـفو فـاعف عنى»[1].

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولايوجد خَيْر أحسن من العفو.

وعندما تقول : «واغـفر لنا» فأنت تعرف أن من مظاهر التـكوين البشرى النية التى تريد أنْ تُحوِّل الـعزم إلى حيِّز السلوك والانفعـال النزوعى ، فالمسألة تحتـاج منك إلى تدريب ، ومثـال ذلك : عندما يذنب واحد فـى حقِّك فَلَكَ أنْ تردَّ عليـه الذنب بالذنب ، ولك أنْ تكظـم الغيظ ، لكـن يظلّ الغيْـظ موجـوداً وأنت تحبسه. ولكَ أنْ تعفو.

ويقول الحق تبـارك وتعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)**﴾ (آل عمران)

فإنْ أساء أخـوك إليك سيئة ، فإمـا أنْ تردَّ بالمثل ، أو تكظم الغيظ ، أو ترقىَ إلى العـفـو ، وبذلك تكون مـن المحسـنين ، لأنك إذا كنت قـد ارتكبتَ سيئة ، وعلمتَ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يغفرها لك ، ألاَ تشعر بالسرور.

إذن : فما دُمْتَ تريد أنْ يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حـقك؟ وقد جعل الحق سبحانه عفو العبد عن سـيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى،

(١) أخرجـه أحمـد فى المسند (٦/ ١٨٣ ، ٢٥٨) ، والترمـذى فى سننه (٣٥١٣) وكذا ابن مـاجه في سننه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفوق ذلك فـأنت تترك عقـاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعـند التسليم له راحة.

ولو اقتصصتَ أنت ممَّنْ أساء إليك ، فـقصاصك على قَدْر قوتك ، أما إنْ تركتـه إلى قدرة اللـه تعالى ، فـهذا أصعب وأشـقّ ؛ لأنك تركتـه إلى قوة القوى ، وهكذا ينـال العافى عن المسيء مرتبـة راقية ؛ لأنه جـعل الله سبـحانه وتعالى فى جانبه.

لكن ، ماذا عن مِثْل هذا الأمر بالنسبـة للخالق الذى له كمال القدرة؟ إن الله قد لا يُعـذِّب العبد المذنب ، ولكنه قـد يظلّ غاضباً عليـه ، ومَنْ مِنّا قادر على أنْ يتحمَّل غضب الرب؟

لذلك نطلب المغفرة ونقـول «واغفر لنا وارحمنا» فنحن ندعوه سـبحانه أَلاَّ يدُخلنا في الذنب الذى يُؤدِّى إلى غضـبه ـ والعياذ بالله ـ علينا. فـالعفو هو أن نرتكب ذنبـاً ، ونطلب من اللـه المغفـرة ، ولكن الرحـمـة هى الدعـاء بأَلاَّ يُدخلناَ فى الذنب أَصْلاً.

وعندمـا يقـول الحق سبـحـانه: ﴿**أَنتَ مَـوْلانَا فَـانصُـرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَافِرِينَ**(٢٨٦)﴾ (البـقرة). فـهـذا اعـتراف بعـبـوديتنا له ، وأنه الحق خـالقنا ومُتـولِّى أمورنا وناصـرنا ، وما دام الحق هو نـاصرنا فهـو ناصرنا علـى القوم الكافرين .

يقول تـعالى : ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْـرِجُـهُم مِّنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ...**(٢٥٧)﴾ (البقرة)

فـهـو يريد من الذين آمنوا أنْ يجـعلوا إيمانهم شـيـئـاً واحداً ، وليـسـوا متعـددين ، أو أن ولاية الله لكل فرد على حدَة تكون ولاية لجـميع المؤمنين ، وما دامـوا مؤمنين فـلا تضاربَ في الولايات ؛ لأنهم كلهم صـادرون وفاعلون عن إيمان واحـد ، ومنهـج واحـد ، وعن قـول واحـد ، وعن فـعل واحـد ، وحركة واحدة.

إنه وليُّهم أي : نـاصرهم ومُحـبّهم ومُجـيبـهم ومُعينهم ، هـو وليهم بما أوضح لهم من الأدلة على الإيمان ، هل هناك حُبٌّ أكـثر من هذا ، هل تركنا لنبحث عن الأدلة ، أو أنه لفتنا إلى الأدلة ؟

وتلك هى ولاية مـن ولايات الله ، فـقـبل أن نؤمن أوجـد لنا الأدلة ، وعندمـا آمنا والانا بالمعـونة ، وإنْ حـاربنا خصـومنا يكُنْ مـعنا ، وبعـد ذلك تستمر الولاية إلى أن يعطينا الجزء الأَوْفَى فى الآخرة.

إذن: فـهو وليٌّ فـى كل المراحل ، بالأدلة قـبل الإيمان ولىّ ، ومع الإيمان اسـتصـحاباً يكون ناصـرنا على خـصومنا وخـصـومه ، وفى الآخـرة هو ولينا بالمحبة والعطاء ، ويعطينا عطاء غير محدود. إذن : فولايته لا تنتهى.

٤٠ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى؟

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْه - أنَّ رسُـولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

«يَتَعَاقَبُونَ فيكُمْ مَلائكَةٌ بالليْل ومَلائكَةٌ بالنَّهار ، وَيَجْتمعُونَ فى صَلاة العَصْر وصَلاة الفَجْر (١) ثُمَّ يعرجُ الذينَ بَاتُوا فيكم فيسألُهم وهُوَ أعلمُ بهم : كَيْفَ تركتُم عبَادى؟ فَيقولُونَ : تركْنَاهُم وهُمْ يُصلُّونَ ، وَأتيْناهُمْ وهُمْ يُصلُّونَ» (٢).

للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحفْظه ، ليلاً ونهاراً من الأشياء التى لا يمكن الاحتراز منها ، ومثال هذا هو تلك الإحصاءات التى خرجتْ عن البشر الذين تلدغهُم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغُهم وهم نائمون ، بل في أثناء صَحْوتهم. أى: ساعة يكونون فى ستْر النوم ، فهناك ما يحفظهم ، أما في اليقظة فقد يتصرّف الإنسان بطيْش وغفلة فتلدغه الأفعى.

ونحن نقول فى أمثالنا الشعبية «العَيْنُ عليها حارس» ، ونلحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة ، كأن يسقط طفل من نافذة دَوْر علوى فلا

---

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (المجلد ٣/ ص١٣٩) طبعه دار القلم - بيروت ١٩٨٧: «أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير».

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٥) ، ومسلم فى صحيحه (٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٢/ ٨٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يُصاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أنْ تحفظَه الملائكة المعقّبات من السوء ؛ لأن مهمة الحفظة أن يحفظوا الإنسان من كل سوء.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكون قبل أنْ يخلقَه ليستخلفه فيه ، أعدَّ السماوات ، وأعدَّ الأرض ، وسخَّر الشمس والقمر ، وأخرج الثمرات ، وجعل الليل يُغشي النهار.

كُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ، وهو سبحانه قيُّوم على هذا الخليفة ، فيصونه أيضاً بعد الخَلْق، ولا يدعه لمقوِّمات نفسه ليدافع عنها ، فيما لايستطيع الدفاع عنها، ويُكلِّف الله الملائكة المعقبات بذلك.

يقول الحق سبحانه: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴿١١﴾ ﴾ (الرعد)

وقد ينصرف معنى المعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته ، وكتابة سيئاته ، ويمكن أنْ يقوما بالعملية معاً ، حفْظه وكتابة أعماله ، فإنْ كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه.

ولقائل أنْ يقولَ : ولكنهم سيكتبون السيئات ، وهذه على الإنسان وليستْ له. وأقول : لا ، ويحسُن أنْ نفهم جيداً عن المشرِّع الأعلى ، ونعلم أن الإنسانَ إذا ما عرف أن السيئة ستُحسب عليه وتُحصَى ، وتُكتب ، يمسك كتابه ليقرأه ، فلسوف يبتعد عن فِعْل السيئات.

فكتابة الحسنات والسيئات هي مسألة لصالح الإنسان ، وحين يتعاقبون على الإنسان فكأنهم يصنعون دوريات لحماية الفرد.

فالإنسان مخدوم من كُلِّ أجناس الكون حتى من الملائكة ، فالكون كلُّه يدور من أجلك وفي خدمتك ، يعطيك عطاء دائماً لا ينقطع دون سَعْي منك.

والحق سبحانه يقول: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫**﴾ (الانفطار)

فهناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله ، وكل قَوْل يقوله ، وكلّ فعْل يفعله ، بل ويكتبون هذه الأفعال.

ويقول تعالى: ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱**﴾ (ق)

فكل لفظ له رقيب عتيد ، أى : ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويُسجِّلونها ، وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا فَهْماً للمعانى الغيبية ، وإنْ كانت المعانى الغيبية التى نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع ، ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط ، هكذا قال ربنا ، فآمنا بما قال وانتهتْ المسألة ، وهذا هو المطلوب.

ولذلك قال الحق : ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ③**﴾ (البقرة)

لأن الإيمان لو كان بالمشهد ، فما الفَرْق ـ إذن ـ بين الناس ؟ إن الإيمان فى كماله وقمّته هو الإيمان بالغيب ، فإذا قال الحق سبحانه ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⑱**﴾ (ق)

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ويكتبون السيئات ، وحين ننظر إلى البشر نجدهم يتفاوتون ، ويرتفع بعض منهم على بعض فى صفات وقدرات ، وكلّما تقدم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار الله يترقى به.

وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ، ثم تقدم العلم حتى صَغُر حجم المسجّل. إذن : كلما تقدمت الصنعة صغُرَتْ الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مُسجِّلاً فى حجم الساعة ، ثم صنعوا آخر فى حجم «فَصِّ الخاتم»، وصنعوا مُسجِّلاً يشبه الحبوب ، وينثرونها فى أىِّ مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس.

إذن : كلما قويَتْ قدرة الصانع دقَّتْ الصنعة ، فإذا نسبتها لله ، فأين دقَّة الذى صنعتَه أنت بجانب دقَّة صنعة الله ؟

فإذا كان واحدٌ من البشر قد استطاع أنْ يأتىَ بمُسجِّلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته فى الصنعة محدودة ، فإذا قال ربُّك : إن هناك ملائكة لن تراهم ، وستُحصِى عليك أعمالك وهم غَيْب فَقُلْ : على العين والرأس.

ورسول الله ﷺ يقول هنا: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر».

فحديثه ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنىّ للحركة الإنسانية ، فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك، ثم ينام.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾

(الإسراء)

أى : أن ملائكة الليل يشهدون ، ومعهم ملائكة النهار [1]

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنى للحركة الإنسانية، فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ، ثم ينام.

والمعقبات يكُنَّ من بين يدى الإنسان ومن خلفه، ومن بين يديه من أجل الرصد، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أثناء الهجرة النبوية

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٤) والترمذي في سننه (٣١٣٥)، وابن ماجه في سننه (٦٧٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ (الإسراء) « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

كان يسير بعض الوقت أمام النبي ﷺ، وكان يسير البعض الآخر خلف النبي ﷺ.

كان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يتقدم ليرقب: هل هناك من يرصد الرسول أم لا؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب: أهناك من يتبعهما؟

وهكذا حرص أبو بكر على أنه يحمي الرسول ﷺ من الرَّصد أو التربُّص؟[1] ويقول الحق سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (١١: الرعد)

والسطحي يقول: إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله.

ونقول: إن الله لم يُنزل الملائكة ليعارضوا قدره، وهذا الحفظ لايكون من ذات الإنسان لنفسه، أو من الملائكة ضد قدر الله، والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ (فصلت)

والاستقامة هي أَخْذ الشيء على قوامه دون اعوجاج، والاستقامة تتطلب سيراً؛ لأنه سيسميه الصراط المستقيم، والطريق قد يكون واسعاً مثل

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٧٦) أن عمر بن الخطاب قال: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك».

(الأوتوستراد) ولكنه ليس صراطاً، فيريد الله منك أن تجعل الوسيلة إلى الغاية من عمل التكليف مستقيمة مثل الصراط، لايميل شعرة إلى اليمين ولا إلى الشمال، لأن الله يريد أن يقرب عليك المسافة التى ستوصلك إلى الغاية فقوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت)

أى: ساروا فى الاتجاه المستقيم، دون أن يلتفتوا يميناً ولا شمالاً ولم يربعوا في الطريق الواسع، بل ساروا فى وسطه دون ميل أو انحراف ، فالخط المستقيم هو أقصر بُعْد بين نقطتين.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يطلب منا ذلك يريد أن يُثْمر حركتنا، ولا يتعبنا فى الحركات الطويلة التى لاتجدى، ولكن يجعلها حركة قريبة وموصلة للغاية.

والحق سبحانه يلفتنا هنا إلى أهم ركن من أركان الاستقامة ، وهى الصلاة، وهى لاتسقط عن المؤمن أبداً ، حتى لوصلّى بخطور أفعال الصلاة على قلبه ،أو يصلى بحركة رموش عينيه ، فهى لاتسقط عن المسلم ما دام له وعى .. لماذا؟

لأن الصلاة حضور فى معيّة الله، فالزكاة تكون عندجمع المحصول ، والصوم مرة فى العام فى شهر رمضان ، والحج مرة فى العمر ، أما الصلاة فكل يوم خمس مرات ، فالعبد صنعه ربه، والذى صنعه يريده أن يذهب إليه كل يوم خمس مرات.

ولذلك، خذ آلة من آلات البشر، واجعل مهندساً يتابع حركتها وصيانتها كل يوم خمس مرات، هل يصيبها عطب؟ لايمكن ، كذلك أنت حين تذهب إلى ربك كل يوم خمس مرات.

لا يمكن أن يصيب حياتك عطب ، ولأن المهندس يصلح الآلة بإمكاناته هو فى الدنيا ، فقد يحدث العطب وغماً عنه.

أما الحق سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ فيصلحه بشىء ؟؟ لاتدركه ، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا جاء ميعاد الصلاة يقول: «أرحنا بها يا بلال» ولم يقل : أرحنا منها.

فالصلاة التى هى أم الاستقامة لا تسقط عن المكلف أبداً ، فقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم ، وقد لا يكون عنده دخل فلا يزكى ، وليس عنده قدرة مالية أو بدنية فلا يحج.

إذن: قد تسقط عنه هذه الأركان ، إلا أن الصلاة لا تسقط وشهادة أن لا إله إلا الله التى هى القمة ، لو قالها الإنسان مرة واحدة دخل الإسلام ، أما الصلاة فكل يوم خمس مرات.

وقد أخذت الصلاة قيمتها من أنها جاءت فرضيتها بالمباشرة لا بالوحى وذلك فى ليلة الإسراء والمعراج ، فهى قد أخذت قيمتها بالتكليف المباشر من الله عزوجل.

وهى مع كل هذا تجمع كل الأركان التى بنى عليها الإسلام ؛ لأن أركان الإسلام وأولها شهادة التوحيد نقولها فى الصلاة ، والصوم يتمثل فى أن المصلى يصوم فى صلاته عما هو أكثر مما يصوم عنه فى رمضان.

ففى رمضان يصوم المسلم عن الطعام والشراب والجماع (أى: يصوم عن شهوتى البطن والفرج) أما فى الصلاة فهو يصوم عما هوأكثرمن هذا ، فهو يمسك أيضاً عن الحركة وعن الكلام ، وعن النوم.إذن: فى الصلاة صيام أبلغ وأشمل.

وفى الصلاة زكاة أيضاً ؛ لأنك تقتطع من وقتك جزءاً للصلاة ، فهذا زكاة عن وقتك ، كما أن فيها حجاً لأنك لا تصلى إلا إذا تحريت التوجه إلى بيت الله الحرام ، وتستحضر توجهك إليه ، وتضعه أمام عينيك كل يوم خمس مرات.

إذن : الصلاة وإن كانت لا تسقط عن المكلف ، فقد شملت كل ألوان العبادة ، ولذلك قالوا : إن الفارق بين المؤمن والكافر هى الصلاة.

والصلاة فيها التنزلات كلها ؛ ولذلك تجد العظمة فى أن الله حين يدعوك هو الذى يقول لك تعال ، وإن لم تأت فأنت عَاصٍ ، مع أنك أنت المحتاج إليه.

ونحن فى الدنيا حين يحب الإنسان أنْ يقابلَ مسئولاً كبيراً يكتب له طلباً بالمقابلة ، وقد يقبل الطلب أو يرفضه ، فإنْ قبله لا بُدَّ أن يعرف سبب المقابلة ، ثم يُحدِّد موعد المقابلة ومكانها ، وبعد ذلك هو الذى يُنهى المقابلة.

هذا فى البشر ، لكن الله لا يصنع ذلك مع خَلْقه ، بل إن أردْتَ أنْ تُكلِّم ربك قفْ فى أىِّ مكان وادخل فى الصلاة ، ستصبح فى معيته ، ولن يسأل عن سبب المقابلة ، وماذا تريد؟

وهو سبحانه لا يريد منك إلا أنْ تؤمنَ به ، ثم تسلك زمام القُرْب ، فلا تطلب منه أنْ تذهب إليه ، ولكنه يفرض عليك أنْ تأتيه فهو عزيز ، ولكنك تلقاه فى أىِّ وقت تشاء ، وفى أىِّ مكان تحب.

فإذا أردتَ أنْ يذكرَك الله فاذْكُرْه ، وإنْ ذكرتَهُ فى نفسك ذكرك فى نفسه، وإنْ ذكرته فى ملأ يُطيع ويعصى ، ذكرك فى ملأ من الملائكة لا يعصون الله أبداً.

فانظر إلى هذه العبودية لله ، كم تعطيك من العزّة والكرامة.

وربُّ العزة ـ سبحانه ـ هنا يسأل ملائكته ـ وهو أعلم بما يسأل عنه : كيف تركتُم عبادى؟ فيقولون: «تركناهم وهم يُصَلُّون ، وأتيناهم وهم يصلون».

إنهم عباد لله ، يحافظون على صلواتهم وقُرْبهم من الله عز وجل ، وهؤلاء يقول عنهم الحق سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)** ﴾ [الأنعام]

فالصلاة عماد الدين ، مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، وحين نُحلِّل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنفر من الطاعات ؛ لأنها تأخذ زمناً يحبون أنْ يقضُوه فى اللعب.

وحين نقول لواحد مثلاً: اترك عملك وصَلِّ ، قد يرد: لا ، لأنّى حين أترك عملى يضيع علىَّ كذا. ولو كان طبيباً لذكر عدداً من المرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لَقَال : إنَّ توقُّف الآلة فى أثناء الصلاة يجعلنى أخسر كثيراً.

وهنا نقول : يا أخى تعالَ إلى الطاعة ، والبركة تُعوِّض لك ما تظن أنك تخسره.

وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت ، فشهادة أنْ«لا إله إلا الله محمد رسول الله» لا تحتاج منك إلا أنْ تقولها مرة واحدة ، وهذا رُكْن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والزكاة لا تأخذ منك إلا ما تعطيه يوم الحصاد بالنسبة لزكاة الزروع ، وهذا يستغرق وقتاً قليلاً ، وكذلك زكاة المال آخر العام ، والصوم شهر فى السنة ،

وإذا كان زَمَنُ الصوم أوسع قليلاً ؛ إلا أنـه وَقْتٌ لا يأتى إلا شهراً فى كل عام ، والحج مرة فى العمر إنْ كنت مستطيعاً.

إذنْ : أنت تجد التكاليف الركْنية فى الإسلام بالنسبـة للأزمان وقتها يسير وقليل لَمنْ يحـرص عليـهـا ، لكن الصـلاة تُؤدَّى فى كل يوم خـمس مـرات ، ورُقْعتها بالنسبـة للزمن أوسع ، وأداؤها يحتاج إلى طهارة منْ حدث أو جنابة ، وكذلك طهـارة المكان ؛ لذلك جاءت الصلاة رُكْناً أصيـلاً فى الإسلام ، وأنت لا تعـرف الإنسـان إنْ كـان مـسلمـاً إلا إذا سـمع الأذان وقـام يُـصلِّى ؛ لذلك فالصلاة هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم.

ثم إن الحق سبـحانه يُذيب بالصلاة الفـوارق الاجتمـاعية التى تقـتضيـها أعمالنا ، فـتلتفت ساعة يقـول المؤذن (الله أكبر) تجد أن الكُلَّ قـد جاء ، الغنىّ قبل الفـقير ، والخـفير مع الأمـير ، فيـخلع الجمـيع أقدارهم خارج المسـجد مع نعالهم ليـتسـاوَوْا فى الصلاة ، ومَنْ له رئيس يتكَّبـر عليه يراه وهو ساجـد مِثْله لله ، فتريحه لحظة استطراق العبودية.

ولنفرض أن كُلاً منا سيُصلِّى بمفرده فى الصلاة اليومية ، لكن عندما يُؤذِّن المؤذِّن لصلاة الجمـعة يأمرنا الحق أنْ نذرَ ونترك كل شىء لنُؤدِّى صلاة الجـمعة معاً ، ويرى الضعيف عظيماً يتضـرع مثْله إلى الله ، ويرى القوى نفسه وبجانبه الضـعيـف ، وحين يعـود كُلٌّ منَّا إلى عـمله تسـقط أقنعـة القـوة والزَّهْو؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد ، وكلنا سواء.

إن هذا هو الاسـتطراق الاجـتمـاعى؛ لأننا حـين نرقب بعـضنا فى أثناء الصلاة نجد أنفسنا فى حَضْرة الرب الذى أعدَّ لنا الكون ، وسخَّره لنا ، وأعطانا الطاقات ، وأعطانا المواهب.

والصلاة تهَبُ المؤمنين الاطمئنان ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه [(١)] أمر قام إلى الصلاة [(٢)]

وليجرب هذا كُلُّ واحد منّا عندما يصعبُ عليه شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقُمْ ويتوضأ وضوءاً جديداً ويبدأه بالنية حتى ولو كان مُتوضّئاً ، وليقف بين يدى الله ، ولْيقُلْ: إنه أمر يا ربّ عزَّ علىَّ فى أسبابك ، وليُصلِّ بخشوع.

وأنا أجزم بأن الإنسان ما إنْ يُسلِّم من هذه الصلاة إلا ويكون الفرج قد جاء ، ألم نتلقَّ عن رسول الله هذا السلوك البديع؟ إنه كلما حَزَبه أمْر قام إلى الصلاة ؟

وما دامت الصلاة تريح القلب فلأذهبْ إليها وألْقى ربى ، فحين يقف المؤمن بين يدَىْ الله ويُصلّى ، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسى ، فالمؤمن يذهب إلى الخالق سبحانه ليسأله أنْ يُخفِّف عنه الهَمَّ والحزن.

وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته ، فتردُّد المسلم على بيت الله ليكون فى حَضْرة ربه دائماً هو إصلاحٌ لما فى النفس ، فبيوت الله هى أماكن تلقِّى النور المعنوىّ من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يُعطينا ارتقاء الروح.

فالمساجد لها مهمة العيادة للطبيب الخالق [(٣)] الذى خلق هذه النفس ،

---

(١) حزبه أمر. أى : أصابه. أى : إذا نزل به مهم أو أصابه غَمٌّ . وحزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه. وحوازب الخطوب ، وهو جمع حازب ، وهو الأمر الشديد. [لسان العرب ـ مادة : حزب].

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

(٣) تعبير «الطبيب الخالق» الذى استخدمه فضيلة الشيخ الشعراوى هنا هو تعبير استخدمه رسول الله ﷺ ، وذلك فى حديث أبى رمثة رضي الله عنه قال : انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب قال : «الله الطبيب ، بل أنت رفيق ، طبيبها الذى خلقها» أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ١٦٣) ، وأبو داود فى سننه [٤٢٠٦ ، ٤٢٠٧].

ويعرف كيف يداويها ، وليس للطبيب الدارس في كلية الطب الذى يعرف أشياء ، وتغيب عنه أشياء.

ونحن فى المساجد إنما نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقّى منه التجليّات والفُيوضات التى تعالج نفوسنا ، أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم.

فأنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله ، وأنت تعلم أنه إنْ جاءك أحد فى بيتك على غير دعوة فأنت تُكرِمه ، فإذا كان المجيء على موعد فكرمُك يكون كبيراً ، فما بالنا بكرم مَنْ خلقنا جميعاً ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فَيْض كرمه ، من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته ، فأنت فى صلاة منذ أنْ تبدأ فى الوضوء فى بيتك ، استعداداً للصلاة فى المسجد ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يطيل عليك نعمةَ أنْ تكونَ فى حَضْرته.

وربُّ العزة سبحانه حين يدعونا إلى بيته بالأذان ، فلك أنْ تعلم أنك إنْ خالفتَ هذه الدعوة تُعاقب ، ولكن ليس معنى هذا أن الله يُيسِّر لك بيته لتزوره فى أيِّ وقت.

فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تُمثِّل الحرص من الله سبحانه على أنْ يلقاك ليُعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مُكدِّرات الحياة ، ولكن إنْ أحببتَ أنْ تجلسَ فى المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل ، تعالَ فى أيِّ وقت ، وصَلِّ كما تشاء.

فإذا قلتَ «الله أكبر» تكون فى حَضْرة الله ، وإنْ لم تستطع فصلواتك الخمس فى اليوم الواحد هى القِسْط الضرورى لصيانة نفسك المؤمنة ؛ لأنك تُقابل ربك أثناء الصلاة وتُعلن الولاء له سبحانه .

فالصلاة ـ إذن ـ خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة ، وأراد سبحانه بها أنْ تُفيقَ إلى منهجه الذى يُصلح بالك ، ويُصلح الدنيا لك وبك ، فلا تأخذك الأسباب ، بل تأخذ أنت بالأسباب.

وحين تسمع «الله أكبر» ينادى بها المؤذِّن لصلاة الظهر ـ مثلاً ـ فعليك أنْ تتركَ أسباب الدنيا ، وتذهب لتقف بين يدى الله عز وجل ، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر ، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء.

كلٌّ هذا تذكيرٌ لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا ، فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه ، وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين ، فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن : فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منا الولاء دائماً ، فإذا كنتَ تعتزُّ بالله فأنت تُديم الولاء له باستمرار الصلاة ، وأنت حين تسجد لله وتتذلَّل له ، فإنه سبحانه يزيدك عِزَّة ، ويكون معك دائماً ، ويقيك ذُلَّ الدنيا.

وقد جعل الحق سبحانه الذين يحافظون على صلواتهم من ورثة الفردوس ، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

أى : أنهم يُؤدُّونها فى أوقاتها لايُؤخِّرونها عنها ، فبعض الناس يقولون: وقت الصلاة ممدود إلى ما قبل دخول وقت الصلاة التى بعدها ، مع أن هذا من رحمة الله بنا وتخفيفه علينا ، وهذا يكون للمضطر فقط ؛ لأنك لا تضمن أنْ تعيشَ من العشاء إلى الفجر.

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ[1] وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة]

فما دُمْتُم قد ذُقْتم حلاوة الصلاة فى القرب من معية ربكم ، وذلك أجدر وأَوْلَى أنْ تتمسَّكوا بها أكثر ، وذلك القولُ يسرى على الصلوات الخمس التى نعرفها.

وقد أخفى الله ذكر الصلاة الوسطى ، ليكون هذا أَدْعَى للمحافظة على الصلوات جميعاً.

فلو حاولنا تحديد الصلاة الوسطى باعتبارات مختلفة فسنجد أن الله أبهمها ، لتتحقق ديمومة طاعة الله ولزوم الخشوع والخضوع [2].

فإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة ، فإنَّ أولَ صلاة فرضها الله عز و جل هى صلاة الظهر ، هذا أول فَرْض ، وبعده العصر ، فالمغرب ، فالعشاء ، فالفجر ، فإنْ أخذت الوسطى بالتشريع فهى صلاة المغرب ، وهذا رأىٌ يقول به كثير من العلماء.

وإنْ أخذنا الوُسْطى بحسب عدد ركعات الصلاة فستجد أن هناك صلاة

---

(١) قال أبو بكر الجصاص فى «أحكام القرآن» (١/ ٥٣٦) :«أكّد الصلاة الوسطى بإفرادها بالذكر مع ذكره سائر الصلوات ، وذلك يدل على معنيين.
ـ إما أن تكون أفضل الصلوات وأَوْلاها بالمحافظة عليها فلذلك أفردها بالذكر عن الجملة.
ـ وإما أن تكون المحافظة عليها أشدّ من المحافظة على غيرها».

(٢) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٩٠) الاختلاف الكثير فى تحديد الصلاة الوسطى ، فساق الأقوال كلها بأدلتها (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٤) : أنها صلاة : الصبح ، الظهر ، العصر ، المغرب ، العشاء. وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس وخطأ هذا القول. وقيل : بل هى صلاة الجماعة. وقيل : صلاة الجمعة. وقيل : صلاة الخوف . وقيل : صلاة عيد الفطر . وقيل : صلاة الأضحى. وقيل : الوتر. وقيل : الضحى. ثم قال :« وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ولم يقع الإجماع على قول واحد ، بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن».

قوامها ركعتان هى صلاة الفجر ، وصلاة من أربع ركعات هى صلاة الظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من ثلاث ركعات هى صلاة المغرب ، والوسط فيها هى الصلاة الثلاثية ، وهى وسط بين الزوجية والرباعية ، فتكون هى صلاة المغرب أيضاً.

وإنْ أخذناها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار ، والظهر بعده ، ثم العصر والمغرب والعشاء ، فالوُسْطى هى العصر.

وإنْ أخذناها على أنها الوَسَط بين الجَهْرية والسرية ، فيحتمل أن تكون هى صلاة الصبح أو صلاة المغرب ؛ لأن الصلوات السرية هى الظهر والعصر ، والجهرية هى المغرب والعشاء والفجر ، وبين العشاء والظهر تأتى صلاة الصبح ، أو صلاة المغرب باعتبار أنها تأتى بين الظهر والعصر من ناحية ، والعشاء والصبح من ناحية أخرى.

وإنْ أخذناها لأن الملائكة تجتمع فيها ، فهى فى طرفى النهار والليل فذلك يعنى صلاة العصر أو صلاة الصبح ، إذن : فالوسط يأتى من الاعتبار الذى تُحسب به إن كان عدداً أو تشريعاً ، أو عدد ركعات ، أو سرية أو جهرية، أو بحسب نزول ملائكة النهار والليل ، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم.

٤١ ائتيا طوعاً أو كرهاً

عَن ابْنِ عبّاسٍ في قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت] .

قال للسماء : أَخْرِجي شَمْسَكِ وقَمرَكِ ونُجومَكِ.

وقالَ للأرضِ: شقّقي أنْهارَكِ وأَخْرجي ثِمارَكِ.

فقَالتَا : أتيْنَا طَائعِينَ (١) .

إن كل شيء فى السماوات وفى الأرض قد أسلم لله طَوْعاً أو كَرْهاً ، وهى طاعة التسخير ، فكلُّ مَا لا تكليفَ له جاء طائعاً مُسَخَّراً ، فأجناسُ الملائكة والجماد والنبات والحيوان ، كُلٌّ منهم يؤدى مهمته بخضوع ، ولا يعترض أحدٌ منهم، ولا يملك أحدهم قدرةً على العصيان.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾

[الحج : ١٨]

فالأجناس كلها ساجدة مُطيعة لربها ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/ ٢٧) وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتفسير الصحابى عندهما مسند» وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣١٦) وقال : «أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس».

ساجد لله ، والحيوان والدوابّ ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود ، لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثيرغير ساجد ؛ لذلك حَقّ عليه العذاب.

فأصْل سجود هذه الأجناس كلها هو الخضوع والطاعة لله تعالى.

فكُلُّ الكائنات تسجد لله سبحانه ، ما عدا كل أفراد الإنسان ، فكثير منه يسجد لله ، وكثير منه يحقُّ عليه العذاب ؛ لأنه لا يطيع الحق ، ومَنْ يَعْصِ منهج الله غيْرَ مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومَنْ يُهِنْه الله بذلك فليس له تكريم أبداً.

وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان ، فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنهم مَنْ يغضب منه الكون لأنه يعصى الله.

فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد رسول الله ﷺ ، فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرح بمقدم الرسول الكريم ، لأن كل هذه الكائنات مُسخَّرة للإنسان ، وهى مُسبِّحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتى البشير ليهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهى تفرح بمقدم هذا البشير .

ونعرف أن المكان الذى يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إنْ كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إنْ كان الإنسان عاصياً ، ويضجّ المكان ـ أى مكان ـ بوجود أىّ عاصٍ فيه.

ونرى ذلك واضحاً فى قَوْل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قوم فرعون:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان]

فالأرض التى كـان بها قوم فرعون كـان لها مشاعـر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التى ينعَمُ بها الإنسان لها مـشاعر وأحاسيس وهى تغضب وتسخط وتضجّ بوجود الكافرين بنعمة الله فيها.

ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسـف والتنكيل بهؤلاء العُصَاة الكافرين المشركين ، بينما تبكى السماء والأرض إنْ فارقها مؤمن.

ولنا فى قول الإمام على ـ كَـرَّم الله وجهه ـ إيضاح لهذا ، فـقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعـان: موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض. أما موضعـه فى السماء فهـو مصعد عـمله الطيب ، وأما موضعـه فى الأرض فهو موضع مُصلاَّه [1] .

إذن : فموضع صعود عمل الإنســان فى السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمرُّ فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجودَ إنسان خشوعاً لله.

ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعـر، وكل شىء فى الكون يؤدى مهمته بقانون التسييـر والتسخير، لا قانون التخيير، إلا الإنسان ، فـهو فقط الذى يحيا بقانون التخيير فى بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية.

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عـبدالله قال: سأل رجل علياً ﷺ : هل تبكى السـماء والأرض على أحـد؟ فقال له : لقـد سألتنى عـن شىء ما سألنى عـنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلًى فى الأرض ومصـعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عـمل صالح فى الأرض ولا عـمل يصـعد فى السـماء ، ثم قـرأ على ﷺ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان]

وقد شاءتْ قدرة الحق سبحانه أنْ يخلق السماء على هيئة دخان فَوُجدت ، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته ، وهو هيِّن عليه بمنزلة ما يُقال للشيء: احضر راضياً أو كارهاً ، فيسمع الأمر ويطيعه.

وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم ، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيرى من الخالق عَزَّ وجَلَّ.

وقد يتساءل بعض الناس: هل تتكلم الأرض والسماء وغيرهما من المخلوقات فى عالم الجماد والنبات والحيوان؟

نقول : نعم ، إن لها لغةً لا نعرفها نحن ، وإنما يعرفها خالقها ، فلله سبحانه مع خَلْقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات ، وله سبحانه خطاب بألفاظ ، وخطاب بإشارات ، وخطاب بإلهام ، وخطاب بوحى.

فالله ـ عز وجل ـ يخاطب جميع خَلْقه ، ويجيبه جميع خَلْقه ، والأمثلة على هذا كثيرة فى القرآن الكريم.

فالحق سبحانه خاطب ذرية آدم ، وهى فى ظَهْره فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهنا قد يقول قائل: أكان لهذه الذرية القدرة على النطق ، إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر ؛ لتتحد مثلاً بـ«البويضة» فى رحم الأم؟

فنردُّ عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمر صَعْب؟ إن الواحد من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يستطيع أنْ يتكلَّم عشر لغات ، ويتزوج من أربع سيدات ، كل سيدة ينجب منها ذرية ، ويقعد يوماً عند سيدة وذريتها ويُعلِّمها اللغة الإنجليزية مثلاً ، ويجلس مع الأخرى ويُعلِّمها اللغة الألمانية ، ويُعلِّم

الثالثة وأولادها اللغة العربية ، وهكذا ، بل يستطيع أن يتفاهم حتى بالإشارة مع مَنْ لا يعرف لغته.

وإذا كان الإنسان يستطيع أن يُعـدِّد وسائل الأداء ، ألاَ يقدر أنْ يُعدِّد ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ وسائل الأداء لمخلوقاته؟

إنه قـادر عـلى أنْ يُعـدِّد ويخـاطـب ، ألم يَقُلْ الحق ـ تبـارك وتـعـالى ـ للجبال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ(١٠)﴾ {سبأ}

كـيف ـ إذن ـ لا يتـسـع أفق الإنسـان لأنْ يدرك أن الله قـادر على أنْ يخـاطب أيّاً من مـخلوقـاته؟ إنه قـادر علـى أنْ يخـاطب كُلَّ مـخلوق له بلغـة لايفهمها الآخر.

والحق سبحانه قد خاطب السماء والأرض ، فقال:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي[2](٤٤)﴾ {هود}

وذلك في قصة نوح عـليه السلام والطوفان ، وساعـة أن يأتي في القرآن أمر من الله تعالى مثل ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ {هود:٤٤} فافهم أن القائل هو مَنْ تنصاع له الأرض.

فالحق سبحانه لم يَقُل : «قال الله يا أرض ابلعي ماءك» ؛ لأن هناك أصْلاً مُـتـعيناً وإنْ لم يَقُله ، والحق سـبحانه يـريد أنْ يُنمِّي فينا غريزة وفـطْنة الإيمان ، لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أنْ يأمرَ الأرض بأنْ تبلع الماء.

ويكون أمره سبحانه للسماء ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي(٤٤)﴾ {هود}

---

(١) أي :رَدِّدى الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام. (القاموس القويم ١/ ٤٢) .
(٢) أقلع عن الشيء : كف عنه. وأقلعت السماء: كـفَّتْ عن المطر. كـقوله : ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي(٤٤)﴾ {هود} كُفِّى عن المطر . (القاموس القويم ٢/ ١٣١).

أى: أنْ تُوقف المطر ، وهكذا يُنهى الحق سبحانه الطوفان الذى أغرق الدنيا بأنْ أوقفَ المصبَّ ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء .

والحق سبحانه إذا كان قد خاطب السماء والأرض بأنْ يأتيا طَوْعاً أو كَرْهاً ، فبماذا أمرهما رَبُّ العزة ؟

«قال للسماء: أخرجى شمسك ، وقمرك ، ونجومك».

«وقال للأرض: شَقِّقى أنهارك ، وأَخْرجى ثمارك».

وهنا يجب أنْ نقفَ وَقْفة ، فهذا الأمر الإلهى للسماء والأرض هو فى حقيقة الأمر فى صالح الإنسان لخدمته ، فهو قد أتى إلى كون قد هُيِّىء وأُعِدَّ له ، لتستقيم حياته على هذه الأرض ، وليكونَ له وجودٌ تحت هذه السماء.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لخَلْقه أنْ يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، فالحق سبحانه أوضح لنا فى منهجه : أنتم مُسْتخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادةُ هذا الكون ، سادةٌ يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدونها فى خدمتكم.

إذن: فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فكُلُّ هذه الأجناس التى سبقتْ الإنسان مُسخّرة لخدمته ؛ لأن كل هذا الوجود مُسخَّر لخدمة الإنسان.

فالنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التى نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضاً النبات والحيوان.

إذن : فكُلُّ جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعلوه ، وقد كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به

ارتبـاطاً يناسب سيـادتك على الأجناس الأخرى ، كـان لا بُدَّ أن تبحث عَـمَّنْ أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى.

هل أنت أيها الإنسـان قد سخَّرْتَ هذه الأجناس بقـدرتك وقوتك؟ لا . فلستَ تملك قـدرةً ذاتية تتيح لك ذلـك؟ أمَا كان يجب عليك أنْ تـفكر ما هى القوة التى سـخَّرتْ لك مَا لا تقدر عليـه ، فخدمتْكَ حين لا تـوجد لك قدرة ، وخدمتْكَ وأنت نائم تغطُّ فى نوم عميق؟

وأنت لست وحـــدك فى هذا الكـون ، بل هناك أجناس أخـــرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه ، وله مـهمته ، للحيـوان مهمة ، وللنبات مـهمة ، وللجماد مهمة ، فهل وجدتَ جنساً من الأجناس تمرَّد على مهمته؟ لا .

إن الحصان مثلاً ، نـستخدمه كمطيّة عليهـا وسادة من حرير وجلد ، ولها لجام من فـضة لتـركبه ، وتجـد هذه المطية فى يوم آخـر تحمل سـماد الأرض من رَوَث الحيوان وما تأبَّتْ ، لقد أدَّتْ الخدمة لك راكباً ، وأدَّت الخدمة لك ناقلاً ، وما تمرَّدَتْ عليك أبداً.

كل الأجناس ـ إذن ـ تُؤدِّى مهمتها كما ينبغى ، فاستقام الأمر فيها ، وما دام الأمر قد استقام، فبأىٍّ شىء اسـتقام ؟ إن الله هو الذى خلقها وذلَّلَها ، قال لها: « كونى فى خدمة الإنسان ، مؤمناً كان أو كافراً».

وفى هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخَّر أو تشذّ عن حركتها فى خدمة الإنسان.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [يس]

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها ، وليس بقدرتنا ، يأتى الله سبحانه وتعالى إلى أرض ينزل عليها المطر بغزارة ، والعلماء يقولون: إن هذا يحدث بقوانين الكون ، فيلفتنا الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى خطأ هذا الكلام ؛ بأنْ تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة ؛ لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ، ولكن بإرادة خالق الكون.

فإذا كانت القوانين تعمل وحدها ، فَمَنْ الذى عطَّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ، إنْ شاءت جعلتها تعمل ، وإنْ شاءت جعلتها لا تعمل.

إذن : فكُلُّ شىء فى الكون باسم الله ، هو الذى سَخَّر وأعطى ، وهو الذى يمنح ويمنع.

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت : لم يَعُدْ الخَلْق يعجبوننى ، ولن أشرق عليهم وسأحتجب اليوم ؟ أتمرَّدَ الهواء وقال: لا ، إن الخَلْق لم يعودوا يستحقون تنفُّس الهواء ؛ لذلك لن أُمكِّنهم من الانتفاع بى.

أرأينا المطر امتنع ؟ هل استنبتَ الإنسان أرضاً صالحة للزراعة واستعصتْ عليه ؟ لا ، فكُلُّ شىء فى الوجود يُؤدِّى مهمته تسخيراً وتذليلاً.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُطلق بعضاً من الحيوان فلا يُذلَّل ، ولا يُستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل مثلاً بقدرتك، فإنْ كانت لك قدرة مُطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم ، أو استأنس الأسد.

وأنت أيها الإنسان ترى فى هذا الكون بعضاً من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة بغير استئناس ؛ ليدلنا الحق على أن

هذا الذى يخدمك لو لـم يُذلِّله الله لك لَمَا استطعتَ أنـت بقدرتك أنْ تُذلِّله، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات ، منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضُّلاً منه ـ سبحانه ـ مع عَجْزك وضَعْفك.

ولم نجد شيئاً نافعاً قد عصى الإنسان فى الكون ؛ لأن كـل الخَلْق مُسخَّر من الله لخدمة الإنسان كافراً كان أو مؤمناً ، وهذا هو عطاء الربوبية ؛ لأن عطاء الربوبية يشـمل الخَلْق جميعـاً ، فالخالق الأكـرم هو ربُّ الناس كلهم ، ويتولَّى تربيتهم جمـيعاً ؛ ولذلك تستجيب الأجناس من غيـر الإنسان للإنسان ، سواء أكان مؤمناً أم كافراً.

فإنْ أحـسن الكافـر استخـدام الأسبـاب فإنَّ الأسـبـاب تعطيـه ولا تعطى المؤمن الذى لا يستـخدم الأسباب ، أو لا يُحسن اسـتخدامهـا ، فهذا هو عطاء الربوبية ، والربـوبية للجمـيع ، أما عطاء الألوهية فـهو «افـعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط.

وربُّ العـزة سبـحانه خـاطب السمـاء فقـال لها: «أخـرجى شمـسك ، وقـمـرك ، ونجومك» وخـاطب الأرض فـقـال: «شقِّـقى أنهـارك ، وأخـرجى ثمارك».

وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُحدِّثنا عن مُـقوِّمات الحياة فى الكون الذى أُهبط عليه الإنسان ضَيْفاً عليه ، لم يصنع فيه شـيئاً ، بل جاء فوجد كل شىء مُهيَّئاً له مُعَداً.

والحق سبحانه يقول فى قرآنه : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)** ﴾ [يونس]

فالحق سبحانه جاء لنا بنعَم من آياته التى خلقها لنا ، والتى جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ سبباً لقوام الحياة ، فالشمس هى التى تُنضج لنا كل شىء فى الوجود ، وتُعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تُبخِّر المياه لينزل الماء بعد ذلك عَذْباً فراتاً ، يرتوى منه الإنسان ، وتشرب منه الأنعام ، ونروى به الزرع.

والشمس هى الأم لمجموعة من الكواكب التى تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم.

وقد عرفنا أن هناك مطالعَ متعددةً للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ، لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقات وفتحات فى البناء ، فتطلع الشمس كل يوم من أحد هذه الطاقات ، فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمىً أى يومياً.

ونُسمِّى نحن تلك المنازل «البروج» كبرج الحَمَل والجدى والثور والأسد والحوت ، ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة وبرودة ومطر وغير ذلك ، ذلك أن كل برج له زمن ، ويمكن تعرُّف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة.

ويقول الحق سبحانه :﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)﴾ {النحل}

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ، والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً مُتعلِّقون بفعل واحد وهو «سَخَّر» ، وهم نَسَق واحد ، والتسخير يعنى قهر مخلوق لمخلوق ليؤدى كُلٌّ مهمته ، وتسخير الليل

والنهار والشمس والقمر ، كُلٌّ له مهمة ، فالليل مهمته الراحة ، والنهار له مهمة أن تكدح فى الأرض لتبتغى رزقاً من الله وفضلاً.

والشمس جعلها الحق سبحانه مصدراً للطاقة والدفء ، وهى تعطيك دون أن تسأل ، ولا تستطيع هى أيضاً أن تمتنع عن عطاء قدَّره الله ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ (٣٣) ﴾ [إبراهيم]

والدؤوب هو مرور الشىء فى عمل رتيب ونظام دقيق ، ولكل من الشمس والقمر فَلَك خاصٌّ ، وحركة محسوبة بدقّة فلا يصطدمان ، وقد سخَّر لنا الحق سبحانه الليل والنهار ، وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ، وكُلٌّ من الشمس والقمر دائبان ، يمشى كل منهما فى حركته مَشْياً لا تنقطع فيه رتابة العادة ، ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدِّد ـ على سبيل المثال ـ أوائل الفصول ، ومواسم الزراعة ، ومواقيت الصلاة.

ثم إنَّ تعاقُبَ ظهور الشمس والقمر يُسبِّب تعاقب مجىء الليل والنهار، ولا يعنى ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود ، فهو موجود ولكن ضَوْءَ الشمس المبهر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً.

أما النجوم ، فقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾ [الأنعام]

والنجوم هى الأجرام اللامعة التى نراها فى السماء لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خَلْقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب فى الأرض ، والسير ليلاً فى الأرض أو البحر مثل مَنْ

يحرسون ويشيعون الأمْن فى الدنيا ، ولا يمكن أن يناموا بالليل ، بل لا بُدَّ أنْ يسهروا لحراستنا ، كُلُّ ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم .

ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون ، أو يضربون[1] فى الأرض ، أو يمشون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضَوْء قليل ليهديهم ؛ ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم .

يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، وسِرْ نحو الجهة الفلانية . إذن : لو طمَّتْ الظلمة لمنعت الحركة بالليل ، وهى حركة قد يُضطرُّ إليها الكائن الحى ، فجعل الحق سبحانه النجومَ هدايةً لمن تجبرهم الحياة على الحركة فى الليل.

وعلى ذلك ، فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لو كان القصد منها أنْ نهتدىَ بها فى ظُلمات البرِّ والبحر ، لكانت كلها متساوية فى الأحجام ، لكنَّا نرى نجماً كبيراً وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر فى الواقع من النجم الكبير ، لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر .

وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها فى حركة الإنسان بَرّاً وبَحْراً ، فليستْ هذه هى كل الحكمة ؛ لذلك يأتى الحق فى أمر النجوم بقول كريم آخر ، يقول سبحانه : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة]

وكل يوم يتقدم العلم يُبيِّن لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المُذَنَّب الذى يقولون عنه الكثير ، وها هى ذى نجوم جديدة تُكتشف تأكيداً لقول الحق:

(١) يقول تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] والضرب فى الأرض: الذهاب فيها والتنقل فى البلاد ، ويُكَنَّى به عن السعى فى طلب الرزق [القاموس القويم ١/ ٣٩١].

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (١) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات]

أي : أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً ، وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قَدْر إدراكاتك وامتداداتك فى النظر الطبيعى الذى لا تستخدم فيه آلة إبصار.

والحق سبحانه يُوضح : إننى خلقتُ لكم الأشياء مما قَدَرْتُكم بعقولكم أنْ تصلوا إلى شيء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا : هذه مُنتهى الحكمة ، بل وراءها حِكَم أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانباً يسيراً من حِكَم الله ، ولكن عليك أنْ تعلم أنَّ كمال الله غير مُتنَاه ، ولا يزال فى مُلك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته ، إلى أن يُنهى الله الأرض ومَنْ عليها.

فللنجوم تأثيرها فى الجو ، وهى علامات نهتدى بها ، فَضْلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، وهى فوق كل ذلك تؤدى مهمة جمالية كبيرة ، وهى أنْ تكون زينةً لكل مَنْ ينظر إليها.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦)﴾ [الحجر]

وقال تعالى :﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢)﴾ [فصلت]

فالمصابيح فى السماء كالشمس والقمر والنجوم والكواكب ، هذه المصابيح تنير وتضيء ، فنور الشمس يُسمَّى «ضياء» ، والضياء نور مع

---

(١) بأيد: أى بقوة وقدرة . وهو ذو أيد . أى : صاحب قوة. آد العزم وآد الرجل : قوى واشتد فهو أيِّد أى قوى . [القاموس القويم ١/ ٤٥].

حرارة، والنور نور فقط ، والقمر نور ؛ ولذلك سَمَّوْه «النور الحليم» ، أما ضوء الشمس فيُسمَّى ضياء ، وتُسمَّى الشمس أيضاً سراجاً.

والسراج ينير ، وفيه حرارة كالشمس ؛ لأن الحرارة يحتاجها الكون للحياة والأحياء الموجودة فيه ؛ والحق سبحانه وتعالى يقول :﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) ﴾ [الفرقان]

أما الأنهار والثمار التى أمر رَبُّ العزة الأرض أنْ تخرجها ، فقد قال الحق سبحانه :﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٣) ﴾ [الرعد]

والنهر يُطلقُ على ما يحمل المياه العَذْبة ، أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها ستجد أن مجاريها تصبُّ فى البحار ، وهذا دليلٌ على أن منسوبَ النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس لَطغى ماء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أنْ نشربَ أو نزرع.

ولذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يجعل الماء العذب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يؤديها قبل أنْ يصبَّ فى البحر ، أقول ذلك حتى نعلم الحكمة فى قَوْل الحق سبحانه : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن]

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يحقق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطىء البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك ، حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم «شاطىء النخيل» ونحن

نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل فى هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العذب من هذا المكان الذى يوجد على البحر ، وقد تكون له جداول عَذْبة.

فسبحانه القائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ (21) ﴾ [الزمر]

ونحن فى الريف نجد منْ يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً ، وآخر يحفر بئراً ، ويكون ماؤه مالحاً ، وهذا دليل على أن الماء فى بطن الأرض غير مختلط ، بل لكُلٍّ مسارب تختلف باختلاف نوعية المياه.

ويُرتِّب الحق سبحانه فى نفس الآية مجىء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت - الجبال - كمصدر للغِرْين وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التى تحمل الماء اللازم للرىِّ ، وهكذا يكون مجىء الثمرات أمراً طبيعياً .

والثمرة - كما نعلم - هى الغاية من أىِّ زرع ، والثمرات هى نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ، وقد لا تأكل البعض الآخر ، فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنَّا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ، ولكنَّا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال.

وقد قال تعالى :﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ [1] يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4) ﴾ [الرعد]

وهو قَوْلٌ يدل على الإعجاز ، فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً

(١) الصنو : المثل، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد. قيل لكل واحد منهما صنو. والجمع صنوان . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

منها تناسب الطقس الذى توجد فيه ، فزراعة الذرة تحتاج مناخاً معيناً ، وكذلك زراعة الموز.

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، بل هى تربة مناسبة للجو الذى توجد به ، فهناك قطعة سَبِّخة لا تنبت وأخرى خِصْبة تنبت.

بل ، وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ، ومن قطعة إلى أخرى ، فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى ، والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى ، ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقى بماء واحد .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك ستنقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيْرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروق لك ، وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة.

وأنت لا تجد فى الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً فى الطعم من نوع إلى نوع ، كذلك تجد اختلافاً فى طريقة تناولها ، فلا أحدَ مِنَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أنْ نُخرج منها النواة ، ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونُخرج ما فى قلب حبة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المشمشة من بعد ذلك.

فكُلُّ ثمرة لها نظام خاص : فهناك اختلاف ، وهذا الاختلاف يمتدُّ إلى أدقِّ التفاصيل ، لدرجة أنك حين تتناول قِطفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها.

والحق سبحانه وزَّع الفضل فى الأطعمة والفواكه والثمار، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ، فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ، فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارتْ فى تقدير الموازين والتبادل هى الأفضل ، وكلُّ إنسان يمكن أنْ يجد ذلك فيما يخصهُ أو يُحبه.

وقد كان إنسان مُسْرف على نفسه ، ثم انصبَّتْ عليه الهداية مرة واحدة ، ورآه كل مَنْ حوله وهو مُقبل على الله ، فسألوه عن سبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس فى بستان ، ثم رَاقَ لى عنقود من العنب ، فقطفتُ العنقود ، وأخذت أتأمل فيه فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب ، يشفُّ عَمَّا تحته من لحم العنب الممتلىء بالعصير .

وحين وضعتُ حبة العنب فى فمى صارت ماءً رَطباً ، وأخذنى العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جو شهر بؤونة ، ثم وجدت بذرة الحبة ولها طَعْم المسْك ، فلمَّا غمرنى السرور من طَعْم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بى : « كيف تكفر بالله وهو خالق النِّعَم؟ ».

فهتفتُ : آنَ يارَبِّ أنْ أؤمنَ بك.

٤٢ يَعْجَبُ الربُّ منْ عَبْدِه

عن على بن ربيعة قال :

رأيتُ علياً أُتيَ بدابة ليركبَها ، فلما وضع رِجْلَه في الرِّكَاب قال :« بسْم الله . فَلما استوى عليها قال : الحمدُ لله ، سُبْحان الذي سَخَّر لنَا هَذَا ومَا كُنَّا له مُقرنين ، وإنَّا إلي ربِّنا لمنقلبُونَ . ثُمَّ حَمد اللهَ ثلاثاً وَكبَّرَ ثَلاثاً . ثُمَّ قالَ : سُبْحانكَ ، لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ ، قَدْ ظلمتُ نفسي فاغْفرْ لى.

ثم ضحك فقُلْتُ : ضحكتَ يا أميرَ المؤمنين ؟

قال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ فعل مثْلَ ما فعلتُ ثم ضحك ، فقلتُ : ممَّ ضحكْتَ يَا رسُولَ الله ؟

قال : يَعْجَبُ الربُّ من عبْده إذَا قَال : ربِّ اغفْر لي وَيقُولُ : « علمَ عبْدي أنَّه لاَ يغفرُ الذنُوبَ غيْري»(١).

يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾ [النحل]

فهذه أنعام نستخدمها للتنقُّل أو للزينة ، ولا نأكل لحومها ، فهى للركوب

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٠٢) ، والترمذى فى سننه (٣٤٤٦) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٩٧) ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

والمنفعة مع الزينة ، ذلك أن الناس تتزيَّن بما تركب ، تماماً كما يفخر أبناء عصرنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة.

ونَسَق الآية يدلُّ على تفاوت الناس فى المراتب ، فكُلُّ مرتبة من الناس لها مَا يناسبها لتركبه ، فالخيل للسادة والفرسان والأغنياء ، ومَنْ هم أقلّ ما يركبون البغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البغل ، فيمكنه أن يشترى لنفسه حماراً.

وقد يملك إنسان الثلاثة ركائب ، وقد يملك آخر اثنتين منها ، وقد يملك ثالثٌ ركوبةً واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أنْ يستأجر ، ولو ركوبة من أيِّ نوع .

وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً ، بل تأتى من جنسين مختلفين ، وينبهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المطاف ، بل هناك ما هو أكثر ، فقال تبارك وتعالى : ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ⑧﴾ [النحل]

وقد جعل الحق سبحانه البُرَاق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المعجزات قد حدثتْ لأنبياء فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثيرَ من عربات تجرُّها الجياد إلى سيارات وقطارات وطائرات.

ومـا زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخيل ويُربِّيها ويُروِّضها ويُجريها لجمال منظرها ، وإذا كانت تلك الوسائل من

المواصلات التى كانت تحمل عنّا الأثقال ، وتلك المخترعات التى هدانا الله إياها ، فما بالنا بالمواصلات فى الآخرة ؟

لا بُدَّ أن هناك وسائلَ تناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاع غير موجود فى الدنيا.

فلو أن القرآن ذكر الخيل والبغال والحمير فقط من وسائل المواصلات ولم يَقُلْ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾[النحل] ثم ظهرت وسائل مواصلات غير الخيْل والبغال والحمير مثل العربة الحنطور ، ثم السيارة ، ثم الطائرة والصاروخ ..إلخ.

لو لم يَقُلْ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾[النحل] لتشكّكَ الناس عند ظهور وسائل مواصلات جديدة لم تكُنْ معروفة عند نزول القرآن الكريم ، ولكن الحق سبحانه الذى يعلم ما سيحدث فى الكون حتى قيام الساعة ذكر ذلك فى كتابه قبل أنْ توجد أيٌّ من هذه الأشياء.

وقال الحق سبحانه : ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ⑫ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑬ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ⑭﴾ [الزخرف]

والفُلْك هى السفن والمراكب فى البحار والأنهار ، والأنعام التى نركبها كالخيل والحمير والجمال ، كلها نركبها وتحمل أثقالنا إلى مكان لا يمكن أنْ نصله إلا بشقِّ الأنفس.

قال الحق سبحانه و تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ ⑦﴾ [النحل]

ويقول فى آية أخرى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام]

والحَمُولة هى التى تحمل ، والذى تحمله فوق ظهرها يسمى «حُمُولة» ؛ ولذلك نقول عن السيارة التى تنقل «حمولة كذا طن» والإبل نحمل عليها الرحال وكل متطلباتنا.

فهى تعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنًّا هذه المشقات ، وتُبلغنا غاياتنا بدون تعب ، فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية ، وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل.

وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ، فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تُحدِثه من عوادم تُسبِّب فساد الهواء ، وتُلوِّثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض.

إذن : فصناعة السيارات إنْ لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حَمْل البضائع ونتخلّص مما تُسبِّبه من ضرر ، وهكذا نعرف أن الحكمة هى : وَضْع الشىء فى موضعه المفيد فائدةً دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ومن نعمة الله سبحانه أنْ خلق لك هذه الأنعام لتركبها فى سفرك بعد أنْ كنت تمشى على رِجْلَيْك وتحمل الأثقال ، أصبحت هذه الأنعام تحملك وتحمل أثقالك ، فكان يجب أن تشكر الله على هذه النعمة.

والأنعام خلق الله لها أربعة قوائم ، حتى تكون ثابتة ، وكذلك السفن

تحتاج إلى أربعة أشياء: السفينة نفسها ، والبحر ، والهواء الذى يسيرها ، والطاقة التى تُحركها.

فأنت ترى هذه النعم كلها عندما تركب السفينة ، فكان عليك أنْ تذكر نعمة الله وتشكره عليها ، وحين نذكر نعمة الله علينا نُجيبه بقولنا : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف]

النبى ﷺ علَّمنا أن نقول هذا عندما نركب أيَّة دابة تسير على الأرض ، أو سفينة تسير فى البحر ، كما علَّمنا الحق سبحانه أنْ نذكره عند مباشرة أىِّ عمل جديد.

ولذلك ؛ علَّمنا شيئاً آخر بالنسبة لركوب السفن ، وهو أن نقول :﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴿٤١﴾﴾ [هود]

فجريانها إنما يتم بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها باسمه سبحانه ، ولذلك يُقال «كل شىء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر[1] »[2]؛ لأنك حين تُقبل على فعل شىء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإنْ كان الفعل عضلياً فهو يحتاج لقوة ، وإنْ كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر ورَوِيّة وأَنَاة ، وإنْ كان فعْلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإنْ كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على

(١) البتر : استئصال الشىء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر . والبتر أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الخير [لسان العرب ـ مادة : بتر، القاموس القويم ١/ ٥٤].

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : «كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عزوجل فهو أبتر ـ أو قال: ـ أقطع».

القوة ، فقد تقول «باسم الله القوى القادر» ولكى تحصل على عِلْم تقول «باسم العليم» ، وتريد الغنى فتقول «باسم الغنىّ».

وحين تحتاج إلى الحِلْم تقول «باسم الحليم» ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة تقول «باسم القهار».

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذى يُغْنى عن كل ذلك أنْ تنادى ربك وتتبرَّك باسم واجد الوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كُلُّ صفات الكمال والجلال.

وإياك أنْ تتهيَّب أو تستحى ، بل ادخل على كُلِّ أمر باسم الله ، حتى لو كنتَ عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم.

وهناك فَرْق بين «بسم الله» الذى نستعين به على ما لا قدرةَ لنا عليه ؛ لأن الله هو الذى سخَّر كُلَّ ما فى هذا الكون وجعله يخدمنا ، وبين «الحمد لله» فإنَّ لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا.

والتسبيح والتحميد والتكبير عند الركوب هو أمر وجَّهنا رسول الله ﷺ له ؛ لنقوم لله سبحانه بحقِّ الشُّكْر والثناء عليه سبحانه ، فلا نكفر نعمته علينا ، ولا نجحد فضله أنْ سخَّر لنا هذه الأنعام والدواب ، ومَا لا نعلمه من وسائل انتقال يمُنُّ الله علينا بها بتقدُّم العلم وحركة الابتكار والاختراع.

فنقول «الحمد لله ، سبحان الذى سخر لنا هذا».

«سبحان الله» تنزيه لذاته سبحانه أنْ يكون له شريك ، لا فى الذات ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الصفات ، والحمد لله كذلك ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شُكر على العطاء.

والحَمْد يشترك معه فى المعنى العام : الثناء والشكر والمدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربتْ فى المعنى العام ، فلكُلٍّ منها معناه الخاص ، وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنْعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأنْ يُسدى لك إنسانٌ جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه.

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فَرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح مَا لا يعطيك شيئاً ، كأنْ تمدح مثلاً الشيء الجميل لمجرد أنه أعجبك.

فقول «الحمد لله» بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكلِّ شيء ، حتى إن حمدك لأىِّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو - إذا سَلْسَلْتَه - حَمْدٌ لله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أنْ يُحسن إليك.

فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدَّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلْتَ الحمد لأىِّ إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة «الحمد لله» هذه هى الصيغة التى علّمنا الله أنْ نحمده بها، وإلاَّ فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلفَ الخَلْق فى الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء ، وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيىِّ والأمىّ ، فتحمّل الله عنَّا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكلُّ يقولها «الحمد لله» ، البليغ يقولها ، والعَيىُّ يقولها ، والأمىّ يقولها.

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويُثنى عليه «سبحانك ، لا نُحصِى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» (١).

فإنْ أردنا أنْ نُحصِى الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقول ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله.

إذن : فاستواءُ الناس جميعاً فى «الحمد لله» نعمة كبرى فى ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علَّمنا من الحمد لله بالحمد لله ، وهكذا ، لو تتبعتَ الحمد لوجدته سلسلةً لا تنتهى ، حَمْد على حمد على حمد على حمد ، فيظلّ الله محموداً دائماً ، ويظلّ العبد حامداً إلى مَا لا نهاية.

وتسبيح الله تنزيهه تنزيهاً مُطلقاً ، أنْ يكونَ له شبيه أو مثيل فيما خلق، فلا ذاتٌ كذاته ، ولا صفاتٌ كصفاته ، ولا فى أفعاله ، فليس فى أفعال خَلْقه ما يُشبه أفعاله تعالى.

فإنْ قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتىٌّ فيه سبحانه.

فكلمة «سبحان» تنزيه وتعجُّب من قدرة الله.

ولو تأملنا كلمة «سبحان» نجدها فى الأشياء التى ضاقت فيها العقول ، وتحيَّرتْ فى إدراكها ، وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦/ ٥٨ ، ١٢٠) ، ومسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالأزواج أى : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر فى النبات، وفى الإنسان ، وقد فسَّر لنا العلم الحديث قوله ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] بما توصّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى.

ومنها قوله :﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم]

فمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحلُّ الظلام محلَّ الضياء ، أو الضياء محلّ الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أنْ يقولَ : سبحان الله.

ومنها قولنا :«سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» عند ركوب الدابة.

فهذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وحتى لا يغترّ الإنسان بالإمكانات التى أعطاها الله له عند ركوب هذه الأشياء المسخَّرة له ، ذكَّره الله بالرجوع ، فعلَّمه أن يقول فى تكملة الدعاء:

«وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون»

أىّ : لا تغترّ بأن أشياء حملتْك وأراحتْك ، واشكر الذى سخّرها لك ، واعلم أن عودتك ومرجعك إليه ، فربما غرقت السفينة ، أو مرضت الأنعام ، وعجزت عن السير .

وكلُّ شيء من وسائل الانتقال هذه جعل الله له آفة ، ففى السفن قال

تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس]

فلم يحمدوا الله على هذه النعمة ، ولكن فرحوا واغتروا ، فجاءها الريح العاصف ، وعند الخطر يتذكّر الإنسان ربّه.

وربنا هو الذى علَّم الإنسان صناعة السفن، فسيدنا نوح عندما أخذ يصنع السفينة كان الناس يسخرون منه ، وعلَّمه الله كيف يصنعها ، قال سبحانه و تعالى :﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا (٣٧)﴾ [هود]

فالفكرة الأولى لصناعة السفن منه سبحانه ، والأنعام من مخلوقاته ، والأنعام أقوى من الإنسان ، فالحمار أقوى ، والفرس أقوى ، والجمل أقوى ومع ذلك ذلَّلها الله لنا وسخَّرها.

ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى :﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢)﴾ [يس]

فلو أن الله لم يُذللها لنا ما استطعنا أنْ نقربها أو نستفيد منها ، ولذلك نقول : إن الولد الصغير كان يقود الجمل الضخم ، ويُمسك بزمامه ، والجمل يسير وراءه طائعاً مستسلماً ، وكذلك باقى الأنعام ، وهذا موجود فى الريف حتى اليوم.

بينما تجد أضعف شيء وهو البرغوث يُقلق منامك ويحرمك من الراحة ، ولا تستطيع أنْ تُمسكه ولا أنْ تنتقمَ منه ؛ لأنه غير مُسخَّر لك ، كذلك أصغر ثعبان يمكن أنْ يثير الفزع بين الناس ؛ لأنه غير مُسخَّر للإنسان .

فلا بُدَّ أنْ يتذكر الإنسان نعمة الله عليه فى أنه لا يقدر على الشيء ،

ولكن الله ذلَّله له وسخَّره لخدمته ، وإذا أردْنا أنْ نُدرِّب هذه الحيوانات ونُروِّضها لأداء أغراض معينة تستجيب وتتعلّم.

ومعنى « وما كنا له مقرنين» أي : مُطيقين . أي : أننا لا نقدر عليه.

وإذا كنتَ قد قُلْت «باسم الله» قبل الركوب ، ثم حمدْتَ الله بعد أن استويتَ على ظهر الدابة راكباً ، ثم سبَّحْتَ الله تنزيهاً له وتعجباً من قدرة الحق سبحانه أنْ سخَّر لك هذا وهيَّأه لك ، فعليك أنْ تُكبِّر الله فتقول «الله أكبر».

فلا بُدَّ أن تكبِّر الله وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت في أيِّ عمل فقُلْ : الله أكبر من عملي ، وإنْ ناداك وأنت في حضرة عظيم ، فقُلْ الله أكبر من أيِّ عظيم ، كبِّر تكبيراً بأنْ تقدم أوامره ونواهيه على كُلِّ أمر ، وعلى كُلِّ نَهْي.

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أيِّ شيء ، فاجعل أمره ونَهْيه فوق كل شيء ، وكأن الحق سبحانه يُوجِّهنا أنْ نجعل توجهنا لله من بداية ما نضع أقدامنا على وسيلة انتقالنا ، بالبسملة والحمد والتسبيح والتكبير ، ثم توحيده والاعتراف والإقرار بأننا قد ظلمنا أنفسنا ، فلنطلب المغفرة من الله ؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله.

ولذلك يقول تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء]

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق جعلهم أهل أغيار ؛ لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه سبحانه شرع التوبة للمذنب حمايةً للمجتمع من استشراء شَرِّه ، فلو خرج كُلُّ مَنْ ارتكب ذنباً من

رحمة الله فسوف يعانى المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمةً مُستطيرة الشر على المجتمع.

إذن: فالتوبة من الله ، مشروعيةً وقبولاً ، إنما هى حماية للبشر من شراسة مَنْ يصنع أول ذنب ، وهكذا جاءت التوبة لتحمى الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة.

ولذلك يعجَب رَبُّ العزة سبحانه من عبده هذا الذى يعلم أن الله وحده هو الذى يغفر الذنوب ، ومع ذلك يُذنب ؛ ولذلك يقول رَبُّ العزة فى حديثه القدسى:

«علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

فمَنْ يظلم نفسه بالذنوب هو مَنْ نسى الله ، فالمذنب الذى يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه لا يكون اللهُ على باله ، لأنه لم يَرَ الله ، ولم يَرَ جزاءه وعقابه فى الآخرة ماثلاً أمامه ، ولو تصوَّر هذا لامتنع عن فِعْل الذنب.

فلا يجوز للإنسان أنْ يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة ؛ لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)﴾ [النساء]

هذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس :«فى سورة النساء ثمانى آيات خير لهذه الأمة مما طلعتْ عليه الشمس أو غربت»[1].

وهى خَيْر مِمَّا طلعتْ عليه الشمس ؛ لأنها تحمى من حُمْق الاختيار الذى

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٤٤٨) وعزاه لابن جرير من طريق صالح المرى عن قتادة عن ابن عباس قال :«ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت».

وُجِد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسـان كان مُسيَّراً ومُكْرهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار.

فهذه الآيات طمأنتْ الإنسان على أنه إنْ حَـمُق اختياره فى شىء ، فالله يريد أنْ يُبـصِّره ، والله يريد أنْ يتـوب عليه ، والله يريد أنْ يُخـفِّف عنه ، والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويُكفِّرها.

ولكن بشـرط أنْ لا يكونَ عندنا إصـرار على الصغـائر ، لماذا ؟ لأنك إنْ قدَّرْت ذلك فقدِّر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقُلْ : سأفعل الذنب ثم أستغفر، هذه لا تضمنها ، وأيضاً تكون كالمستهزىء بربِّه.

٤٣ بَيْتُ الحَمْدِ

قَالَ رسُولُ الله ﷺ :«إذَا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ قالَ اللهُ لملائكته : قبضتُم ولَدَ عبْدِي؟ فيَقُولُونَ : نَعم

فيقولُ ربُّ العزَّةِ : قبضتُم ثمرةَ فُؤادي؟

فَيَقُولونَ : نَعم.

فَيَقُولُ : ماذَا قَالَ عَبْدِي ؟

فَيَقولُونَ : حَمِدَكَ واسْتَرجَعَ.

فَيقُولُ اللهُ : ابْنُوا لِعبْدِي بيْتاً في الجنةِ ، وسَمُّوه بيْتَ الحَمْدِ» (١) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت]

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدْق الإنسان حين يُعلن الإيمان ، إنه سبحانه يختبرهم بالمحن والنِّعم ، ويُميِّز أهل الصِّدْق فى الإيمان عن الكاذبين فى الإيمان.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٢١) ، وابن حبان (موارد الظمآن ـ ٧٢٦) من حديث أبى موسى رضى الله عنه ، قال الترمذى : «حديث حسن غريب» . وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١٥) عنه أيضاً بلفظ «قال الله تعالى : يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدى ؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع، قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة ، وسموه بيت الحمد».

فَمَنْ صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صدْقه ويقينه ، ومَنْ لم يصبر فقد دَلَّ بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حَرْف ، فإنْ أصابه خير اطمأنَّ به و رضى ، وإنْ أصابه شَرٌّ وفتنة انقلب على وجهه ونكصَ على عَقبيْه فخسر الدنيا والآخرة.

وذلك مصْداقاً لقوله تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج]

فالابتلاءات لها حكمة ومَغزى ما دامت جاءت من ربٍّ حكيم ، ولم تأتِ من بشر ، فهى قَدَر جرى عليك ، ولم تجرّه أنت على نفسك ، فلا بُدَّ له من حكمة ، فالذى يعبد الله لا بُدَّ أنْ يعبده على أساس أنه إله حكيم يُبتلى بالخير ، ويُبتلَى بالشرِّ ، وما دام عَلِم هذا فسيظلّ إيمانه قوياً.

وهناك مَنْ يعبد الله على حَرْف ، والحَرْف هو طرف الشىء ، كمثل واحد يدخل على جماعة من الناس ، ويجد المكان ممتلئاً بالحاضرين فيجلس على الحَرْف ، والحرْف عادةً لا يكون فيه تمكُّن ، فالذى يجلس عليه لا يأخذ راحته فى الجلوس.

فكذلك الذى يعبد الله على حَرْف يكون غير مُتمكِّن من إيمانه ، فإذا أصابه خير يفرح ويسعد ، ويقول : هذا الإيمان جميل وحُلو وفيه بركة.

وإنْ حدث له ابتلاء أو فتنة تجده يسبُّ ويسخط ، فهذا عبادته غير مُتمكِّنة باليقين الذى يصدر عن الإنسان المؤمن بإله حكيم يجرى على عبده الخير له.

أما الآخر فيـعبد الله على حَرْف ، فإنْ أتاه خيـر فرح واطمأن ، ومضى فى إيمانه ، وإنْ حـدث له ابتلاء أو شَرٌّ انقلب على وجـهه ، فمَنْ لم يصـبر وانقلب وضعه وتغيَّرتْ أحواله إلى الأسوأ يكون قد خسر الدنيا والآخرة ؛ لأن عبادته لم تَعُدْ تنفعه.

بل إنه يخسـر خُسْـراناً مبيناً ، وهو الخُسْران الذى لا يُعـوَّض ، فالذى يخسـر الدنيا قـد يكسب الآخرة بالصـبر والرضـا ، ولكن الذى يخسـر الدنيا والآخرة فهذا هو الخُسْران المبين الذى يُطوِّق صاحبه ، ولا يمكن تعويضه.

ولذلك يقول رسـول الله ﷺ :«عجبـاً لأمر المؤمـن ، إن أمره كله له خيـر ، إنْ أصابته سـرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصـابته ضرَّاء صـبر فكان خيراً له ، وليس هذا إلا للمؤمن»(1) .

فكُلُّ ما كـتبه الله هو لصـالح المؤمنين به ، إما أدباً ، وإمّـا ثواباً ، وإما ارتقاءً فى الحيـاة ، ولذلك فهو خيـر ، ويعلم المؤمن أن كل مصيبـة فى الدنيا إنما يجـزيه الله عليهـا حُسْن الجـزاء ، ويستـقبل هذا المؤمن قـضاءَ الله تعـالى بنفـس راضـية ؛ لأن ما يصـيبه قد كتـبه الله عليه ، وسوف يوافيـه بما هو خير منه ، وهناك بعض المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء.

إذن: فالمؤمـن كلُّ أمره خَيْـر ، وإياك أن تنظر إلى مَنْ أصـابته الحيـاة بأية مصيبة على أنه مُصَابٌ حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو مَنْ حُرِم من الثواب .

وهكذا نجد أن المؤمـن يحتاج إلى أمـرين : صبرٍ على مـا يؤلم ، وشكرٍ على ما يُرضى ، وحين تجتمع هاتان الصفتان فى مؤمن يكون مكتمل الإيمان.

---

(1) أخرجـه مسلم فى صحيـحه (٢٩٩٩) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صـهيب الرومى . وأخرج أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) من حديث أنس بن مـالك رضى الله عنه قال: قال ﷺ :«عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيراً له».

هنا يُقبل المؤمن على تحمُّل مشاقِّ الإيمان ؛ لأنه يثق فى أن الحق سبحانه لا يُضيع أجْرَ مؤمن ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم.

إذن : عليك أن تدخل على الإيمان وأنت مؤمن بحكمة ربك فى كل ما يُجريه ، سواء كان نعيماً أو بُؤْساً ، فإنْ كان نعيماً فأنت سعيد به شاكر لربك عليه ، وإنْ كان بُؤْساً علمت أن لله حكمة فيه.

فصدْق إيمانك متُوقِّف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك ، فإنْ آمنت وأسلمتَ وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وُجدَتْ صفات الإيمان فى إنسان نقول له : لقد صدقْتَ فى إيمانك ؛ لأن حركة حياتك انسجمتْ مع واقعك الإيمانى ، وما أكثرَ الناس الذين يقولون ولا يفعلون وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

هناك أُنَاسٌ كثيرون عندما يعطيهم الله نعمة يقولون «ربنا أكرمنا» وعندما يسلبهم النعمة يقولون «ربنا أهاننا».

فأنت مخطىء يا مَنْ اعتبرتَ النعمة إكراماً من الله ، وأنت مخطىء أيضاً يا مَنْ اعتبرتَ سَلْب النعمة إهانة من الله ، إن النعمة لا تكون إكراماً من الله إلا إذا وفَّقكَ الله فى حُسْن التَّصرُّف فى هذه النعمة ، ولا تكون النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله فى أداء حَقِّ النعمة ، وحَقُّ النعمة فى كل حال يكون بشُكْر المنعم ، وعدم الانشغال بها عَمَّنْ رزقك إياها.

إذن : مجيء النعمة في ذاتها ليس إلا اختباراً ، وكذلك إن ابتلاك الله بسلب النعمة ليس هذا للإهانة ، ولكنه للاختبار أيضاً.

فالخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير في خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به ، وحين تصبر على الشر ، ولا تتمرد على قَدَر الله ، فهذا كلُّه اختبار من الله عز وجل.

يقول الحق سبحانه : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (٣٥)﴾ [الأنبياء]

وكلامُ الله حَقٌّ ، يقول سبحانه في قرآنه:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة]

فتكون لنا البُشْرى ؛ لأننا صبرنا على كُلِّ هذه المنغِّصات : صبر على الخوف ، وصبر على الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقْص الأنفس ، وصبر على نقْض الثمرات.

فالمهم أن ينجح المؤمن في كُلِّ هذه الابتلاءات حتى يواجه الحياة صَلْباً ، ويواجه الحياة قوياً ، ويعلم أن الحياة مَعْبَر ولا يشغله المعبر عن الغاية ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة]

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثواب عليها ، وأي أمر يصيب الإنسان إمَّا أنْ يكون له دَخْلٌ فيه ، وعند ذلك لا يصحّ أنْ يجزع ؛ لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإمّا أنْ تكون مصيبة لا دَخْل له بها وحدثتْ له من غيره مثلاً ، وعند ذلك عليه أنْ يبحث عن سببها : أَعَدْلاً أم ظُلْماً ؟

إنْ كانت عَدْلاً فهى قد جبرتْ الذنب ، وإن كانت ظُلماً فسوف يقتصُّ الله له ممَّنْ ظلمه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كِلتَا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كُلَّ مصيبة متوقعاً أنْ يأتى له منها خَيْر ، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيِّم نفسه تقييماً حقيقياً.

هل لى على الله حق؟ أنا مملوك لله وليس لى حق عنده ، فما يُجرِيه علىَّ فهو يُجريه فى مُلكه هو .

ومَنْ لا يُعجبه ذلك فليتأبَّ على أىِّ مصيبة ، ويقول لها «لا تصيبينى» ولن تستطيع دَرْء أىِّ مصيبة ـ وما دُمْنا لا نستطيع أنْ نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعزَّنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون».

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا ، فنحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إنْ كان فى مصائب الدنيا ظُلْم لنا وقع علينا من إنسان فسوف نأخذ ثوابَ مَا ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله .

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسيْن ، الابتداء والانتهاء ؛ ولذلك علَّمنا رسول الله ﷺ عند أىِّ مصيبة تصيب الإنسان أنْ يسترجع ، أىْ أن يقول :«إنَّا لله وإنا إليه راجعون»

وزادنا أيضاً أن نقول :«اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها» إنك إذا ما قلتها عند أىِّ مصيبة تصيبك فلا بُدَّ أن تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها ، وحتى إنْ نسى الإنسان أنْ يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكَّرها وقالها فَلَهُ جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

وهناك قصة عن أم سلمة رضى الله عنها ، حين مات أبو سلمة زوجها - وكان ملء السمع والبصر - وجزعتْ عليه أم سلمة ، فقيل لها قولى : ما علَّمنا رسول الله ﷺ ، قالت : وما علَّمكم؟ قالوا : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجُرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها» فقالت ما قيل لها ، فإذا بها بعد انقضاء عدَّتها يذهب إليها النبى خاطباً ، فقيل لها :« أوُجِد خير من أبى سلمة أم لم يوجد ؟ قالت : ما كنت لأتسامى - أى أتوقع - مثل هذا الموقف» (١).

إذنْ : كُلُّ مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها :« إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها ».

وما هذا إلا لليقين فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة]

وهكذا تردّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ، فقد يحدث لى شىء أكرهه ، ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فهناك أحداث تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه ، فالإنسان لا يُربِّى إلا مَنْ يحب ، أما مَنْ لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بُحبِّ الخالق لنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم»(٢).

ويقول ﷺ أيضاً :«أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢١) من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد ولفظه : «إن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع» وأخرجه الترمذى (٢٣٩٦) ، وابن ماجة فى سننه (٤٠٣١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، ولفظه :«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط».

الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلَى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة »[1] .

فالمصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، لأن المؤمن حين يُصاب إما أن يُكفِّر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به.

يقول ﷺ :«ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة»[2].

ولذلك يقال : إن المصاب ليس مَنْ أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو مَنْ حُرِم الثواب.

فإن استقبل المؤمنُ المصيبةَ بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإنْ لم يعلمه ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف ، أما غير المؤمن فهو يتمرَّد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحرم من الثواب .

وفى حديث آخر يقول رسول الله ﷺ :«المصاب مَنْ حُرِم الثواب».

فالذى يُحْرم من ثواب الله هو المصاب فعلاً ، أما الإنسان الذى تحدث له مصيبة ويصبر عليها وينال على صبره ثواب الله ، فهذا ليس مصاباً.

والمصيبة قد تكون بسبب مرض أو وفاة شخص عزيز ، أو أى شىء يحدث لك دون تدخُّل من أحد ، فى هذه الحالة يكون الصبر عليها أسهل من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٧٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) ، وابن ماجة فى سننه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال :«حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) ، والترمذى فى سننه (٩٦٥) من حديث عائشة رضى الله عنها ، قال الترمذى :« حديث حسن صحيح».

الصبر على مصيبة حدثتْ بسبب غريم لك ، ضرب ابنك أو أصابك بمكروه ، أو تسبَّب فى إيقاع الضرر بك.

فى هذه الحالة يتأجَّج فى النفس سُعَار الانتقـام ، ويكون الصبر صَعْباً ، ويحتاج إلى عزيمة قوية وإيمان راسخ.

والولد من النعم التى يُنعِم الله بها على الإنسان ، فكلُّ إنسان يرجو من الله أنْ يكونَ له أبناء ذكوراً وإناثاً ، فيشعر بالسرور والسعادة.

فالإنسان يحب الولَد ويسعى إليـه ؛ لأنه ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحب أنْ يكونَ له امتداد فى الدنيا وذكر من بعده ، فالإنسان يتمسّح فى الدنيا حتى بعد مـوته ، وهو لا يدرى أنَّ ذِكْر الإنسان لا يأتى بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح.

والإنسان تجده يحب البنين من الأولاد أكثر ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ [1] **وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾** [آل عمران]

فنجد الحق سبحـانه يضيف «البنين» إلى مجال الشهـوات ، ويقصد بها الذُّكْران ، ولم يقُلْ البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعزْوة كمـا يقولون ، ولا يأتى منهم العار ، وكـان العرب يئدون البنات ويخـافون العـار ، والمحبـوب لدى الرجل فى الإنجـاب حتى الآن هو إنجـاب البنين ، حتى الذين يقولون بـحقوق المرأة ويُنادون بها ، سواء كـان رجلاً أو امرأة إنْ لم يرزقه الله بولد ذكر ، فإنه ـ أو إنها ـ تريد ولداً ذكراً.

(١) الخيل المسوَّمة : أى المرسلة للرعى أو المعلَّمة بعلامات [القاموس القويم ١/ ٣٣٧].

والمال والبنون همـا الشغل الشـاغل لكل الناس ، فكل واحـد يريد أن يكون غنيـاً وعنده أولاد ، وتجده مـشغـولاً ومهمـوماً بسـبب ذلك ، ولذلك يقول تعالى :﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]

فالمال والبنون من زينة الحياة الدنيا وزخـرفها ، أى ليسا من ضروريات الحيـاة ، فهـو مجرد شكل وزخـرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسم لـه يعيش حـياته سـعيـداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسـان قد يشـقى بماله ، أو يشقى بولده ؛ لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزق هذا المال أو هذا الولد.

والمال والبنون ليس كـلاهما شراً للإنسـان ، بل قد يكونان خـيراً له ، فالمال إذا جمعتَه من حلال و أنفقتَهُ فى الخير يكون مَقْرُبة لك عند الله.

وكذلك الأولاد إذا ربَّيْتَهُم تربية حسنة ونشَّأتَهم على طاعة الله والعمل الصالح فى المجتمع ، فهذا خير لك فى الدنيا والآخرة.

ولهذا المعنى قـال رسول الله ﷺ :«إذا مات العبـد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»[1].

فهذا الإنسان يُعطى عـمره عُمْقاً وامتداداً ، حتى بعـد موته ، فبدلاً من أن يعمل لمجرَد حياته وينتـهى عمره مهما كانت رُقعتـه واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ، ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته .

ولذلك طلب زكريا ـ عليه السـلام ـ الولد ، فقال تعالى :﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٦٣١) ، والترمذى فى سننه (١٣٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال الترمذى :«هذا حديث حسن صحيح».

إنه هنا يطلب الولد ، ولكن لا بُدَّ لنا أنْ نلاحظَ ما يلى:

هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عزْوة ، أو ذكْراً ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾ {مريم}

والمراد بالميراث هنا : ميراث العلم والنبوة والمُلْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، فزكريا ـ عليه السلام ـ طلب الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض ، لقد طلبه لمهام كبيرة .

إنه يضع كلَّ أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يا ربّ من فور أنْ تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يا رب تعلم صدْق نيتى فى أننى أريد الغلام. لا لشىء من أمور كقرة العين ، والذِّكْر والعزِّ وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثاً لى فى حَمْل منهجك فى الأرض .

وجاءته البُشْرى وهو يقف بين يدى الله مُصَلِّياً ، قال تعالى: **﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ㊴﴾** {آل عمران}

لقد نادته الملائكة فى أورع لقاءاته مع ربه.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ أيضاً دعا ربه فقال : **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ⑩⑩﴾** {الصافات}

فقد عَزَّ عليه أن عمره لا يتسع حتى يكون جندياً من جنود بَعْث منهج الله فى الأرض ، فقال : يا ربِّ نحن سنموت ، فأدعوك أنْ تقرَّ عينى بغلام يأتى بعدى ليقوم بهذا العمل ، فحين يتمنى رسل الله من الله خِلْفة ، إياكم أنْ تظنُّوا أنها مثلما نتمنى نحن ، فنحن نريدها ذكرى وعِزْوة ، أما النبى

فيـريد من ابنه أن يكون نموذجاً إيمانيـاً ، يرثه فى حَمْل الفضـائل وتطبيق منهج الله.

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ {الصافات}

والحليم هو الذى لا يسـتفـزه غضب ، ويتـحمّل الأمـور على مقـدار ما تطيب به أخلاق نفسه ؛ لأنه يعلم أنه إنْ كان فى لجاج مع الغير ، عليه ألاّ يزيد فيه ؛ لأن مَنِ امـتنع عن اللجاجِ فى الباطل بنى الله له بيتـاً فى الجنة ، فالحليم يقدر على نفسه ؛ لأنه يعتقد أنه خالقه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (١) قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ {الصافات}

إن الحق سـبحـانه يعطينا نماذج للصـبر على قـضاء الله ، فـالله لا يرفع قـضــاء فى الخلق إلا أنْ يرضـى خَلْق الله بما أنزل الـله ، أمـا الذى لا يقــبل المصائب فهو مَنْ تستمر معه المصائب ، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء.

فـهـا هو ذا سـيـدنا إبراهـيم ـ عليـه السـلام ـ يتلقـى الأمــر بذَبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديدَ القسوة ، فقد كان على إبراهيم أنْ يذبَح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء فى الابتلاء .

ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عُذْراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم

---

(١) أى : كبر وترعـرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وعن ابن عـباس ومجاهد وعكرمة وسـعيد بن جبير وغيرهم، بمعنى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعـمل {قاله ابـن كثيـر فى تفسيره ٤ / ١٤}

يَقُلْ : إنها مجرد رؤيا ، وليست وَحْياً ولكنها حَقٌ ، وقد جاءه الأمر بأهوَن تكليف وهو الرؤيا ، وبأشقٍّ تكليف وهو ذَبْح الابن .

ونرى عظمة النبوة فى استقبال أوامر الحق ، ويُلهمه الله أنْ يُشرِك ابنَه إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

لقد بلغ إسماعيل سِنَّ السعى فى مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر فى المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ، ولم ينشغل بالحقد على أبيه ، ولم يقاوم ، ولم يدخل فى معركة ، بل قال : ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢)﴾ [الصافات]

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا ؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ (١) لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات]

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله ، وأسلم كُلٌ منهما للآمر ، أسلم إبراهيمُ كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعَلِم الله صِدْقهما فى استقبال أمر الله.

وهذا الابتلاء جاء إبراهيم فى آخر حياته ، فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه ، إنه ابتلاء شديد قاسٍ ، لكن إبراهيم يعلم أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يطلب من خَلْقه إلا أنْ يستسلموا لقضائه.

ولذلك ، إذا رأيتَ إنساناً طال عليه قضاء ربه فى أىٍّ شىء ، فى مرض ، فى مصيبة ، فى مال ، أو غير ذلك ، فاعلم أنه لم يرْضَ بما وقع

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض. وقوله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ(١٠٣)﴾ [الصافات]. أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض .[القاموس القويم ١/ ١٠١].

له ، ولو أنه رَضِى لانتهى القضاء ، فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولايستطيع أحد أن يلوى يد خالقه ، إذن : فالناس هم الذين يُطيلون أَمَدَ القضاء و البلاء على أنفسهم.

إن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب أنْ يرضى المؤمن بها ، فتنتهى ومَنْ تحدث له مصيبة بأنْ يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت ، وتبكى الأم كلما رأتْ مَنْ فى مثل سنِّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً ، وإنْ أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا.

وليعلم كل مؤمن أن مَا أُخذ منه هو مُعوَّض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفَّاه مُعوّض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا.

ولذلك يُقال : المصاب ليس مَنْ وقعتْ عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب مَنْ حُرِم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بَخْس.

قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام تُعلِّمك أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله ، إياك أنْ تجزع ، إياك أنْ تسخط ، إياك أنْ تغضب ، إياك أنْ تتمرد ، بل احمد الله سبحانه ، واسترجع أى : قُلْ : إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ولذلك نقول فى الدعاء: أحمدك على كل قضائك وجميع قدرك ، حَمْد الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك.

أى : لك حكمة يا ربِّ فيما أجريتَ علىَّ من أحداث ، ولكنى لا أراها.

فإنْ أردتَ رَفْع القضاء ، فارْض به أولاً ، وإذا لم يُرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضا من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضجراً .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم تَرْضَ ، وحين تُسلِّم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيِّن لك وَجْه الخير فيه .

إذن : عليك أنْ تحترم القدر وترضى به ؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يرفع قضاء الله عن الخَلْق حتى يرضَوا به ، وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله ، خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه.

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أيّ شباب ؟ وأيّة متعة هذه؟ وقد فارق في صغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

إنه في نعيم ، لو عرفتَه لتمنيتَ أنْ تكونَ مكانه ، ويكفى أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص في الجنة ؛ لأنهم طلقاء فيها ، يمرحون كما يشاؤون ، لذلك يُسمَّوْن «دعاميص[1] الجنة[2]».

لذلك ، كان من الغباء إذا مات لدينَا طفل أو غلام صغير يشتد الحزن عليه ، وننعى طفولته التي ضاعت ، وشبابه الذى لم يتمتع به ، ونحن لا ندرى ما أُعِدَّ له من النعيم ، لا ندرى أن مَنْ أُخِذ من أولادنا قبل البلوغ لا

---

(١) الدعاميص : جمع دعموص، وهو الدخّال في الأمور . أى : أنهم سياحون في الجنة دخّالون في منازلهم ، لا يُمنعون من موضع .[لسان العرب ـ مادة : دعمص] .

(٢) عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطَيِّب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم، صغارهم دعاميص الجنة ، يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٥١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يُحدَّد له مسكن فى الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجرى فيها كما يشاء ، ويجلس أيْن يحب ، يجلس عند الأنبياء ، وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد .

لذلك ، نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإن كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطمْنا الخدود وشققنا الجيوب واعترضنا على قدر الله فيه ، فقد خسرنا به الدنيا والآخرة.

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعتبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ حسب قوة الإيمان.

ويصف الحق سبحانه هذا الابتلاء لإبراهيم عليه السلام أنه البلاء المبين ، فيقول:

﴿ إن هذا لهو البلؤا المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧)﴾ [الصافات]

فبعد أنْ رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل ، وسلَّما أمرهما لله تعالى ، وامتثلا للأمر بالقضاء ، رفع الله برحمته هذا القضاء ؛ لذلك يصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذا البلاء وتكرُّمه بالفداء.

وهكذا لم يكُنْ جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط ، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى ـ عز وجل ـ البُشْرى بمزيد من العطاء ، فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات]

أى: أنه لم يرزقه بولد ثان فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً ، وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى :﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾ [الأنبياء]

هكذا يتجلّى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكْره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكلٌّ ذلك نافلة من الله .

أى : عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء.

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

[البقرة]

فكلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنِّعَم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعَم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فَمَن يعشْ فى هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء

٤٤ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ

قَالَ رَبُّ العزة سبحانه:

أَنْفِقْ أُنْفِق عليك.

وقَالَ : يَدُ اللهِ مَلأى ، لاَ تَغِيضُهَا (١) نفقَةٌ ، سَحَاء(٢) الليلِ والنهارِ .

وقَالَ : أرأيتم مَا أنفقَ منذُ خَلَقَ السماءَ والأرضَ ، فإنّه لَمْ يَغِضْ مَا في يَده ، وكانَ عرشُه على الماءِ ، وَبِيدهِ الميزانُ يخفِضُ ويرْفَعُ (٣).

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ (٤) وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾ {البقرة}

---

(١) لا تغيضها : لا تنقصها . وغاض الماء : نقص. وأعطاه غيضاً من فيض : أى: قليلاً من كثير . وغاض ثمن السلعة : نقص . {لسان العرب ـ مادة : غيض}.

(٢) قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (٧/ ٨٤) :«السح : الصب الدائم» . وقال ابن منظور فى {لسان العرب ـ مادة : سحح} : «أي دائمة الصب والهطل بالعطاء ، وقال فى شرح هذا الحديث «يمين الله سحاء» واليمين هنا كناية عن محل عطائه ووصفها بالامتلاء لكثرة منافعها ، فجعلها كالعين الثرة لا يغيضها الاستقاء ولاينقصها الامتياح ، وخص اليمين لأنها فى الأكثر مظنة للعطاء على طريق المجاز والاتساع ، والليل والنهار منصوبان على الظرف».

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨١ ، ٧٤١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٩٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) الخلة : الصداقة الخالصة المتينة التى تخللت القلب. {القاموس القويم ١/ ٢٠٨}.

يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الذين آمنوا وانفعلوا بالإيمان ، فالله يُكلِّف مَنْ آمن به ، لا مَنْ كفر ، يخاطب الذين أصبحوا أهْلاً لمخاطبة الله لهم ، فالإيمان بالله هو حيثية كُلِّ حُكْم ، سواء فهمتَ الحكمة منه أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به ؛ وأنت لا تفهم له حكمة أشدّ في الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته.

إن الحق يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

أي: أنا لا أطلب منكم أنْ تُنفقوا عليَّ ، ولكن أَنْفقوا من رزقي عليكم.

فالرزق يأتي من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك في شيء أو مادة ، هذه الحركة تأتي على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبه من خَلَقه ، والجوارح التي تنفعل ، واليد التي تتحرك ، والرِّجْل التي تمشي خلقها الله ، والمادة التي تفعل بها مخلوقة لله . فأيُّ شيء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك ، إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول: إنه لي. بل أمنحه لك أيها الإنسان ، ولكن أَعْطني حقي فيه ، وحقي لن آخذه لي ، ولكن هو لأخيك المسكين.

يقول الحق تبارك و تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) ﴾ [الذاريات]

وإياك أن تقول : وما دَخْلي أنا بالمسكين؟ عليك أنْ تعلم أنَّ المسكنة عَرَض ، والعَرَض من الممكن أنْ يلحق بك أنت ، فلا تُقدِّر أنك مُعْطٍ دائماً ، ولكن قدِّر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لا أنْ تعطي.

الحق يقول لك: أَعْطِ المسكين وأنت غنيٌّ ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس

أنْ يعطوك وأنت فقير ، فقدَّر حكم الله ساعةَ يُطلَب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة .

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾ {البقرة}

فإياكم أنْ تظنُّوا أننى أطلب منكم أنْ تُعطوا غيركم ، لقد طلبتُ منكم أنْ تُنفقوا لأزيدكم أنا فى النفقة والعطاء.

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) ﴾ {إبراهيم}

فهو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين فى انتظار هذا الأمر لينفذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يجب أنْ يُنفِّذ كُلَّ أمر يأتيه من الله.

والحق سبحانه يأمرنا فى هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يُشيع الحق الإنفاق فى أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق سراً كى لا يقع الإنسانُ فريسةَ المباهاة ، والإنفاق عَلَناً كى يعطى غيره من القادرين أُسْوة حسنة ، ولكى تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير.

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سراً ، واجعلها كما قال النبى ﷺ : «لا تعلم شمالك ما أنفقتْ يمينك» (١) .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلم الناس أنك تؤدى ما عليك من حقوق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٣٩) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٣١) ، والبخارى فى صحيحه (٢/ ١٤٣ ـ ١٢ / ١١٢ ـ فتح البارى) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقد وقع فى لفظ مسلم مخالفاً لكل روايات الحديث « حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ».

الله ، وتكون بالنسبة لهم أُسْوة فعلية ، وعظَة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عظَة سلوكية .

ولكن لا بُدَّ أنْ ننفق مما نحب ، ومن أفضل ما عندنا ، لا من الخبيث منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ[1] مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ [البقرة]

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكَسْب الطيب الحلال ، فلا تأتى بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً ، فالحق سبحانه يحذرنا من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه لقوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا [1] الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ [البقرة]

أى: لا يصح ولا يليق أنْ نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب ، ونعطى الله رديء الكسب وخبيثه ؛ لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أنْ يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لينفق منه أو ليأكله.

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ.. (٢٦٧)﴾ [البقرة]

أى: أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أنْ تأكلَ من الخبيث إلا إذا أغمضتَ عينيك ، أو تَمَّ تنزيل سعره لك ، فمثل هذا لو أُعْطى لك لَماَ قبلتهُ

(١) لا تيمموا: لا تقصدوا خبيث المال ورديئه لتنفقوا منه فى سبيل الله. (القاموس القويم ٢/ ٣٧٢).

إلا أنْ تُغمض عينيك ، وتتسامح فى أخْذه ، وكأنك لا تبصر عَيْبه لتأخذه ، فما لم تقبله لنفسك فلا يصح أنْ تقبله لسواك.

ويعطينا الحق سبحانه لقطة أخرى فى أدب الإنفاق ، فيقول تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾ [البقرة]

فمن الأدب الإيمانى فى الإنسان أن ينسى أنه أهدى ، وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير ، أو تصدّقه عليه ، وخاصة الصِّغار الذين لا يفهمون حكمة الله فى الأشياء.

فعندما يعرف ابنى أننى أعطى لجارى كذا ، ربما دَلَّ ابنى ومَنَّ على ابن جارى ، ربما أخذه غروره فعيَّره هو .

فإياك أنْ تُتبع النفقة مَنّاً أو أذىً ؛ لأنك إن أتبعتها بالمنِّ ، فسيكرهها المعْطَى الذى تصدقتَ بها عليه ويتولد عنده حقْد وبُغْض؛ ولذلك حينما قالوا «اتقِّ شرَّ مَنْ أحسنتَ إليه» شرحوا ذلك بأن اتقاءَ شَرِّ ذلك الإنسان بألاَّ تُذكِّره بالإحسان ، لأن ذلك يُولِّد عنده حقْداً.

والحق سبحانه سيأتى بنتيجة النفقة بدون مَنٍّ أو أذى بما يفرح له قلب المؤمن ، إما بالبركة فى الرزق ، وإما بسَلْب المصارف عنه ، فهم تصدَّقوا. وسيأتيهم الحق سبحانه بما يُفرحهم ويشرح صدورهم ويبهج قلوبهم ، إما بسرعة الخُلْف عليهم ، أو برضى النفس ، أو برزق السَّلْب .

فآفة الناس أنهم ينظرون إلى رزق الإيجاب دائماً أى : أن يقيس البشرُ الرزقَ بما يدخل لهم من مال ، ولا يقيسون الأمر برزق السلب ، ورزق السلب هو محطُّ البركة.

هَبْ أن إنساناً راتبه خمسون جنيهاً ، وبعد ذلك يسلب الله منه

مصارف تطلب منه مائة جنيه ، كأنْ يدخل فيجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة ، فيرزق الله قلب الرجل الاطمئنان ، ويطلب من الأم أنْ تُعدّ كوباً من الشاى للابن ، ويعطيه قُرْصاً من الأسبرين ، وتذهب الوعكة وتنتهى المسألة.

ورجل آخر يجد ولده مُتْعباً وحرارته مرتفعة ، وتستمر الحرارة لأكثر من يوم ، فيقذف الله فى قلبه الرُّعْب ، وتأتى الخيالات والأوهام عن المرض فى ذهْن الرجل ، فيذهب بابنه إلى الطبيب فينفق خمسين أو مائة من الجنيهات.

الرجل الأول أبرأ الله ابنه بقرش ، والثانى أبرأ الله ابنه بجنيهات كثيرة ، إن رزق الرجل الأول هو رزْق السَّلْب ، فكما يرزق الله بالإيجاب فالله يرزق بالسلب . أى : يسلب المصرف ، ويدفع البلاء.

والله فَضْله واسع ، وعطاؤه لا حدودَ له ، ولذلك يقول رب العزة سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فالإنفاق فى سبيل الله يردُّه الله مضاعفاً ، وما دام الله يضاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تحزن ولا تخَفْ على مالك ؛ لأنك أعطيتَهُ لمقتدر قادر واسع عليم.

إنه الحق الذى يقدر على إعطاء كل واحد حَسْب ما يريد هو سبحانه ، إنه يعطى على قَدْر نية العبد وقَدْر إنفاقه.

وهذه الآية تعالج قضية الشُّح فى النفس الإنسانية ، فقد يكون عند الإنسان شيء زائد ، وتشحُّ به نفسه ويبخل ، فيخاف أنْ ينفق منه فينقص هذا الشيء.

وهنا تقول لك قضية الإيمان: أنفق ، لأنه سبحانه سيزيدك ، والحق

سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التي تزرعها ، أنت تضع الحبة الواحدة ، فهل تعطيك حبة واحدة ؟ لا ، إن حبة القمح تعطي كمية من العيدان ، وكل عود فيه سنبلة ، وهي مشتملة على حبوب كثيرة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه ، أفَلا يضاعف العطاء لك الذى خلقها ؟

وإذا كان بعض من خَلْق الله يضاعف لك ، فما بالك بالله جَلَّ وعلا؟

إن الأرض الصَّماء بعناصرها تعطيك ، أئذا ما أخذتَ كيلة القمح من مخزنك لتبذرها في الأرض أيُقال : إنك أنقصتَ مخزنك بمقدار كيلة القمح ؟ لا ؛ لأنك ستزرع بها ، وأنت تنتظر كم ستأتى من حبوب ، وهذه أرض صَمَّاء مخلوقة لله ، فإذا كان المخلوق لله قد استطاع أنْ يعطيك بالحبة سبعمائة ، ألاَ يعطيك الذي خلق هذه الأرض أضعافَ ذلك ؟

إنه كثير العطاء ، وعطاؤه سبحانه غير مقطوع ولا ممنوع ، فالمنفقون أجرهم عند الله أضعاف مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ، ولكنه بقدرة الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]

فالحق سبحانه عنده من السَّعَة ما يعطى الكل ، وسبحانه واسع عليم، والحديث القدسى يقول : يا عبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِل البحر. يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أُوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن

وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [1] .

إذن : فخزائن الله مَلأى ، لا تنفد ، وسعة الحق مطلقة ، وهو سبحانه يرزق بغير حساب ؛ لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق ؟

يرزق بغير حساب ؛ لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطي بطلاقة القدرة ، فخزائنه لا تنفد .

إن قدرته - جل وعلا - تتسع لعطائنا جميعاً دون أن ينقص شيء من عنده ، فهو عطاء مَنْ لا ينفد ما عنده ، فهو يعطيك ويعطي الآخرين ، ولا ينقص مما عنده شيء.

والمؤمن يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أنْ يعطي الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا غُمِس في البحر .

(1) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) ، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر ﷺ .

٤٥ أَذِّنْ وَعَلَىَّ البَلاَغُ

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال (١) :

«لَمَّا فَرَغَ إبْراهِيمُ مِنْ بناء البَيْتِ قَالَ : رَبِّ قَدْ فرغْتُ . فقال : أَذِّنْ فى النَّاسِ بالحجِّ . قال : رَبِّ ومَا يبلُغ صوْتى ؟

قال : أذِّنْ وعلَىَّ البَلاَغُ.

قال : رَبِّ كيْفَ أقُولُ؟

قال : يَأيُّهَا النَّاسُ ، كُتبَ عليكم الحجُّ . حَجُّ البيْتِ العتَيق.

فَسَمِعَه مِنْ بين السَّماء والأرْض، ألاَ تَرى أنهُمْ يجيئُونَ مِنْ أقْصَى الأرْضِ يُلَبُّونَ؟

يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾

[آل عمران]

فإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلَةً بالبيت الحرام ، وكان رَفْع قواعد البيت الحرام على يده ، بعد أنْ طُمر وسُتِر بالطوفان فى عهد نوح عليه

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٨٨) ، وقال :«هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبي في تلخيصه .

السلام ، فحين يأتى الكلام في رسالة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلا بُدَّ أن تأتى أكبر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهي حادثة بناء البيت الحرام.

فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة ؛ لذلك كان من اللازم حين تأتي كلمة «ناس» أن يكون هناك «بيت» و«آدم» من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له.

وحين يُقَال : إن البيت قد تَمَّ بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]

فلماذا نحرم آدم من أنْ يكون له بيت عند الله ؟ إذن : فالبيت موجود من قبل آدم.

وبعض الناس تظنونُّ أن إبراهيم هو الذي بني البيت ، ولأصحاب هذا الظنِّ نقول: لنفهم القرآن معاً، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران] ، وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قَبْله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيء إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم الحقوق نفسها عند الله التي وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلا بُدَّ أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران] يؤكد ذلك ، وما دام قد جاء الفعل مبنياً للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ «وُضِع» هو فعل مبني على ما لم يُسَمَّ فاعله ، فمَن الذى وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك ، وهو أنْ يكون الملائكة قد تلقَّوْا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل

عـمـران} وهذا يعنى أن البـيت هُدىً للمـلائكة ؛ لأنـهم عَـالَم ، وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك.

إن أحداً لا يـقدر أن يجـعل الكون على قَدْر العـقل البشـري ، إن على العقل البـشري أن يكون في رِكَاب الكون ، وإياك أن تجـعل الكون فى ركاب عقلك .

فالحق سـبحانه لـم يترك الخَلْق من آدم إلي إبراهيم دون بيت يحـجُّون إليه ، ولكن الحق سـبحانه وضع البيت ليـحج إليه الناس من أول آدم إلى أنْ تقوم الساعة.

أما مسألة أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد بنى الكعبة أولاً ، فهذا عدم فَهْم للنص القرآنى القائل :﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ {البقرة}

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعْد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض مـوجودان . إذن : فـهذا دليل علـى وجود البـيت قبل أن يقـيم إبراهيم عليـه السـلام ارتفاعَ البيت ، وهكذا نسـتنتج أن الذي كـان مطمـوسـاً هو القاعـدة والارتفاع ، ومع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان . أما البناء فهو الذي يُحدِّد «المكين» وعندما انهدم البيت الحـرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه .

ونحن عندما نصلي في الدور الثـالث فى الحرام ، فإننا نتجـه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفـرنا نفقاً تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جَوَّ الكعبة كعبة .

إذن : فعمل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان في إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفَهْم الإيماني ما حدث لإبراهيم عليه السلام ، لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما في هذا المكان . و«هاجر» تعرف أن مُكوِّنات الحياة هي المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه.

لذلك ، قالت هاجر سائلةً إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله . لذلك قالت : «والله لا يُضيِّعنا أبداً»[1].

لم تقلق هاجر ؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكُن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأيّ قلب لأم تترك أبَ الطفل يذهب بعيداً عنها ، وتعيش مع ابنها في هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم .

وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم]

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت ، وأن هذا البيت مُحرَّم ، وعندما نقرأ عن رَفْع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده ، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

(١) ذلك أن هاجر قالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لايضيعنا . ذكره القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٧٠٧).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ {البقرة}

هكذا نعلم أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن فى إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلُّنا على أن إسماعيل نشأ طفلاً فى هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقَّن أن البيت المحرَّم كان موجوداً من قَبْل إبراهيم عليه السلام .

ومعنى رَفْع القواعد أي : إيجاد البُعْد الثالث ، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت الحرام له طول ، وهذا هو البُعْد الأول ، وله عرض وهو البُعْد الثاني ، وبهما تتحدَّد المساحة . أما الارتفاع فبضربه في البُعْدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ البُعْد الثالث الذي يبرز الحجم.

ولكن ، هل يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت الآن ؟ أم أنه رُفِع وانتهى ؟ طبعاً هو رُفِع وانتهى ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت .

والله يريد من المؤمنين أنْ يتصوَّروا عملية الرفع ، فلم يكُنْ إبراهيم يملك سُلَّماً حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكُنْ يملك «سقالة» ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أنْ يتحايل ويأتي بالحجر.

إن الله يريد منَّا ألاَّ ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولا بُدَّ أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أنْ يحملاه إلى مكان البناء ، ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار

الأخرى التى سيتم بها رَفْع القواعد من البيت ، ورغم المشقة التي يتحملها الاثنان فهما سعيدان.

وكلُّ ما يطلبانه من الله هو أن يتقبَّل منهما ، وهما لا يريدان إلا الثواب.

إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بمجرد أنْ فرغَا من رَفْع القواعد من البيت قالا : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة]

وكأنهما يقولان : يا ربّ ، أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت ، وقد فعلْنا ما أمرتنا به ، وليس معنى ذلك أننا اكتفيْنا بتكليفك لنا ؛ لأننا نريد أن نذوقَ حلاوة التكليف منك مرات ومرات ، فاجعلنا نُسلِّم كل أمورنا إليك.

إن الإنسان لا يمكن أنْ ينتهي من تكليف ليطلب تكليفاً غيره ، إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ، ووجد فيه استمتاعاً ، ولا يجد الإنسان استمتاعاً في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه ، كلما عمل شيئاً استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد.

ولم يكتفياً بذلك ، بل أراد امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما ، فيقولان :﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة] ليتصل أمدُ منهج الله في الأرض ، ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة.

ثم يقولان :﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة] أي : بيِّن لنا يا رب ما تريده منّا ، بيِّن كيف نعبدك ؟ وكيف نتقرَّب إليك ؟ والمناسك هي الأمور التى يريد الله - سبحانه وتعالى - أنْ نعبده بها.

وقوله ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴿١٢٨﴾ ﴾ {البقرة} يُرينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على نفسه ؛ لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهيراً للنفس ، وخَيْراً للذرية ، ونعيماً في الآخرة .

﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ {البقرة}

لقد طلبَا من الله ـ تبارك وتعالى ـ التوبة والرحمة لذريتهما ، والله يحب التوبة من عباده ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضلَّه في فلاة[1] ، ومن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ {البقرة}

دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ اللهَ ـ سبحانه وتعالى ـ ليُتِمَّ نعمته على ذريته ، ويزيد رحمته على عباده ، بأنْ يرسلَ لهم رسولاً يُبلِّغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ، ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم.

والحق سبحانه يقول :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

{البقرة}

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علي راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتي شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح».

سُمِّيَتْ الكعبةُ بيتاً ؛ لأنها المكان الذي يستريح إليه كل خَلْق الله ، وهو مثابة للناس ؛ لأن العبد يذوق حلاوة وجوده في بيت ربه ، فلا يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته ، فلو نظرت إلى الكعبة سيذهب كل ما في صدرك من ضيق وهم وحزن ، ولا تتذكر أولادك ولاشئون دنياك ، ولو ظلَّتْ جاذبية بيت الله في قلوب الناس مستمرة لتركوا كُلَّ شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت.

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاجِّ وقلبه ؛ لأن الحجيج في بيت ربهم كلما كَرَبهم شيء ، أو هَمَّهُمْ أمر توجهوا إلى ربهم وهم في بيته ، فيذهب عنهم الهَمُّ والكرب .

وهذه دعوة إبراهيم عليه السلام حينما قال :

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ (٣٧)﴾ [إبراهيم]

فذكر الأفئدة ولم يذكر الأجسام ، وتهوي . أي : يُلقون أنفسهم إلى البيت ، ومن الخير أنْ تتركَ الناس يثُوبُون إلى بيت الله ؛ ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة.

فعلاقة الفؤاد والأفئدة بالحجيج علاقة قوية ؛ لأن الهَوىً في الحجيج هُوِيُّ قلوب ، لا جيوب ، وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أنْ يحظى بأداء تلك الفريضة .

وكلمة «تهوي» بكسر الواو ، تدلُّ على السقوط من حالق ، أي : من مكان مرتفع شاهق ، وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها ؛ ولذلك نجد الكَلِف بالحج - المحب له والمتعلِّق به - تشتاق روحه إلى الحج.

وعلينا أنْ نُفَرِّق بين «يَهْوَى» أي : يحب الذهاب ، «ويهوى» بكسر

الواو ، أي : يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إنْ سقط من مكان عَال لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطة ما في منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذي يقع من مكان لا يقدر على أنْ يُمسك نفسه.

وهذا دليل على أن الهُويَّ ليس من صَنْعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة ، والأفئدة بيد الله سبحانه ، هو الذي جعلها تهوي.

ومن هنا كان الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ برَفْع القواعد من البيت الحرام ، وتطهير البيت وإعداده للطائفين به والقائمين والركَّع والسُّجود ، قال تعالي : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج]

والمراد : طَهِّر البيت من كل ما يُشعر بالشرك ، فهذه هى البداية الصحيحة لإقامة بيت الله ، فالتطهير يعنى الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وطهارة حسِّية مما أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً.

ولذلك يقول تعالي : ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴿١٢٥﴾﴾[البقرة] دليل على أن البيت زالتْ معالمه تماماً ، وأصبح مثل سائر الأرض فذُبحت فيه الذبائح وأُلقيتْ المخلَّفات ، فأمر الله ـ سبحانه وتعالي ـ أن يُطهر إبراهيم وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ، ويجعله مكاناً لثلاث طوائف :

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ والطائف هو الذي يطوف ، وهي مأخوذة من الطواف ، وهو الدوران حول الشيء.

﴿ وَالْعَاكِفِينَ﴾ هم : المقيمون .

﴿ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم : المصلُّون.

فتطهير البيت للطواف به ، والإقامة ، والصلاة فيه ، وهو مُطهَّر أيضاً لأنه سيكون قِبْلة للمسلمين ، لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة.

من هنا جاء الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بالتأذين في الناس بالحج ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج]

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت وطهَّره للطائفين والقائمين والركَّع السُّجود أنْ يُؤذِّن فى الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمر به ، أو يعيش إلى جواره ؟

أراد الحق سبحانه أنْ يشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإن كانت المساجد كلها بيوتاً لله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ، لذلك جعله قِبْلة لبيوته التي اختارها الخلق.

ومعنى ﴿وَأَذِّن (٢٧)﴾ [الحج] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخِذ الأذان ، أي : الإعلام .

وحينما أمر الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالأذان لم يكن حول البيت غير إبراهيم وولده إسماعيل وزوجته هاجر ، فلمن يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع في صحراء واسعة شاسعة ووادٍ غير مسكون ؟

فناداه ربه : يا إبراهيم ، عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فمهمتك أن ترفع

صـوتك بالأذان ، وعلينا إيصـال هذا النـداء إلى كل الناس في كل الزمـان وفي كل المكان ، وسيسمعه البشـر جميعاً وهم في عالم الذرِّ ، وفي أصلاب آبائهم بقدرة الله تعالى .

يعني :أدِّ مـا عليك ، واترك ما فـوق قدرتك لقدرة ربك. فـأذَّن إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أنْ تقوم الساعة.

والحق سبحانه يعطي لنا مثال هذا في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]

وكـان ذلك فـي غـزوة بدر ، حيث اسـتنجـد رسـول الـله ﷺ بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه ، فقال : «يا ربِّ ، إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعبـد في الأرض أبداً ، فقـال له جبريل : خُـذْ قبضـة من التراب فـارْمِ بها في وجوههم ، فـأخذ ﷺ قبـضة من التراب فـرمى بها فى وجوههم ، فَـما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومَنْخريْه وفـمه تراب من تلك القبضة فولّوا من مدبرين»[1].

ومعلوم أنه سـاعة تأتي ذرة تراب في عيني الإنسـان يشتغل بعـينيه عن كل شيء . فقوْل الحق تبارك وتعالى :﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]

أي : أنك يا رسول اللـه ، ما أرسلت بالرَّمْيـة الواحدة ـ حـفنة التراب ـ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) كـتاب الجهاد ، من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ أن رسـول الله ﷺ قـال: « اللهم أنجـز لى ما وعـدتنى ، الـلهم آت ما وعـدتنى ، الـلهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض ».
ولم يذكر رمى التراب فى وجوه المشركين ، ولكن قد أورد ابن كـثير فى تفسيره (٢/ ٢٩٥) هذا الأثر عن ابن عباس. باللفظ الذى ذكره الشيخ الشعراوى رحمه الله هنا.

إلى عيون كل الأعداء ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد ، ولكنك «إذ رميت» أي : أدَّيْتَ نصيحة جبريل لك ، أما الإيصال إلى عيون العدو ، فهذا من فِعْل الله القوي القادر .

فما عليك يا إبراهيم إلا أن تؤدِّي ما عليك ، فتؤذِّن في الناس بالحج، وعلينا نحن إيصال هذا النداء إلى كل نَسْمة خلقها الله.

ثم يقول تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج]

ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل كما يظنُّ البعض - إنما جَمْعاً لراجل ، وهو الذي يسير على رِجْلَيْه ، والأرجل مخلوقة لتحمل بنى الإنسان : الواقف منهم ، وتقوم بتحريك المتحرِّك منهم . فإنْ كان الإنسان واقفاً حملته رِجْلاه ، وإنْ كان ماشياً فإن رِجْلَيْه تتحركان .

والضامر : الفرَس أو البعير المهزول من طول السفر.

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهي ﴿ يَأْتُوكَ (٢٧) ﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً ، يأتون جميعاً رجالاً أو ركباناً من كل طريق بعيد.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

علينا أن ننتبه إلى أن الله قال في كل تكليف : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة] ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله «على الناس» ، وليس لمن أسلموا فقط.

ورسـول الله ﷺ قـد دعـا أهل الكتـاب الذين كـانوا يتـمـحكون في إبراهيم عليـه السلام أنْ يحجُّـوا البيت الحرام ، فـامتنعـوا عن الحج ، ولو كان الحج للمـسلمين المؤمنين برسالة مـحمـد ﷺ لما عرض رسـول الله ﷺ على اليهود والنصارى أنْ يحجُّوا ليكـون ذلك جَمْعاً لهم على أنْ يتجه الخَلْق جـميـعـاً إلي بيت الله ، ويعـبدوا إلهـاً واحـداً ، هو ربُّ هذا البـيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج.

لذلك يقـول رسول الله ﷺ فيـمن لم يحجّ بدون مـرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فـقر وعَوز [1] : «مَنْ ملك زاداً وراحلة تبلغـه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليـه أنْ يموتَ ، إنْ شاء يهودياً ، وإنْ شاء نصـرانياً ، وذلك أن الله تعالي يقول :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً (٩٧) ﴾ [آل عمران]

ولذلك نجد التكليف بالحـج قد اتبع مباشـرة بقوْل الحق :﴿وَمَن كَفَرَ .. (٩٧)﴾ [آل عمران] ، فهل يقع مَنْ لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟

هنا يقف العلماء وقـفةً . العلماء يقـولون : نعم ، إنه يدخل في الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان : كفر بالله ، أو كفر بنعمة الله.

ومثـال ذلك قوله جَلَّ شـأنه : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

أو : هو الكفر ، كأنْ يموت الإنسانُ يهودياً أو نصرانياً.

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/ ١٣٤) من حـديث على ـ رضى الله عنه ـ وقـال: «رواه الترمذى والبيهقى من رواية الحارث عن على ، وقـال الترمذى : حديث غريـب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» .

وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية ، وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] ، فهل تعارضون فى هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ، ولكن لا تُنفِّذونه؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ «نعم» ، ولكن الموقف يختلف من مؤمن إلى آخر ، فنحن نجد مؤمناً يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمناً آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصياً.

ونجد فى هذا الموقف أن الكفر نوعان:

ـ هناك مَنْ يكفر بحكم الحج ، أى : مَنْ كفر في الاعتقاد بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقاً.

ـ وهناك نوع آخر ، وهو الذي يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أَمْن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفي مَنْ يعولهم إلى أنْ يعود.

وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أنْ يسعى إلى الحج ، لذلك قال بعض العارفين : لو أن أحدهم أُخْبِر بأن له ميراثاً بمكة لَذهبَ إليه حَبْواً.

ولننظر إلى دقَّة الأداء القرآني حين يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]

إن الله غنى عن كل مخلوقاته ، وإياك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن ، وأدَّى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ، إن الله غنى عن الذى أدَّى ، وعن الذى لم يُؤدِّ ، إياك أنْ تظنَّ أن مَنْ أدَّى قد صنع لله معروفاً ، أو قدَّم لله يداً.

والحج هو رحلة فرضها الله مرة واحدة فـى العمر ، يخرج إليها المسلم الذى يحيا فى كل مكان مع نعمة المنـعم ، وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كُلِّ النعم التى تصنع له التمييز ليستوى مع كل خَلْق الله .

وأوَّل سِـمَـة مُـمـيـزة لـلإنسـان هى الملابس ؛ لذلك يخلـع المسلمـون ملابسهم ، ويرتدون لبـاساً مُوحّداً يتسـاوون فيه ، وحين يتـرك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنعم.

فـالكل سواء فى مـلابس تكاد تكون واحـدة ، وكلهم شُـعْث[1] غُبْر ، وكلهم يقـولون «لبيك اللهم لبـيك» هكذا تتم تصـفية الـتفاوت فى الإنـسان بالإحرام ، وتصبح العبودية مستطرقة فى الجميع .

وتزول فى الحج كل الألقـاب والمقادير المـتبـاينة من فور اتجـاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفير الوزير وهو يبكى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء.

والحق سبحانه يقول :﴿**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة]

والحج هو القصد إلى مُعظَّم ، وهو «حج البيت» . أما العمرة فهى الحج الكبـير ، وزمـانها شـائع فى كل السنة ، والقـاصدون للبـيت يتوزعـون على العالم كله.

والحق سـبـحـانه وتعـالى يخـاطب عبـاده ، وهو يعـلم أن بعض الناس سيـقبـلون على العبـادات إقبـالاً شكلياً ، وقـد يقبلون على الـعبـادة لأغراض أخـرى غيـر العـبادة ، فكان لابد أن يبـين القـصـد من الحج والعمـرة ، وأن

---

(١) تشعث : تلبَّد شعره واغبرَّ. واغبرَّ الشيء: علاه الغبار . والغُبْرة : لون الغبار . (لسان العرب ـ مادتا : شعث ، غبر).

المطلوب هو إتمامهما ، ولا بد أن يكون القصد لله لا لشيء آخر ، لا ليقال «الحاج فلان» ، أو ليشترى سلعاً رخيصة ويبيعها بأغلى من ثمنها بعد عودته.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**[1] **أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم**[2] **مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ**[3] **الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ..** (198)﴾ [البقرة]

فلا إثم عليكم ولا حرج أن تتكسبوا فى الحج ، وهو نسك عبادى ، فلا مانع أن تذهب لتحج وتتاجر ؛ لأنك ستُيسِّر أمراً ، لأننا إن منعناه ، فمن الذى يقوم بأمر الحجيج ؟

وكل ابتغاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن مبتغى الرزق والفضل ، فكله من عند الله ، إياك أن تقول : قوة أسباب . وإياك أن تقول : ذكاء أو احتياط ، فلا شيء من ذلك كله ، لأن الرزق كله من الله ، هو فضل من الله .

ولا ضرر عليك أن تبتغى الفضل من الرب سبحانه ؛ لأنه هو الخالق وهو المربِّى ونحن مربوبون له ، فلا غضاضة أن تطلب الفضل من الله .

وقد وصف رب العزة سبحانه بيته بأنه البيت العتيق ، فقال تعالى : ﴿**وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** (29)﴾ [الحج]

---

(1) الجناح : الإثم والذنب . أى : ليس عليكم إثم فى أن تتكسبوا فى الحج.

(2) أفاض الحجاج من عرفات : انصرفوا إلى منىً بعد انقضاء الموقف كأنهم سيْل ينحدر ويسيل فى سهولة ويُسر . (القاموس القويم 2/ 93).

(3) المشعر : المعلَم الظاهر من أماكن الحج . (القاموس القويم 1/ 350) .

قال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها . وفى رواية : هذا الجبل وما حوله .[ذكره ابن كثير فى تفسيره 1/ 242].

وكلمة عتيق استعملت في اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وضع للناس فهو إذن قديم ، والقدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعني الشيء الثمين الذي يُحافظ عليه ، ويُهتم به.

كما نرى عند بعض أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها ويتوارثونها يسمونها «العاديات» مثل : التحف وغيرها ، وكلما مر عليها الزمن زادت قيمتها وغلا ثمنها.

والعتيق : الشيء الجميل الحسن . والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق؟

وَصْف البيت بالقدَم يشمل كل هذه المعاني ، فهو قديم لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر ، حيث نرى فيه ما لا نراه في غيره من آيات ، ويكفي أن رؤيتهُ والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذي لا مثيل له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألا ترى قصة الفيل وما فعله الله بأبرهة حين أراد هدمه ؟ حتى الفيل الذي كان يتقدم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداء على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجه أيَّ وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة.

ويُقال : إن رجلاً [١] تقدم إلى الفيل وقال في أذنه : ابْرُكْ محمود ـ اسم الفيل ـ وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام.

وقد عبّر الشاعر [٢] عن هذا الموقف ، فقال :

---

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمي ، فيما ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٥٢) .

(٢) هو : أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي .

حُبِسَ الفيلُ بالمغمَّس [1] حتى ظَلَّ يَعْوى كأنه مَعْقُورُ [2]

ثم أنزل الله عليهم الطير الأبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت.

والحق سبحانه يحدثنا عن هذا البيت ، فيقول :

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ (٩٧) ﴾ {المائدة}

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كَدْحهم ، لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ، ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله.

وقد أراد سبحانه أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قوَام حياتهم بالطعام والشراب واستيفاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ؛ ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر.

وتبدأ الحياة بوجود الروح فى المادة ، فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المصادر ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً.

لقد جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ، أى : قواماً لحياتهم ، سواء الحياة الدنيا أو حياة الآخرة.

---

(١) المغمَّس : موضع قريب من مكة.

(٢) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت.

والحق سبحانه يقول :

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④﴾ [قريش]

فقد كـانت قريش تستوطن حيث يوجـد بيت الله الحرام الذى يحج إليه كل عربى ، يوم أن يتـعرض أحد لقوافل قـريش فعليه أن ينتظر العـقاب له أو لقبيلته .

إذن : فـالبيت الحـرام هو الذى أوجد لهم تـلك المهابة ، وإبراهيم عليـه السلام كـان يعيش فى عـقائد هؤلاء القـوم ؛ لأن كل أمور إبراهيم النُّسـكية كانت فى هذا المكان ، فـمثلاً همّـه بذبح ابنه وفداء السمـاء لابنه كانا فى هذا المكان ، ورفـعه الـكعبـة كـان فى هذا المكان ، والكعـبة هى مـركـز السيـادة لقريش، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل.

لقد أراد الحق سبحانه أن يوضح لقريش أن السيادة التى أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة لكنتم قبيلة من القبائل . لا مهابة لكم ولا سلطان ولا جاه.

□□□

٤٦ القَرْض الحسَنُ

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ سُبْحانَهُ في الحديث القُدْسي :

«اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي ، فَلَم يُقْرِضْنى»(١)

يقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿ مَن ذَا الَّذى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

الله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود ، فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذى استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله .

وإذا كان هو سبحانه الذى أعطى المال ، فكيف يقول : أقرضنى ؟

نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذى لك هو هبة من الله ، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك «أعطه من عندك أو أقرضه من عندك».

إنما يقول لك :«أقرضنى أنا ، لأنى أنا الذى أوجدته فى الكون ورزقه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٠٠،٥٠٦) ، والحاكم فى مستدركه (١/ ٤١٨) ، (٢/ ٤٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه :«يقول الله عز وجل : استقرضت عبدى فلم يقرضنى، وشتمنى عبدى وهو لايدرى يقول : وادهراه وادهراه وأنا الدهر» قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

مطلوب منى » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٤٥)﴾ [البقرة]

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ متفضل بالنعمة ، ثم يسألك أن تقرضه هو .

و لنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى ـ هب أنك محتاج وفى ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم :

أقرضونى ما معكم من مال ، وسأرده لكم عندما تمر الضائقة ، كأنك لم ترجع فى هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، ولله المثل الأعلى.

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة ـ ﵂ ـ عندما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أجلو درهماً . قال : لماذا؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به قال : وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه ؟ قالت : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد المحتاج .

فساعة تسمع «يقرض الله» فذلك أمر عظيم ؛ لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، لماذا ؟ لأن ذلك الإنسان سيستفيد استفادة مباشرة ، لكن عندما تنفق فى سبيل الله فليس هناك إنسان بعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطى المعنى العام فى قضية التديُّن ، وتعاملك فيها يكون مع الله ، كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب

منا عمليـة ليست سهلة على النفس البـشرية ، وهو سبحـانه يعلم بما طبع عليه النفوس.

والقرض فى اللغـة معناه : قَضْم الشـىء بالناب ، وهو سبحـانه وتعالى يعلم أن عـمليـة الإقراض هى مـسـألة صـعبـة ، وحـتى يبيـن للناس أنه يعلم صعوبتهـا جاء بقوله «يقرض» ، إنه المقدِّر لصعوبتهـا ، ويُقدِّر الجزاء على قدر الصعوبة .

وما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عـباد الله لا يكون القرض حسناً ؟

أولاً إذا أقرضت عبـداً من عباد الله فكأنك أقرضت اللـه ، صحيح أنت تعطى الإنسان مـا ييسر له الفرج فى مـوقف متأزم ، وصحـيح أيضاً أنك فى عملية الجهاد لا تعطى إنساناً بعينه وإنما تعطى الله مباشرة.

وهو سبحـانه يبلغنا أن من يقرض عبادى فكأنـه أقرضنى ، كيف ؟ لأن الله هو الذى اسـتدعى كل عـبد له للوجـود ، فإذا احـتاج العـبد فـإن حاجـته مطلوبة لرزقه فى الدنيـا ، فإذا أعطى العبـد لأخيه المحتـاج فكأنه يقرض الله المتكفل برزق ذلك المحتاج.

وقوله تـعالى ﴿**يُقْـرِضُ اللَّهَ** (٢٤٥)﴾ [البـقـرة] تدلنـا على أن القـرض لا يضـيع؛ لأن القرض شىء تخـرجـه من مالك على أمـل أن تستـعيـده ، وهو سبـحانه وتعـالى يطمئنـك على أنه هو الذى سيـقتـرض منك ، وأنه سيـرد ما اقترضه ، لكن ليس فى صـورة ما قدمت ، وإنما فى صورة مستثمـرة أضعافاً مضاعفة .

إن الأصل محفوظ ومسـتثمر ؛ ولذلك يقول : ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْـرِضُ اللَّهَ**

قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٢٤٥)﴾ [البقرة] إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله ـ عز وجل ـ لا بمقاييسنا كبشر .

وهناك ملمح فى هذه الآية :

﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا(٢٤٥)**﴾ [البقرة]

فالمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ، وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس آخرين ، وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يُذِلَّ نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿**أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا(١٣٩)**﴾ [النساء]

فساعة يقول الحق سبحانه :﴿**فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)**﴾ [النساء]

فمعناها : إن أردتَ أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه.

وعلى سبيل المثال ، نجد أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . .(٢٤٥)**﴾ [البقرة]

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة ، العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى : أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به .

وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له فهو يعتز بقوة هذا الكائن ، وهى قوة ممنوحة له من الله ، وقد يستردها سبحانه منه ، فما بالنا بالقوة

اللانهائية لـه ، وكل قوة فى الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هى لله .

ولقد قرن الحق سبحانه بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل ونُصْرتهم ، وبين إقراض الله قرضاً حسناً .

فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ[1] وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)﴾ [المائدة]

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة ، وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ؛ لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ؛ ولذلك قيل: إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة .

وأيضاً ؛ لأن نفس المتصدق تخرج من الشىء المتصدّق به ولا تتعلق به ، أما الذى يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض ، وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نظرة إلى ميسرة ، فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

ويصف الحق سبحانه القرض بأنه حسن ، حتى لا يكون فيه مَنٌّ أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا ، ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة ، عندما كان يجلس فى ظل بيت صاحب له ، واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال ، وجاء اليوم التالى للقرض ، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو

(١) عزره : أعانه ونصره ووقَّره مثل عـزَّره . قال تعالى : ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾[المائدة:١٢] أى : نصرتموهم وحميتموهم . [القاموس القويم ٢/١٨] .

حنيفة: خفت أن يكون ذلك لوناً من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضنى . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل علىَّ بظل بيتك ، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال.

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذى أو منفعة .

ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد ، فقال تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** (٢٨٢)﴾ {البقرة}

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدَّيْن ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

وعندما يكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحَاثٌّ عليه ، لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض ، ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ؛ ولذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ** ..(٢٨٢)﴾ {البقرة}

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال : ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ** ...(٢٨٣)﴾ {البقرة}

وهكذا ، يحمى الله الحركة الاقتصادية ، ونجد رسول الله ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دَيْن ، فقال للصحابة : صَلُّوا على أخيكم لكنه لم يُصَلِّ على الميت[1].

(١) عن أبى قتادة أن النبى ﷺ أُتىَ برجل ليصلى عليه ، فقال النبى ﷺ «صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً» قال أبو قتادة : هو علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : بالوفاء ؟ قال: بالوفاء . فصلَّى =

وتساءل الناس : لماذا لم يُصَلِّ رسول الله ﷺ على هذا الميت ؟ وما ذنبه ؟ كأن رسول الله ﷺ أراد أن يُعلم المؤمنين عن دَيْن المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزاً للناس ودفعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دَيْن.

وقد قال رسول الله ﷺ :«من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» [1].

فما دام قد مات وهو مدين ، وليس عنده ما يسد الدين ، فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بألا يرد الدين .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه.

ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض ؛ لأن المقترض يريد أن يسدد القرض ، أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدَّيْن ، فليفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين . أى : أن

=عليه. قال الترمذى : حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٦٩) .
وعن أبى هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالرجل المتوفى عليه الدَّيْن فيقول: هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى عليه، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم. فلما فتح الله عليه الفتوح قام فقال : أنا أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن تُوفِّى من المسلمين فترك ديناً علىّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته» أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٧٠) وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١،٤١٧) والبخارى في صحيحه (٢٣٨٧) عن أبي هريرة ، وأخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤١١) بلفظ:«من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله».

المدين عنده القـدرة على الوفاء بـالدَّيْن أو ببعـضه ، ذلك أن الله لا يحـرج من يجدّ ويجتهد في السعي لسداد دينه .

والقرض من المال الذي لديْك يجعل المال يتناقص ؛ لذلك فالله يعطيك أضعـافاً مضـاعفة نـتيجـة هذا القرض ، وذلك منا سب لقـوله تعالى : ﴿**يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ** ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

فسـاعة تذهب إليـه ويأخذ كل منا حـقه بالحـساب . أي: أن المال الذى تقرض منه ينقص في ظاهر الأمر ، ولكن الله سبحـانه يزيده ويبسطه أضعافاً مضاعفة ، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً.

والحق سبحانه يقول : ﴿**وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (٢١٢)﴾ [البقرة]

إنه رزْق بغير حساب من الله ، فقد يرزقك الله على قَدْر سَعْيك ، وربما أكثـر ، وهو يرزق بغير حـساب ؛ لأنه لا توجد سلطة أعـلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق.

وهو سبـحانه يرزق بغـير حـساب ؛ لأن خزائـنه لا تنفد. ويرزق بغـير حسـاب ؛ لأنه لا يحكمه قـانون، وإنما يعطى بطلاقة القـدرة ، إنه ـ جَلَّ وعلا ـ يعطى للكافر حتى تتعجب أنت وتقول : يعطى الكافر ولا يعطى المؤمن ، لماذا؟

إذا اسـتطاع أحد أنْ يحـاسـبه فلـيسـأله : لماذا يفـعل ذلك؟ إنه يعطى مقابـلاً للحسنة سبعـمائة ضِعْف بغيـر حساب ، إن الحسـاب إنما يأتى عندما تأخـذ مـعدوداً ، فـإذا أخـذتَ مثـلاً مـائة من ألف فأنـت طرحتَ معـدوداً من مـعدود ، فـلا بُدَّ أن ينقص ، وعندما تراه يـنقص فأنت تخـاف من العطاء ، لكن الله بخلاف ذلك ، إنه يعطى معدوداً من غير معدود .

والحق ـ سبحـانه وتعالى ـ يعطينا مثلاً حَـياً على رزقه الواسع الذى لا تحدُّه حـدود فى قصة مريم وزكـريا عليهمـا السلام ، فيقـول تعالى : ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)**﴾ [آل عمران]

فزكـريا ـ عليه السـلام ـ كان يكفل مـريم ، ويأتيها بكل مـا تحتـاج إليه، ودخل عليها ليـجد عندها ما لم يحضـره لها ، وسألها وهى القـديسة العابدة الملازمة لمحرابها.

الحق ـ سـبحـانه وتعالى ـ يعطينـا هذه الصورة ، مع أن مـريم بسلوكهـا وعبادتها وتقواها فوق كل الشـبهات ، ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات مَنْ يحصل عليها.

الأم ترى الأب ينفق ما لايـتناسب مع مُرتبه ، وترى الابنـة ترتدى ما هو أكبر كثيراً من مرتبـها أو مصروفها .. ولو سألت الأم الأب أو الابنة : من أين لك هذا لما فـسد المجتـمع ، ولكن الفسـاد يأتى من أننا نغمض أعـيننا عن المال الحرام.

بماذا رَدَّت مريم عليها السلام ؟

﴿**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)**﴾[آل عمران]

إذن : فطلاقة قدرة الله لا يحكمـها قانون.. والحق سبحانه غـير محكوم بالأسـباب ، وسـبحـانه يعطى بلا حـساب ، فـالسـيدة مـريم أجابت الإجـابة الإيمانيـة ، وأوضحت لسيدنا زكـريا ـ عليه السلام ـ : أنت تتكلم بحـسابك ؛ ولكنِّى أتكلم بحـسـاب الله تعالـى ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بـغيـر حسـاب، أنطقـها الحق ذلك لأن هذا القـول سوف يـخدم قـضايا عـقدية مـتعـددة فى الكون.

وشاءتْ إرادة الله أن تـنطق مريم بهـذه المقولة : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)**﴾[آل عمران] لأنها ستنبه زكريا إلى شيء ، وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد ، حينما تشعر بالحمل من غير زوج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاء من الله.

وكذلك نبهتْ هذه الآية زكريا ـ عليه السلام ـ إلى فَضْل الله وسعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبي الله ، ولكن هناك قضايا في النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ...(٣٨)**﴾ [آل عمران] فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدي ، وطالما أن الرزق بغير حساب ، فلن يمنعه كِبَر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه.

فجاءتْه البُشْرى واستجيب دعاؤه ، قال تعالى :

﴿ **فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا**[1] **وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)**﴾ [آل عمران]

(١) الحصور : الذي يمنع نفسه من الشهوات . [القاموس القويم ١/ ١٥٧] .

٤٧ الفَوْزُ العَظِيم

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ سُبْحانَهُ في الحديث القُدْسِيِّ:

«أيّما عَبْدٍ منْ عِبَادي خرجَ مُجاهداً في سَبِيلي ، ابْتغاءَ مَرْضَاتي ، ضَمِنْتُ له أنْ أُرجِعَهُ بما أصابَ منْ أجْرٍ وغنيمةٍ ، وإنْ قَبَضْتُه أنْ أغفر له ، وأرْحمه ، وأُدْخِلَه الجنَّة» (١) .

يقول الحق سبحانه :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة]

إن الله ـ عز وجل ـ يقول للذين آمنوا : اعلموا أنكم مُقْبلون على مشقَّات وعلى متاعب ، وعلى أنْ تتركوا أموالكم ، وعلى أنْ تتركوا لذّتكم وتمتعكم ، لذلك نجد كبار السَّاسة الذين برعوا فى السياسة ونجحوا فى قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يحبون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين ، فإذا ما اضطروا فَهُم يُوضِّحون لجندهم أنهم يدرأون بالقتال ما هو أكثر شراً من القتال ، ومعنى ذلك أنهم يُعبِّئون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجماع قُوَاها ، وبجميع ملَكاتها ، وكُل إرادتها.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ**

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١١٧) ، والنسائى فى سننه (٦/ ١٨) من حديث ابن عمر ﷺ.

لَكُمْ... ﴿٢١٦﴾ [البقرة]، إنه سبحانه يقول لنا ، أعلم أن القتال كُرْه لكم ، ولكن أردتُ أن أشيع فيكم قضية ، هذه القضية هى ألاَّ تحكموا فى القضايا الكبيرة فى حدود علمكم ؛ لأن علمكم دائماً ناقصٌ ، بل خُـذُوا القضايا من خلال علمى أنا ؛ لأننى قد أُشرِّع مكروهاً ، ولكن يأتى منه الخير ، وقد ترونَ حُبّاً فى شىء ، ويأتى منه الشر .

وفى ذكْر أمر الكُرْه إنصافٌ لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله.

والحق سبحانه يقول لنبيه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ..** ﴿٦٥﴾ [الأنفال]

وساعةَ تسمع أن فلاناً يُحرِّض فلاناً ، فهذا يعنى أنه يحثُّه ، ويثير حماسه ، ويُغريه على أن يفعل ، أى: حُثَّهم وحُضَّهم وحَمسِّهم.

أى: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب من رسوله ﷺ تحريض المؤمنين على الجهاد ، وكأنه يقول له : ادْعُ قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم ؛ لأنهم إنْ لم يجاهدوا تغلب عليهم أهل الكفر ، فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة والغَلَبة والجبروت .

وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم ؛ ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ** ﴿٦٥﴾ [الأنفال]

فكأنهم إنْ لم يحاربوا أهل الكفر فسوف يحيط بهم الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة فى الدنيا، والجنة فى الآخرة.

والقتال لابُدَّ أن يكون فى سبيل الله، قال تعالى :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [البقرة]

فعندما نتأمل قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [البقرة]

فإننا نجد أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة «فى سبيل الله» لأنه يريد أن يضع حَداً لجبروت البشر، ولا بُدَّ أن تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنيّة الاستعلاء والجبروت والطغيان.

فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ، ونُصْرة دين الله ، هذا هو غرض القتال فى الإسلام.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

فالقتال إنما جاء حتى تُسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينما يقول: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.. (٧٤)﴾[النساء] فهذا يدلُّنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأنْ يقاتل الرجل حميّة ، أو ليُعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائماً حَسْب نيته.

ولذلك، تساءل بعض الناس : مَن الشهيد؟ قال العلماء: هو من قاتل

لتكون كلمة الله هى العليا فـيكون شهيداً . إذن : فالقتـال يكون مرة فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان.

فكلمة «الجهـاد فى سبيل الله» تُخصِّص لوناً من الجهاد ، فـالإنسان قد يجاهد حَمِيّـةً أو دفاعاً عن جنسيته ، أو أى انتمـاء آخر ، كل هذه الانتماءات فى عُرْف الدين لا قيمةَ لها ، إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله ، لتكون كلمة الله هى العليا.

وعندما سُئل رسول الله ﷺ عن أفضل القـتال ، فيما جاء عن أبى مـوسى رضي الله عنه قال: جـاء رجل إلى النبى ﷺ فقـال: الرجل يقـتال للمـغنم، والرجل يقاتل للذكْر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمَنْ فى سبيل الله ؟

قال: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[1].

ولذلك يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمـقاتل، بل أنت تقـاتل حين يكون القـتال مطلوباً ، وتسلك بالخُلُـق الإيمانى اللائق فى إطار أنك منَ المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هى العليا.

وهنا تكون معية الله لك ، فالحق سبحانه هو خالق النفس البشرية ، وهو العليم بها حـين تكون أمام قوة لم تحسـب حسابها ، وكـيف تعانى النفس من كَرْب عظيم ، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال؟

ولذلك طلب من المؤمنـين أنْ يتذكّـروا دائمـاً أنهم ليـسوا وحـدهم فى

(١) أخرجـه البخارى فى صـحيحـه (٢٨١٠)، وأحمد فى مـسنده (٤/ ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه .

المعركة ، وأنه سبحانه وتعالى معهم ، فليذكروا هذا كثيراً ليوالى نصرهم على عدوهم ، لأنهم إذا ما داوموا على ذِكْر الله تعالى فسيقوى هذا الذكْر إيمانهم ، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر .

وذكْر الحق سبحانه كلمة (كثيراً) هنا يعنى أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط ، فإنْ جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذِكْر الله .

لذلك يؤكد ـ سبحانه وتعالى ـ هنا أن يكون ذِكْر الله كثيراً ، ليوالى الله نَصْر المؤمن على عدوه، ومثال ذلك : أننا نجده ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يستحضر الخَلْق المؤمنين للصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

يطلب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك من المؤمنين ، وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات ، ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى ، ويُنبهنا أن نداوم على ذكْره ، فكأنه يقول : إياكم أنْ تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكْر الله ، أو تعتقدوا أن ذكْر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذكْر الله فى كل أحداث الحياة ، فإنْ فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً ، فستكونون من المفلحين.

وذكْر الله كثيراً معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ معك ، فتخشاه وتحمده وتستعين به ، وهكذا تكون الصِّلَةُ دائمة بينك وبين الله عَزَّ وجَلَّ فى كل وقت.

والحق سبحانه يعقد صفقة مع المؤمنين المجاهدين ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾[التوبة]

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق سبحانه مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرَّف به على الصفقات المربحة ، فكلٌّ منّا فى حياته يحب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه.

ولذلك يقول فى آية أخرى:

﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أنْ تقارن الشىء الذى تعطيه بالشىء الذى تأخذه ، ثم افرق بينهما، ما الذى يجب أنْ يضحى به فى سبيل الآخر؟

والحق سبحانه وتعالى قد وصف الحياة بأنها «الدنيا» ولايوجد وَصْف أدنى من هذا، فأوضح المسألة : إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة ـ إذن ـ رابحة ، فالدنيا مهما طالتْ فإلى نهاية ، ولا تقُلْ كم عمر الدنيا، لأنه لايعنيك أن يكون عمر الدنيا ألفَ قرن، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد: هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإنْ دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟

إذن: فقيمة الدنيا هى مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظنون ، فعمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها

معك أنت ، وهَبْ أنه متيقن ، ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال، ستجد أن تنعُّمك خلالها مهما كَبُر وعَظُم فهو محدود.

فإنْ قارنتَ المحدود بغير المحدود ستجد الغَلَبة للآخرة ؛ لأنها مُتيقنة والنعيم فيها على قَدْر سعة فَضْل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، فتكون هذه هى الصفقة الرابحة التى لا تبور .

ولماذا يُدخل الله العبدَ فى عملية البيع هذه ؟ لأن الحق - سبحانه وتعالى - قبل أنْ يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إنْ لم تقتل أو تُقتل فى سبيل الله ، لابُدَّ أنْ يوضح لك كيفية الغاية التى تأخذ بها الفوز فى الآخرة ، ولن نأخذ هذا الفوز بالكلام فقط.

ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله ، إنه تأسيس المجتمع الذى يؤدى كل امرىء فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا مَنْ يريد أن يأخذ عرق الناس ويبنى جسمه من كَدِّهم وتعبهم ، وهات مجتمعاً لا يؤمن بالله وقُلْ: يأيها الناس نريد أن يؤدى كل واحد منكم الأمانة التى عنده ، نريد أن نحكم بالعدل ، فسيفرح أهل هذا المجتمع.

إذن : فلكى نحمى المجتمع لا بُدَّ أن نؤدى الأمانة، وأن نقيم العدالة، ومن قبل ذلك أُمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين.

قُلْ لى بالله عليك ، لو لم يكن هذا ديناً من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدَلُ من هذا؟

إن مِثْل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان

عن تطبيقه ، وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه : هذا هو المجتمع الذى ستقاتلون من أجله.

واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تُقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شىء إنما يُقاس بزمن الغاية له ، فإنْ قُتِلْت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتصل إلى الجنة.

والحُمْق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن ، نقول لهم : ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الغرق فى الحزن إذن؟

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يكافىء مَنْ يُقتل فى سبيل الله بحياة فى عالم الغيب ، وفيها رزق أيضاً.

يقول تعالى : ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** (١٥٤)﴾ [البقرة]

فالله ـ تبارك وتعالى ـ أراد أن يفهم المؤمنون أن الذى يُقتل فى سبيل الله لا يموت ، وإنما يعطيه الله لَوْناً جديداً من الحياة ، فيه من النعم ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى ، فهو حَىٌّ عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة ، ولا يكتب عليه الموت فى حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيداً ؛ ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها ، لأنها من حياة الآخرة ، وهى غيب عنا قال تبارك وتعالى :

﴿**وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** (١٥٤)﴾ [البقرة]

وما دُمْنَا لا نشعر بها فلا بُدَّ أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية.

فالحق ـ جَلَّ جلاله ـ يعطى الشهداء حياةً دائمة خالدة ؛ لأنهم ماتوا فى سبيله ، ومادام قال تعالى : ﴿لاَّ تَشْعُرُونَ (154)﴾ [البقرة] فلا تحاول أنْ تدركها بشعورك وحسِّك ؛ لأنك لن تدركها ، على أن الشهيد لا بُدَّ أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وليس لأيِّ غرض دنيوى ، وإنما لتكون كلمة الله هى العليا.

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)﴾ [آل عمران]

فأنتم تخافون الموت، ولكن هؤلاء الذين قُتلوا فى سبيل الله ليسوا بميتين ؛ لأن حياتهم حياة موصولة: إن هناك فارقاً كبيراً بين الموت والشهادة ، فالذى يُقْتَل شهيداً تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم أىْ بقانونه سبحانه ، فلا تُحكّم قانونك أنت ، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القَتْلَى مجرد أشلاء ، هم عندك أشلاءٌ وأموات فى قانونك أنت ، لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون.

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا ؟

إن الإنسان إذا زهقتْ روحه وفارقتْ جسده انقطعتْ حياته ، فى ظاهر الأمر انتهى ولم يَعُد ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعل لاستبقاء الحياة ، وما دام الرزق قد صُنع لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن: فلا رِزْق ، لكن الله سبحانه يريد أنْ يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حَىٌّ.

ومن ضروريات الحياة أنه يُرزق ، أى : ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العِنْدية عندك غير العِنْدية عند الله ، فالشهيد حَىٌّ عند ربه ويُرزق عند ربه رِزْقاً يناسب الحياة التى أرادها له ربه.

ونعلم أن الرزق هو الخاصية التي تُوجَد للأحياء.

وعندما نقرأ قول الله :﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

قد يقـول قائل: من الجائز أنك تـأخذ إنساناً وتُبـقيه حَـياً وتعطيه طعـاماً وشراباً ، لكن ، أهـو فَرِح بموقعـه؟ لا ، لذلك يجب أنْ ندرك ونعرف أن حـياة الشهيد ليست فى قبره ولكنها عند ربه ، وهو فرِح بموقعه لذلك.

ولذلك يُقـال: احرص على الموت تُوهَب لك الحـياة ؛ لذلك كـان الفرار يوم الزحف كبيـرة من الكبائر ؛ لأن الفرار يصنع خللاً فى المجـتمع الإيمانى ، لأن معنى الزحف أن أعـداء الإسلام أغاروا علينا ، وما داموا قـد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثُغْـرة من ثغور الإسلام ، حتى لا يمـكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام ، ولتـظل كلمة الله هى العليـا ، ففرار المسلـم يعطى أُسْوة على ضَعْف الإيمان فى النفس.

لذلك ؛ لا تغترُّوا بأن هذا صار مؤمناً ، وذاك صار مؤمناً ، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بـالغاية فهو لا يهـاب القتال ، لأنه إنْ قُتِل صـار شهيداً ومُـبشَّراً من الله بكذا وكذا.

لذلك ، فالفرار فى يوم الزحف يعطى أُسْوة سـيئة ليس فى الحرب فقط، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية فى النفس البشرية.

والحق ـ سبحانه وتعـالى ـ أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب فى أحد أمرين كلاهما حَسَن : النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ (٥٢) ﴾ [التوبة]

فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أنْ يُقتل من الأعداء، وإما أنْ ينتصـر، وهذه هى القضية الجـدلية التى تنشأ بيـن معسكر الإيمان ومـعسكر

الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنيين:

ـ إما أن أُقتل فأصبح شهيداً آخذ حياةً أفضل من هذه الحياة.

ـ وإما أنْ أنتصر عليك.

فماذا تتربّصون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شيء ، فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير.

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة، وإما أن تنتصروا.

ولذلك قال تعالى : ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ...(١٣)﴾ [التوبة]

هذا استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبداً أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلَّبوا عليكم فُزْتم بالشهادة ، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فُزْتم بالنصر.

وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يُحدث تثبيتاً لقلوبهم وأقدامهم فى مواقف القتال والنِّزَال.

ثم يأتى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بالحكم النهائى، فيقول:

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [التوبة]

أى : رَاجعوا إيمانكم، فإنْ كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون فى الشهادة ، وإنْ كنتم مؤمنين بالله القادر القوى القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته، وهى لا تُقارن بالقوة البشرية ، فإما أنْ تنتصروا عليهم ، فتكون لكم فرحة النصر ، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة ، وكلتا النتيجتين خير.

٤٨ فيما ضَيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاسِ

قال رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى فيما يرويه عن رب العزة سبحانه:

«يَدْعُو اللهُ بصَاحِبِ الدَّيْنِ يَوْمَ القِيامَة ، حتَّى يُوقَفَ بَيْن يدَيْه ، فيُقَال:

يا ابْنَ آدمَ فِيمَا أخذْتَ هذَا الديْنَ؟ وفيما ضيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاس؟

فيقول : يَاربِّ ، إنكَ تعلَمُ أنِّي أخَذْتُه فَلَمْ آكُلْ ، ولم أَشْرَبْ ، ولم أَلْبَسْ ، ولم أُضيِّع ، ولكِنْ أتَى علَى يدَي إمَّا حرق ، وإمَّا سَرَق ، وإما وَضيعَة.

فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: صَدَقَ عَبْدي ، أنَا أحقُّ مَنْ قَضَى عنْكَ اليَوْمَ ، فيدعُو اللهُ بشىء ، فيضعُه في كفَّة ميزانه ، فتَرْجُحُ حسَنَاتُه علَى سيئاته ، فيدخلُ الجنةَ بفضْلِ رَحْمته»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ١٩٨) من حديث عبدالرحمن بن أبى بكر رضي الله عنه. وكذا أخرجه (١/ ١٩٧) ولكن بلفظ: «إن الله عزوجل ليدعو بصاحب الدين يوم القيامة فيقيمه بين يديه فيقول : أى عبدى ، فيم أذهبتَ مال الناس فيقول : أى رب قد علمت أنى لم أفسده ، إنما ذهب فى غرق أو حرق أو سرقة أو وضيعة فيدعو الله عزوجل بشىء فيضعه فى ميزانه فترجح حسناته».

الحق - سبحانه وتعالى - يُقَدِّر حركة الإنسان وعرقه ، مادام قد ضرب فى الأرض وسَعَى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ، ويعتبر سبحانه هذا قَرْضاً من الإنسان لله.

ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعْطِ أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضاً عندى ، صحيح أن العائل هو الذى أعطى المال لكل مَنْ يعول : فما بالنا بالذى أوجدنا جميعاً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟

لقد وهب كلاً منَّا ثمرة عمله ، واعتبر تلك الثمرة ملْكاً لصاحبها ، ويعتبر فوق ذلك إقراضُ المحتاج إقراضاً له.

والحق سبحانه يحمى المقترض من نفسه ، فيقول تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا (٢٨٢)﴾ [البقرة]

فالله - تبارك وتعالى - يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا عَلِم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أنْ يتحرك فى الحياة ليسدَّ هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

فعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحَاثٌ عليه ، لكن إنْ لم يُكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض ، ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتدَّ له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أىِّ أزمة ، فيريد الحق أنْ يُديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة.

ولذلك يقال فى الأمثال العامية : مَنْ يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، ويكون مال الدنيا كلها معه.

إنه يقترض ويُسدِّد ؛ لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونَه أميناً ، ويرونه مُجداً ، ويرونَه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكل المال يصبح ماله.

إنه تشريع سماوى ، فلا تأخذ أحداً الأريحيةُ ، فيقول لصاحبه : نحن أصحاب أو أصدقاء ، فقد يموت واحد منكما ، فإنْ لم تكتب الدَّيْن حرجاً ، فماذا يفعل الأبناء ، أو الأرامل ، أو الورثة ؟

إذن : فإلزام الحق بكتابة الديْن هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رَفْع الحرج بين الأحبّاء ، ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن. لا ، إن المقصود بذلك هو حماية المدين ؛ لأن المدين إنْ علم أن الدَّيْن عليه مُوثَّق حرص أن يعمل ليؤدى دَيْنه.

أما إذا كان الدَّيْن غير مُوثَّق ، فمن الجائز أنْ يكسل عن العمل وعن سداد الدين ، وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضنّ المجتمع الغنى على المجتمع الفقير فلا يُقْرضه ، ويأخذون عجزَ ذلك الإنسان عن السداد ذريعةً لذلك ، ويقع هذا الإنسان الذى لم يُؤدِّ دَيْنه فى دائرة تحمُّل الوِزْر المضاعف ؛ لأنه ضيَّق باب القرض الحسن.

إن الله يريد أنْ يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند مَنْ لا يملك ؛ لأن مَنْ يملك يستطيع أن يُسيِّر حياته ، أما مَنْ لا يملك فهو المحتاج.

لذلك أخذتْ قضية الدين اهتمام الإسلام ليحمى الدائن والمدين معاً ، كى لا تقف حركة التعامل بين الناس ، ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أنْ تسلك طريقها فى عالم الوُدِّ والإخاء المؤمن ، فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صِلَة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك.

يقول لك الحق سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ...(٢٨٣)﴾ [البقرة]

وبهذا القول يُشْعِر مَنْ يحمل أمانةً من الغير بالخجل ، فيعمل على ردِّها وقد يكون الإنسان مسافراً واضطر إلى أنْ يستدين ، ولا يوجد كاتب ولا شهيد ، فماذا يكون الموقف ؟

ها هو ذا الحق يوضح لك ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ...(٢٨٣)﴾ [البقرة] إذن: فلم يترك الله مسألة الدَّيْن حتى فى السفر فلم يشرع فقط للإقامة ، ولكن الحق قد شرع أيضاً للسفر.

والشهادة فى الإقامة والرهان المقبوضة فى السفر هدفها حماية الإنسان أمام ظروف ضغط المجتمع.

ولكن ، هل يمنع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ طموحية الإيثار ؟ هل يمنع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ رجولية التعامل ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى المروءات من أنْ تتغلغل فى الناس؟

لا ، إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ..(٢٨٣)﴾ [البقرة]

إنه الطموح الإيمانى ، لم يسدّ الله مسألة المروءة والإيثار فى التعامل.

وحين نرتقى إلى هذا المستوى فى التعامل فإن وازع الإنسان ليس فى التوثيق الخارج عن ذات النفس ، ولكنه التوثيق الإيمانى بالنفس ، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيمانى عند كل الناس؟

أنضمن الظروف؟ نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية

وقت التحمل والأخذ ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء ، فقد يأتى واحد ويقول لك : إن عندى مائة جنيه فخذها أمانة عندك.

ومعنى «أمانة» أنه لا يوجد صَكٌّ ولا شـهود ، وتكون الذمة هى الحكم ، فإنْ شئتَ أقـررتَ بهذه الجنيهات المائة ، وإنْ شـئت أنكرتها ، إن الرجل الذى يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه فى الذمة الإيمانية.

ومن الجـائز أن تقول له لحظة أن يفـعل معك ذلك: نعم سـأحتـفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة ، وتكون نيتك أن تُؤدّيها له ساعة أنْ يطلبها ، ولكنك لا تضمن ظروف الحيـاة بالنسبة لك ، وأنت كإنسان من الأغـيار ، ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضغطاً يجـعلك تماطل معه فى أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها.

والأمـانة هى القضـية العـامة فى الكون ، وقـد عرضـها الحق سـبحـانه بعمومها على الكون كله ، فقال سبحانه :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ {الأحزاب}

إن الكون كله أشفق على نفسه مـن تحمُّل الأمانة ، وهذا يعنى أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرّف والاختيار ، ولا كائن فى الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء.

لقد أعلنت الكائنات قولها فأبيْنَ تحـمُّلها الأمانة وكأنها قالت: إنّا يا ربنا نريد أن نكون مُسخَّرين مقهـورين لا اختيارَ لنا ؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدى مـهمـته كـما أرادهـا الله ما عـدا الإنسان . أى : أنه الـذى قَبل بما له من عـقل وتفكير أن يتحمَّل أمانة الاختيار . وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال: إننى قادر على تحمُّل الأمانة ؛ لأنى أستطيع الاختيار بين البدائل.

وهنا نُذكِّر الإنسان : إنك قد تكون قـوياً لحظة التحمُّل ، ولكن ماذا عن

حـالك وقت الأداء؟ لذلك قـال الله عن الإنسـان: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

لقد ظلم الإنسـان نفسـه حيث حمل الأمـانة ولم يَف بها ؛ فلذلك فـهو ظلوم ، وهو جـهـول لأنه قـدَّر وقت التـحـمُّل ، ولم يُقـدِّر وقت الأداء ، أو ضمنها ثم خاس وخالف ما عاهد نفسه على أدائها.

ومعنى الأمانة هو: ما يكون لغيرك عندك من حقوق ، وأنت أمين عليها. إنْ شئت فـعلتهـا ، وإنْ شئت لم تفـعلها ، أنت تقول : أنت أودعـتَ عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ؛ لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة.

فالأمانة أن تُودِع عنده شـيئاً ، وضميـره هو الحكم ، إنْ شاء أقرَّ بما عنده لك حـين تطلبـه ، وإنْ شـاء لم يُقـر به ، وقـد يقع التـلاعب أو الإنكار ، لأن الأمانة لا تثبت إلا بذمة الآخذ الذى قـد يضعف عن الأداء ، وتلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال.

ولذلك نجد رسول الله ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وهو عليه دين ، فقال للصحابة: صلوا على أخيكم أما هو فلم يُصَلِّ على الميت ، وتيسـاءل الناس: لماذا لـم يُصَلِّ رسـول الله على هذا الميت؟ ومـا ذنبه؟

كـأن رسول الله ﷺ أراد أن يُعلم المؤمنيـن عن دَيْن المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنـه لم يُصَلِّ عليه حَفْـزاً للناس ودَفْعـاً لهم إلى أنْ يبرئوا ذمـتهم بسداد وأداء ما عليهم من دَيْن.

فـقال رسـول الله ﷺ : «مَنْ أخـذ أمـوال الناس يريد أداءها أدى الله

عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»[1].

فما دام قد مات وهو مدين ، وليس عنده ما يسدّ الدَّيْن ، فربما كان لا ينوى رَدّ الدَّيْن ، وأن نفسه قد حدَّثته بألاَّ يردّ الدَّيْن.

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أنْ يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهْن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدَّم القرض ألاّ يمرّ على المقترض حتى لا يحرجه.

ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض ، أما إنْ تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدين ، فليُفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يُسدِّد به الدَّيْن ، أى: أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يحرج مَنْ يجدّ ويجتهد فى السعى لسداد دَيْنه.

وهناك مَنْ هو معذور بحق ومعذور بباطل ، فالمعذور بحق هو الذى يحاول جاهداً أنْ يُسدِّد دَيْنه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسدُّ دَيْنه ، ولكنه يماطل فى السداد ويبقى المال ينتفع به وهو بهذا ظالم.

ولذلك جرِّب نفسك ، ستجد أن كل دَيْن يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد ، وكل دَين كان بَرْداً وسلاماً على قلبك ، فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أنْ يُسدِّد ، وربما استحييت أنت أنْ تمرَّ

---

(1) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤١٧،٣٦١) والبخارى فى صحيحه(٢٣٨٧) وكذا ابن ماجه فى سننه (١/ ٢٤) من حديث أبى هريرة ﷺ.

عليه مخافة أنْ تحرجه بمجرد رؤيتك.

وهؤلاء لا يطول بهم الدَّيـن طويلاً ؛ لأن الرسـول ﷺ حكم فى هذه القضية حكماً ، فقال ﷺ : «مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

فما دام سـاعة أخذها فى نيتـه أن يؤدى فإن الله ييسر لـه سبيل الأداء ، ومَنْ أخذها يريد إتلافـها ، فالله لا ييسر له أنْ يُسـدِّد ؛ لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه.

ونحن نرى فى حيـاتنا الذين يأخـذون أمـوال الناس بغـيـر حق ؛ نرى مصارف هذه الأشـياء قد ذهبت وأنفقت فـى مهالك ومصائب ، إننـا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ، ومالتْ وجارت على ما كسبوه من حلال.

وأريد من المسرفـين على أنفسـهم أنْ يضعوا لأنفـسهم كشف حـساب فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسـبوه من حرام ، ويكتبوا من ناحية أخرى كل قرش كـسبـوه من حلال ، وليـشاهد كل مـسرف على نفسه فى أَكْل حـقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، وسـيجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضاً من الحلال.

ولذلك قيل :«من أصاب مالاً من مهاوش،[1] أذهبه الله فى نهابر[2]»[3]

وكـذلك فى المقـابل : مَنْ صـدق الناس ووفّى لهم فى بـيـعـه وشـرائه

(١) المهاوش: مكاسب السوء، فهـو كل مال يُصاب من غير حِلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كـالغصب والسرقة ونحو ذلك.[لسان العرب ـ مادة: هوش].

(٢) النهابر: المهالك. أى: أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [اللسان ـ مادة ـ نهبر].

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٣١٣) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له. قال التقى السبكي: لا يصح.

وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّى له ويصدق معه.

وقد نهى الحق سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ.. (٢٩)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتموّل يعتبر مالاً ، ومن حَظِّ المجتمع أن نصون حركة الحياة ، ونُؤمِّن كل متحرك فى الحياة على ماله ، فلا بُدَّ أن نرعى حركة المتحرك ونُنميها ؛ لأن المجتمع ينتفع منها.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يأتى لمسائل المال ويُوضِّحها توضيحاً تاماً ليحمى حركة الحياة ، ويُغرى الناس بالحركة ، وبذلك يتعدّد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستفيد المجتمع.

وهذا أمر لجماعة المؤمنين كلهم ، فالأوامر من الحق ليست مُوجَّهة لطائفة دون غيرها ، فليست هناك طائفة خُلقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خُلقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عُرْضة فى مرة أن يكون آكلاً لمال غيره ، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً.

فأنا إذا أكلتُ مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى ، فأكون قد جسدت له أسوة يقتدى بها ، فيأكل مالى أيضاً ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مال غيرك ، إنما ليحمى لك مالك.

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يصنع من المجتمع الإيمانى مجتمعاً واحداً ، ويقول : إن المال الذى عند كل واحد هو للكل ، وأنك إنْ حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك ، وأنت إن اجترأتَ على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك ، وأنت ساعةَ تأكل مال واحد تُجرِّىء آلاف

الناس على أن يأكلوا مالك ، وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك.

وكيف يتأتَّى أكْل أموال الناس بالباطل؟ هذا هو الآخذ بالربا ، أو الآخذ بالسرقة ، أو بالاختلاس ، أو بالرشوة ، أو بالغش في السلع ، كل ذلك هو أكْل مال بالباطل ، وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ، كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعوَّد على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ، ويصير أَخْذك من غيرك ، أخْذاً لماله كرهاً وبغير وجه حق.

وبذلك تتعطّل حركة مُتحرِّك في الحياة ، وهو ذلك العاطل «البلطجي» ، ويخاف المتحرك في الحياة وهو مَنْ تُفْرض عليه الإتاوة فيقلّ ويضعف نشاطه في الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع؟ إن المجتمع في هذه الحالة سيعاني من كرب وصعوبات في الحياة.

فقوله سبحانه : ﴿ **لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...﴿٢٩﴾** ﴾ [النساء]

هو أمر لكل مسلم: لا تُرَابِ ، ولا تسرق ، ولا تغشّ ، ولا تُدلِّس ، ولا تلعب مَيْسِراً ، ولا تختلس ، ولا ترتشِ؛ لأن كل هذه الأمور هي أَكْل أموالٍ بالباطل.

الحق قال لك: لا تأخذ مال غيرك لكي لايأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة ، فهو أمر للناس جميعاً كي يكفُّوا عن سرقة هذا الإنسان ؟ لذلك فحين تستقبل أيَّ حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين.

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة فلا

يدخل في بطنك إلا ما عرقت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه ، وقبل أن يفكر الإنسان في أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل ، لا أنْ ينتظر ثمرة حركة الآخرين ؟ لماذا.

إن الحق يريد للإنسان أنْ يتحرك ليُشبِع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة ، إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة في الحياة ، بمعنى أن تكون لك حركة في كل شيء تنتفع به ؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعُها عليك ، ولكنها سلسلة متدافعة من الحركات المختلفة.

وحين تشيع أنت شرف الحركة ، فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى في الكون.

وعلى هذا ، فالحركة الحلال لا يكفي فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألا تكون في الباطل ؛ لأن الذي يسرق إنما يتحرك في سرقته ، ولكن حركته في غير شرف وهي حركة حرام.

إذن : كل مسروق في الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغصب ، والتدليس ، والغشّ ، وعدم الأمانة في العمل ، والخيانة في الوديعة، وإنكار الأمانة ، كل ذلك باطل ، وكل حركة في غير ما شرع الله باطلة ، حتى المعونة على حركة في غير ما شرع الله ، كُلُّ ذلك باطل.

إذن: فقولُ الله ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...** (١٨٨)﴾[البقرة] تنبيه للناس ألاَّ يُدخلوا في بطونهم وبطون مَنْ يعولون إلا مالاً من حَقٍّ ، ومالاً بحركة شريفة ، نظيفة ، وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٣)** ﴾ [الطلاق]

ولنا أن نعرف أن مَنْ أكل بباطل جاع بحقٍّ . أي : أن الله يبتليه بمرض

يجعله لا يأكل من الحلال الطيب ، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً ، ويستطيع أنْ يأكل من كل ما فى الكون من مَطْعم ومَشْرب ، ولكن الأطباء يُحرِّمون عليه الأكل من أطعمة متعددة ؛ لأن أكْلها وبال وخطر على صحته ، وتكون النعمة أمامه ومِلْك يديه ، ولكنه لايستطيع أن يأكل منها .

وفى الوقت نفسه ، يتمتّع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل مَنْ يعولهم ، مثل هذا الإنسان نقول له: لا بُدَّ أنك أخذتَ شيئاً بالباطل ، فحرمك الله من الحق.

ومن هنا نقول : «مَنْ أكل بباطل جاع بحق» ، وكذلك نقول «مَن استغلّ وسيلة فى باطل أراه الله قبحها بحق» ، فالذى ظلم الناس بقوته وبعضلاته المفتولة لابُدَّ أن يأتى عليه يوم يصبح ضعيفاً.

والمرأة التى تهزّ وسطها برشاقة لابُدَّ أن يأتى عليها يوم يتيبس وسطها ، فلا تصبح قادرة على الحركة ، والتى تخايل الناس بجمال عيونها فى اليمين والشمال لابُدَّ أن يأتيها يوم وتعمى فلا ترى أحداً ، وينفر الناس من دمامتها.

وقد وصف الحق سبحانه أكل الحرام أنه سُحْت ، وهو كل شى تأخذه من غير طريق الحلال ، كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف ، وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحْت .

قال تعالى عن بنى إسرائيل أنهم : ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ...**(٤٢)﴾ {المائدة}

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها:

﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا**

اكْتَسَبَتْ...(٢٨٦)﴾[البقرة] ، فالحق سبحانه لم يكلفنا إلا بما هو فى وُسْعنا وطاقتنا.

أى: أن الله لن يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به ، وعندما نقول : «واعف عنا» فنحن نتوجه إلى الله ضارعين : أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ؛ ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا.

ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر ، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب.

□□□

٤٩ يَا عَبْدِي .. تَمَنَّ عَلَىَّ أُعْطِكَ

عن جابر بن عبد الله قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: يا جابر ، مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا ؟

قُلْتُ : يا رسُولَ الله ، اسْتُشْهِدَ أَبِي ، قُتِل يَوْم أُحُدٍ، وتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْناً.

قال : أَفَلا أُبشِّركَ بما لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟ قُلْتُ: بلَى يا رسُولَ الله .

قال: ما كلَّم اللهُ أَحداً قَطُّ ، إلاَّ مَنْ وراءِ حِجَابٍ ، وأَحْيَا أَبَاكَ ، فكلَّمه كفاحاً (١) ، فَقَالَ :

يَا عَبْدِي ، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ .

قال : يا ربِّ ، تُحْيِينِي ، فأُقْتَلُ فيكَ ثَانيةً.

قَالَ الربُّ عَزَّ وجَلَّ : إنَّه قَدْ سَبَق منِّي أنهم لاَ يَرجِعُونَ.

قال : وأُنزِلَتْ هذه الآية : ﴿ولا تحسبنَّ الَّذين قُتلُوا في سبيلِ اللَّهِ أَمواتًا بل أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم

(١) كفاحاً : أي مواجهة ، ليس بينهما حجاب ولا رسول . [لسان العرب ـ مادة: كفح]

اللَّهُ من فَضْله وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾ [آل عمران](١).

الشهادة فى سبيل الله هى أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أنْ يصلَ إليها فى الدنيا ، رغم أن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان ، فأنت تُصاب فى مالك ، أو فى ولدك ، أو فى رزقك ، أو فى صحتك ، أما أنْ تصاب فى نفسك فتُقتل ، فهذه هى المصيبة الكبرى.

وقد سَمَّى الحق سبحانه الموت مصيبة ، فقال تعالى :

﴿ **إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ...(١٠٦)** ﴾ [المائدة]

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذى يُقتَل فى سبيل الله لا يموت ، وإنما يعطيه الله لَوْناً جديداً من الحياة ، فيه من النعم مَا لا يُعَدُّ ولا يُحْصى.

يقول جل جلاله: ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤)** ﴾ [البقرة]

ما هو مظهر الحياة التى يعيشونها؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذى قُتِل فى سبيل الله ، ما هى حركته؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة ؛ لأنه سيذهب إلى حياة أسعد ، والموت ينقله إلى خير مما هو فيه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٦١) ، وابن ماجه فى سننه (١٩٠ ، ٢٨٠٠) والحاكم فى مستدركه (٢/ ١٢٠) (٣/ ٢٠٧) ، وابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١/ ٢٦٧) والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٩٨) ، وأورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/ ٣٢٨) .

فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئاً وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها ، أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمى لهم منهج الله ليصل إليهم ، إلى أنْ تقوم الساعة.

إن كل المعارك التى يستشهد فيها المؤمنون إنما هى سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان فى الوجود ، وعظمة الحياة ليست فى أنْ أتحرك أنا ، ولكن أنْ أجعل مَنْ بعدى يتحرك.

والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره فى الوجود لكل حركة من متحرك بعده ، فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمانى دافعاً لتقاتل وتستشهد ، فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة.

أما الكافر فإن الحياة تنتهى عنده بالموت ، ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث اللهُ الناسَ جميعاً ، ثم يأتى بالموت فيموت ، وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا مَوْت ، إما فى الجنة وإما فى النار.

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريدنا أن نعلم أن مَنْ يُقتل فى سبيل الله هو حَىٌّ عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة ، ولا يُكتب عليه الموت فى حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل مَنْ يموت ميتة طبيعية ، ولا يموت شهيداً ؛ ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنّا تفاصيلها ؛ لأنها من حياة الآخرة ، وهى غَيْبٌ عنا.

قال تبارك وتعالى : ﴿**وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** (١٥٤)﴾ [البقرة]

وما دُمْنَا لا نشعر بها ، فلا بُدَّ أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية ، والذى اسْتُشهد فى عُرْف الناس سلب نفسه الحياة ، ولكنه فى عُرْف الله أخذ حياة جديدة ، ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو ، فنقول : إنه ميت أمامنا.

لا بُدَّ أن تتنبه أنك لحظةَ فتحتَ عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، والله سبحانه قال : ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ...﴿١٦٩﴾﴾[آل عمران].

ولم يقل : أحياء فى عالم الشهادة ، فهو حَىٌّ ما دام فى عالم الغيب ، ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسداً ميتاً فى قبره وليس حياً ، لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

أما كيف ؟ قُلْنَا: إن الغيب ليس فيه كيف ؛ لذلك لن تعرف ، وليس مطلوباً منك أن تعرف.

إننا حين نُجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكى يفقده الوعى والحسّ ، ولكن لا يعطيه له ليموت ، ثم يبدأ يُجرى العملية فلا يشعر المريض بشىء من الألم ، فالمادة لا تحسّ لأنها هى التى أجريت عليها العملية ، والجسد لا زال فيه الحياة من نبض وتنفس ، ولكنه لا يحس ، ولكن النفس الواعية التى غابتْ هى التى تحسُّ بالألم.

أنت عندما يكون هناك ألم فى جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم ، فكأن الألمَ ليس مسألة عضوية ، ولكنه مرتبط بالوعى ، فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة ، والعلماء فحصوا مُخَّ الإنسان وهو نائم ، فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوانٍ يرى فيها رُؤْيَا يظل يحكيها ساعات.

فإذا قال الحق ـ تبارك وتعالى:

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ...﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]

فلا بُدَّ أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده.

والله عز وجل أراد أنْ يُقرِّب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم ،

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى**... (٤٢) ﴾ [الزمر]

فكأن الحق جل جلاله يعطى الشهداء حياةً دائمة خالدة لأنهم ماتوا فى سبيله ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ **وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** (١٥٤) ﴾ [البقرة] فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسِّك ؛ لأنك لن تدركها ، على أن الشهيد لا بُدَّ أنْ يُقتَل فى سبيل الله وليس لأيِّ غرض دنيوى ، وإنما لتكون كلمة الله هى العليا.

ويقول الحق سبحانه عن أولئك الذين قُتلوا فى سبيل الله ، فيقول تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

فهؤلاء الذين قُتلُوا فى سبيل الله ليسوا بميِّتين ؛ لأن حياتهم حياة موصولة ، إن هناك فارقاً كبيراً بين الموت والشهادة ، فالذى يُقتَل شهيداً تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى: بقانونه سبحانه ، فلا تُحكِّم قانونك أنت ، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحتَ القبر ستجد هؤلاء القتْلى مجرد أشلاء ، هم عندك أشلاء وأموات فى قانونك أنت ، لكنهم أحياء عند ربهم يُرزَقُون.

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا؟

إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، فهو فى ظاهر الأمر انتهى ولم يَعُدْ ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعِل لاستبقاء الحياة ، وما دام الرزق قد صُنِع لاستبقاء الحياة ، وليس فيه حياة. إذن : فلا رزقَ ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حَيٌّ.

ومن ضروريات الحياة أنه يُرزَق ، أى: ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العِنْدية عندك غير العِنْدية عند الله ، فالشهيد حيٌّ عند ربه ، ويُرزق عند ربه رزقاً يناسب الحياة التى أرادها له ربه ، ونعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء.

وعندما نقرأ قول الله : ﴿**أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)**﴾ [آل عمران]

قد يقول قائل: من الجائز أنك تأخذ إنساناً وتُبقيه حياً ، وتعطيه طعاماً وشراباً ، لكن أهو فَرِحٌ بموقعه؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست فى قبره ، ولكنها عند ربه وهو فرِح بموقعه.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)**﴾ [آل عمران]

والعدل يتحقق بين البشر بأن كُلاً منهم يموت ، ولكن الفضل أن يُعجِّل الله انقضاء الحياة فى الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد ، وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه.

﴿**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (١٧٠)**﴾ [آل عمران]

وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأُخوَّة الإيمانية قد بقيتْ فيهم وليست كخاصية الأحياء ، بل أنْقى وأبْقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضى أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه.

والشهداء فى حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدلّ على أن الحياة التى يحياها الشهداء هى حياة نامية ، فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضلٌ من الله قد فَضَّله به.

ولذلك ، فالشهيد يستبشر بالذى لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ، ويقول : ياليتهم يأتون ليروْا ما نراه.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم...(١٧٠)﴾ [آل عمران]

فالشهداء يقولون: إنهم سيأتون لنا ، وما داموا سيأتون لنا فنحن نَحنُّ أن يكونوا معنا فى النعيم والخير الذى نحيا فيه ، وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه ؛ لأنه يعلم قول الرسول ﷺ : «لايكملُ إيمانُ أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه»[1] .

وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ :«لما أصيب إخوانكم يوم أُحُد جعل الله أرواحهم فى أجواف طَيْر خُضْر ، تَردُ أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش .

فلما وجدوا طيب مأكلهم ومَشْربهم وحُسْن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنَا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا يَنكُلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أُبلغهم عنكم[2] فأنزل الله هذه الآيات : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩)﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) كتاب الإيمان من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ:«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٦٦) وأبو داود فى سننه (٢٥٢٠) ، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٨،٢٩٧) والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما

لقد رأى رسـول الله ﷺ الذين يقاتلون فى سـبيل الله وعُـرِض عليه منظرهـم وهو فى ليلة الإسـراء والمعـراج ، رأى ﷺ جـمـاعـة يزرعـون ويحصدون بعد البَذْر مباشرة ؛ لأن الذى قُتِل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاءً لكلمة الله ، فـلا ينتهى قطفه أبداً للخـير الذى بذله ، وحياة مـستمرة فى حـياة الملايين.

والحق سبحـانه يقول فى آية أخرى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)**﴾ {التوبة}

وكلمة (اشْتَرَى) تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع ، وإذا كان هذا ملْكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع.

وما الثمن؟ يأتى التحديد من الحق ﴿**بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**.. (١١١)﴾ {التوبة}.

هذا هو الثـمن الـذى لا يَفْنى ولا يَبْلَى ، ونعـيـمـك فـيـهـا على قَـدْر إمكانيـات الله التى لا نـهايـة لها ، أمـا نعـيـمك فى حـيـاتك فـهـو على قَـدرْ إمكانياتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وما دام سبحانه هو الذى اشترى فلا بُدَّ أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها.

وحينما جاء الأنصار فى بيعة العـقبة لرسول الله ﷺ قال له عبدالله ابن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . قال :«أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشتـرط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فما لَنَا إذا فعلنا ذلك؟

ماذا قـال رسول الله ؟ أقال لهم : سـتفتـحون قصـور بُصرى[1] والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شـيئـاً من هذا ، بل قال «الجنة» ؛ لأن كل شيء في الدنـيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا : «ربح البيع ، لا نقيلُ ولا نستقيل»[2] .

وبمجرد عَقْد الصفقة العَهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار[3] كان من الممكـــن أنْ يمـوتَ واحـد أو اثنان أو ثـلاثة قـبل أنْ يبلغ الإســلام حظّه وذرْوته ، وقد يُقال : فلان مات ولم يأخذ شـيئاً من ماديات الحياة ، لكنه ﷺ حين قال :«الجنة» فمن مات يدخلها.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴿١١١﴾﴾[التوبة] هذا هو الثـمن ، وهو وَعْد يأتى بشىء يأتى من بعد ، ولكنه وَعْد ممَّنْ يملك إنفاذه ؛ لأن الذى يقدح فى وعود الناس للناس ، أنـك قـد تَعـِـدُ بشىء ولكن تظل حـــياتك ولا تفـى به ، أو أنْ تقلّ إمكاناتك عن التنفيذ.

ونحن نعرف قـصة الصـحابى الذى قال لرسـول الله ﷺ : أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أَلْقَى هؤلاء فيـقتلونى؟ قال له : نعم ، فأخـرج الصحابى تمرة كانت فى فمه ، ودخل إلى القتال ، وكأنه يستعجل الجنة[4] .

وما دام اللـه قد اشتـرى من المؤمن نفسـه فيـجب على المؤمن ألاَّ تُهـمه

---

(١) بُصْرى : قرية بالشام. (لسان العرب ـ مادة : بصر).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية ، وقـد أورد سبب نزول هذه الآية السـيوطى في أسبـاب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشـعب ، وعزاه لابن جرير الطبري من مـرسل محمد بن كعـب القرظي ، وكذا أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩١) والقرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٣).

(٣) كانوا ثلاثة وسبـعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم: سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وأبو مسعود الأنصارى والبراء بن معرور وسعد بن عـبادة ، والمرأتان هما: نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو.

(٤)وذلك أن رجـلاً جاء إلى رسـول الله ﷺ يوم أُحد فـقال له: أرأيت إن قُـتلت فأين أنا؟ قـال : فى الجنة. فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البـخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم فى صحيحه (١٨٩٩) من حديث جابر بن عبدالله.

نفسه ، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمتَّه نفسه يبدأ بالقلق والبلبلة والاضطراب وتوهُّم الأشياء.

والحق سبحانه ساعة يقول : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى...**(١١١)﴾[التوبة] تجد بشرة المؤمن تطفح بالسُّرور والبِشْر ، ويحدث له تهلُّل وإشراق مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار؛ ولذلك يقول الحق: ﴿**فَاسْتَبْشِرُوا...**(١١١)﴾ [التوبة] أي : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً.

﴿**فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ...**(١١١)﴾[التوبة] وهل يستبشر الإنسان بالبيع؟ نعم؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغنى عنه عادة ، ويشترى ما يحتاج إليه ، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباقٍ.

﴿**وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١١١)﴾[التوبة] والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة فى عُرْف العقل الواعى ، فهناك «فوز» ، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا ، أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ، ولا أنت تفارقها ، فيكون هذا هو الفوز الذى لا فَوْزَ أعظم منه.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٢٠)﴾ [التوبة]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، وما دام هؤلاء هم الفائزون فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين ، فالذين يصنعون أموراً خاصة

بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم ، ولكن نعيمهم على قَدْر إمكاناتهم ، وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أنْ يزول عنهم بذهاب النعمة ، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت. إذن : فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته ، فسوف يفوز بنعيم لا على قَدْر إمكاناته ، ولكن على قَدْر إمكانات الله ، ولا مقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خَلْقه ، وفوق ذلك فهو نعيم دائم لا يتركك فيزول عنك ، ولا تتركه ؛ لأنك فى الجنة خالد لا تموت.

ويقول تعالى أيضاً :

﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) ﴾

[النساء]

فالحق سبحانه يُرغِّب المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا ، فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصَّفِّ الإيمانى؛ لأنه ما دام قد نفع نفسه بالإيمان فلمَ لا ينضم إلى ركب مَنْ ينفع سواه بالإيمان؟

ويريد الله أنْ يُعبىء كل مَنْ مسَّ الإيمانُ قلبَهُ ، وحتى ولو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله ، وليخرج منضماً إلى إخوته المؤمنين ، وليشيع الإيمان لسواه ، ويُعبِّر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه.

٥٠ هَؤُلاءِ يُحبهم اللَّهُ

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى إذَا أَحبَّ عَبْداً نَادَى جِبْرِيل: إنَّ اللهَ قَدْ أَحبَّ فُلانَاً فَأحِبَّه. فيُحبه جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنادِي جِبْرِيلُ فى السَّماءِ:

إنَّ اللهَ قَدْ أَحبَّ فُلاَنَاً فَأحِبُّوهُ. فيُحبُّه أَهْلُ السَّماءِ وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِى أَهْلِ الأَرْضِ» (١).

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦) ﴾ [مريم]

أي : سيجعل لهم مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلُّق ، وقد جعل الحق سبحانه فى كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تَراه مُقْبلاً عليك تقوم له وتبشُّ فى وجهه ، وتفسح له فى المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعودُه إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح ، وتواسيه فى الأحزان ، وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة.

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة فى الدنيا بين الخَلْق جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم.

أما هنا : ﴿ **سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦) ﴾ [مريم]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٥١٤) والبخارى فى صحيحه (٣٢٠٩ ، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥) ومسلم فى صحيحه (٢٦٣٧) والترمذى فى سننه (٥/ ٣١٦١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

أى : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأن ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له: إنِّى أحبك لله.

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فَضْلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة.

لذلك قال هرم بن حيان (١) : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه فتح له قلوب المؤمنين جميعاً (٢).

كما جاء فى الحديث القدسى:«ما أقبل علىّ عبد بقلبه إلا أقبلتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً»(٣) أى : بالمودة والرحمة دون أسباب.

وكذلك الحديث الذى معنا «إن الله إذا أحبَّ عبداً نادى فى السماء: إننى أحببتُ فلاناً فأحبُّوه ، وينادى جبريلُ فى الأرض: إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه ، ويُوضَع له القبول فى الأرض».

فيحبه كل مَنْ رآه عطيةً من الله وفَضْلاً ، دون سبب من أسباب المودة ،

---

(١) هو : هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه.

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٣٣) :«كان هرم بن حيان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

(٣) أورد الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٧) عن أبى الدرداء ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه .. وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع» رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب.

وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهبَ لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهي في يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء.

والحق تبارك وتعالى من أسمائه «الودود».

قال تعالى :﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** (٩٠)﴾ [هود]

والوُدُّ هو الحبُّ ، والحبُّ يقتضى العطف على قَدْر حاجة المعطوف عليه.

ولله المثَل الأعلى: نرى الأم ولها ولدان: أولهما قادر ثرى يأتى لها بما تريد ، وثانيهما ضعيف فقير ، فنجد قلب الأم ـ دائماً ـ مع هذا الضعيف الفقير ، وتُحنِّن قلب القوى القادر على الفقير الضعيف.

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على مَنْ سألها: أىّ أبنائك أحبّ إليك؟ فتقول : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى

إذن: فالحبُّ يقتضى العطف على قَدْر الحاجة.

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

«يا بْنَ آدمَ ، لا تخافَنَّ من ذى سُلْطان ، ما دام سُلْطانى باقياً ، وسلطانى لا ينفد أبداً.

يا بْنَ آدمَ ، لا تخْشَ من ضيق رِزْقٍ ، وخزائنى ملآنة ، وخزائنى لا تنفدُ أبداً.

يا بْنَ آدمَ ، خلقتُكَ للعبادة ، فلا تلعبْ ، وضمنتُ لك رزقكَ فلا تتعبْ ، فوعزتى وجلالى إنْ رضيتَ بما قسمتُه لك أرَحْتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قسمتُه لك ، فوعزَّتى وجلالى لأُسلِّطن

عليك الدنيا ، تركض فيها رَكْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمتُه لك.

يا بْنَ آدمَ ، خلقْتُ السماوات والأرضَ ولم أعْىَ بخَلْقهن ، أيُعيينى رغيفُ عَيْشٍ أسوقُه لك؟

يا بْنَ آدمَ ، لا تسألنى رزْقَ غَدٍ كما لم أطلُبْ منك عَمَلَ غَدٍ.

يا بْنَ آدمَ ، أنَا لكَ مُحِبٌّ فَبِحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً».

والحب هو مَيْل قلب المحب إلى المحبوب ، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر ، لكن بالنسبة للحق سبحانه هو تودُّد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق.

فحبُّ الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته سبحانه فى التكليف ، أن الله يحب العبد الذى يعرف قيمة النعمة فى التكليف.

ودليل صدْق الحب هو قيام العبد بالتكليف ، وما دُمْتَ أنت قد عبَّرت عن صدْق عواطفك بحبك لله ، فلا بُدَّ أنْ يحبك الله ، وكُلٌّ منَّا يعرف أن حُبَّه لله لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، لكن حُبَّ الله لك يُقدِّم ويُؤخِّر.

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأنْ يحبك الله ، إن التكليف قد يبدو شاقاً عليك فتهمل التكليف ؛ لذلك نقول لك: لا يكفى أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده ؛ لأنك بذلك تكون أهملتَ نعمة تكليفه التى تعود عليك بالخير.

إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان فلا تهملها.

وقد فصَّل لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أصناف المؤمنين الذين يحبهم الله.

الله يحب المحسنين:

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يحب من عباده أن يكونوا على خُلقه ، فكما أن الله أحسن كل شىء خَلَقه يريد من عباده وقد تفضلَّ عليهم بالعقل المفكر فيخطط ، وبالطاقات فتبرز التفكير إلى عمل ، يريد الحق منَّا أن يكون رائدنا فى كل عمل أنْ نحسنه ، حتى نكون مُتخلِّقين بأخلاق الله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٩٥) ﴾ [البقرة]

والإحسان كما علَّمنا رسول الله ﷺ :«أن تعبد الله ـ أى تطيع أوامره ـ كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإن يراك» (١) .

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهون بـ «فإنه يراك» فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة فى المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سير العمل فى أرجاء المحل ، هذا فعل البشر ، لكن انظر إلى تسامى الإيمان ، إنه يأمرك أنت أن ترى الله ، فلا تؤد العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتب ، بل عليك أن تؤدى العمل بقصد الإحسان فى العمل (٢).

والإحسان فى كل شىء هو إتقانه إتقاناً ، بحيث يصنع الإنسان لغيره

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة ﷺ وهو حديث جبريل الذى قال عنه ﷺ فى هذا الحديث :«هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

(٢) قال النووى : هذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين . وهو من جوامع الكلم التى أوتيها ﷺ ، وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشىء من النقائص احتراماً لهم واستحياء منهم ، فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه فى سره وعلانيته؟ نقله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١/ ١٢٠) .

ما يحب أن يصنعه غيره له ، ولو تعامل الناسُ على هذا الأساس لامتازتْ كل الصناعات ، لكن إذا ساد الغشّ فأنت تغشُّ غيرك ، وغيرك يغشُّك ، وبعد ذلك كلنا نجأر بالشكوى.

علينا إذن أنْ نُحسِن في كل شيء ، مثلاً نُحسِن في الإنفاق ، ولن نحسن في الإنفاق إلا إذا أحسنَّا في الكَدْح الذي يأتي بثمرة ما ننفق؛ لأن الكدح ثمرته مال ، ولا إنفاقَ إلا بمال ، فتخرج من عائد كدْحك لتصرفَه في المناسب من الأمور.

ودائرة الإحسان لا تقتصر على الإنفاق فقط ، فالأمر هنا عام ، ولا تعتقد أنه أمر في زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم جزئية من جزئيات الحياة ، إنما كل زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم كل جزئيات الحياة ، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضي أنْ يُحسن الإنسان الحركة في الأرض ، ويعمل عملاً يكفيه ويكفي مَنْ يعول ، ثم يفيض لديه ما يُحسِن به.

فوجوه الإحسان في الأشياء كثيرة ، وكلها تخدم قضية الإيمان ، وعندما يرى الكافر المؤمنين ، وكل واحد منهم يُحسِن عمله ، فإن ذلك يُغريه بالإيمان.

وإذا سألنا: ما الذي زَهَّد دنيانا المعاصرة في ديننا؟

فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين ، وهي حركة غير إسلامية في غالبيتها ، صحيح أن بعضاً من عقلاء الغرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين ، وهذا منتهى العدالة منهم؛ لأنه ربما كان بعض المسلمين غَيْرَ ملتزم بدينه ، فلا يأخذ أحدٌ الإسلام منه لمجرد أنه مسلم.

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون أن هناك أفعالاً جرَّمها دينهم ، ومادام هناك أفعال جرَّمها الدين وسَنَّ لها عقوبة ، فذلك دليل على أنها قد تقع ، فأنت عندما ترى شخصاً ينتسب إلى الإسلام ويسرق ، هل تقول: إن المسلمين لصوص. لا ، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام ، هل جرَّمت السارق أو لم تجرمه ؟

فلا يقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين ، ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام؛ لأن الله قدَّر على البشر أن يقوموا بالأفعال حَسنها وسيئها ؛ ولذلك أثاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيء.

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادىء الدين نفسه ، ولا يأخذونه من سلوك الناس ، فقد يجوز أن تقع عَيْن المراقب على مُخالف فى مسألة يُحرِّمها الدين ، فلا تأخذ الفعلَ الخاطىء على أنه الإسلام ، وإنما خُذْه على أنه خارج على الإسلام.

وساعةَ يرانا العالم محسنين فى كل شيء فنحن نعطيهم الأسوة التى كان عليها أجدادنا ، وجعلتْ الإسلام يمتدّ ذلك المدّ الخرافى الأسطورى حتى وصل فى نصف قرن إلى آخر الدنيا فى الشرق ، وإلى آخرها فى الغرب ، وبعد ذلك ينحسر سياسياً عن الأرض ، ولكن يظل كدين ، وبقى من الإسلام هذا النظام الذى يجذب له الناس.

إن الإسلام له مناعة فى خميرته الذاتية ، إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته ، وهو الذى يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به ، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام.

ولذلك أقول: لو أن التمثيل السياسى للأمم الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية المتحضرة قد أخذ بمبادىء الإسلام لكان أُسْوة حسنة.

إذن: الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام.

ولو علم الذين لا يُحسنون أعمالهم ، بماذا يحرمون الوجود لتحسَّروا على أنفسهم ، ولَيْتَهم يحرمون الوجود من كلمة «الله» ، ولكنهم يجعلون مكان «الله» كلمة خبيثة ، فيشيعون القُبح فى الوجود ، وحين يشيع القبح فى الوجود يكون الإنسانُ فى عمومه هو الخاسر.

ويعطينا الحق سبحانه جانباً آخر من الإحسان ، فيقول:

﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)** ﴾ [آل عمران]

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يبيح أن ترد الاعتداء بالمثل ، ثم يُفسح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدى ، ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نُخرج المسألة من قلوبنا ، ثم يترقى ارتقاءً آخر ، فيقول سبحانه: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)** ﴾ [آل عمران]

ومَنْ فينا غير راغب فى حب الله؟

وعملية الإحسان مع المسىء أو المعتدى: أهى عملية منطقية مع النفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تُشرِّع لنفسك ، إنما الذى يُشَرِّع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية.

والخالق يقول: لو علمتَ ما قدمه لك مَنْ أساء إليك لأحسنتَ إليه؛ لأنك إنْ أسأتَ إلى خَلْق من خَلْق الله ، فالذى يثأر ، ويأخذ الحق لمن أُسىء إليه هو رَبُّ هذا المخلوق ، ويأتى الله فى صَفٍّ الذى تحمَّل الإساءة.

إذن : فإساءةُ العدو لك جعلَت اللهَ فى صَفِّك وفى جانبك ، أَلاَ يستحق ذلك المسىء أنْ تشكره؟ أَلاَ تقول لنفسك القول المأثور: أَلاَ تُحسن إلى مَنْ جعل الله فى جانبك.

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ، والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو مَنْ يعبد الله كأنه يراه ، فإنْ لم يكن يراه فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يرى كل خَلْقه.

ونحن نعرف قَوْل الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦﴾ {الذاريات}

ما الذى جاء بالإحسان هنا؟

وتكون الإجابة: **﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**[١] **۝١٧﴾** {الذاريات}

وهل يُكلِّف الله خَلْقه ألاَّ يهجعوا إلا قليلاً من الليل ؟ لا ، فقد كلَّف الله المسلمَ بالصلاة ، وأعلمه بأنه حُرٌّ بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإنْ سَمع أذان الفجر فليقُمْ إلى صلاة الفجر ، لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه ، فيزيد من صلواته فى الليل.

ويضيف الحق سبحانه مُذكِّراً لنا بصفات المحسنين:

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ {الذاريات}

أكلَّف الله الخَلْق بأنْ يستغفروا بالأسحار؟ لا ، بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ، ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيدُ على هذا ولا أنقص ، فقال الرسول ﷺ : «أفلح إن صدق»[٢].

---

(١) الهجوع: النوم ليلاً . (القاموس القويم ٢/ ٢٩٨) .

(٢) عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات فى اليوم والليلة. فقال : هل علىَّ غيرهن؟ قال: لا ، إلا أن تطوع وصيام =

ويضيف الحق سبحانه فى استكمال صفات المحسنين :

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

ونلحظ أن الحق هنا لم يَقُلْ «حَقٌّ معلوم» إنما قال: «حَقٌّ للسائل والمحروم» فالحقُّ المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حَقٌّ غَيْر معلوم ، وذلك ليُفْسِح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية ، فمَنْ يزدْ فى العطاء فله رصيد عند الله.

فالإحسان كما نعلم له وجهان:

الوجه الأول: أن يعبد المؤمن اللهَ كأنه يراه ، وكلما جاء تكليف يُحسن المؤمن فى أدائه ، كأنه يرى الله ، وإنْ لم يكن يراه فإنه يُحسُّ أنه سبحانه يراه ، وإذا ما استوعب المسلم كُلَّ أحكام الله التى استوعبتْ بدورها كُلَّ أقضية الحياة ، فهو يُحسن أداء هذه الأحكام.

الوجه الثانى: أن يزيد المؤمن فى أداء هذه التكاليف فوق ما فرض الله ، وهى النوافل ، وبذلك لا يكتفى المؤمن بتصديق الأحكام التى نزلت ، بل يزيد من جنسها.

إذن : فالمحسن هو من عشق التكليف من الله وعرف منزلة القرب من الله ، فوجد أن الله قد كلَّفه دون ما يستحق سبحانه منّا ، فزاد من العمل الذى يزيده قُرْباً من الله.

= شهر رمضان ، فقال : هل علىّ غيره؟ فقال : لا إلا أن تطوع وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال: هل علىَّ غيرها؟ قال :لا إلا أن تطوع . قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق . أخرجه مسلم فى صحيحه (١١) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٤٦ ، ١٨٩١)

الله يحب التوابين:

الله يحب التـوبة من عباده ، وهو سـبحانه أفـرَحُ بتوبة عـبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضلَّه فى فلاة ؛ لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتـعطيـه نَفْعـاً عاجـلاً ، فـإن حلاوة الإيمـان ـ إنْ كان مـؤمناً ـ ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصى.

إن الإنسـان حين يُذنب ذنْبـاً ينفلت من قـضيـة الإيمان ، ولو لم تشـرع التوبة والعـفو من الله لَزادَ الناس فى معاصـيهم وغَرقوا فيـها ؛ لأنه إذا لم تكُنْ هناك توبة ، وكـان الذنب الواحد يُؤدِّى إلـى النار ، والعقـاب سينال الإنسـانَ فإنه يتمادى فى المعصية ، وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده.

وفى حديث رسول الله ﷺ :

«لله أفرح بتوبة عـبده من أحدكم سقط على بعـيره وقد أضله فى أرض فلاة» (1) .

معنى حـديث رسول الله ﷺ : رجل مـعه بعـير يحـمل ماله وطعـامه شرابه وكل ما يملكه ، هذا البعير ضَلَّ فى صحراء جرداء ، بحث عنه صاحبه فلم يجده ، لقـد فقده وفقـد معه كل مُـقوِّمات حيـاته ، ثم ينظر فيراه أمـامه ، كيف تكون فـرحتـه؟ طبعاً سـتكون فرحتـه بلا حدود . هكذا تكون فَـرْحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن ، بل أشدّ من ذلك.

وقد قال الحق سبحانه فى الحديث القدسى:

«يَا بْنَ آدمَ ، إنك ما دعوْتَنى ورجَوْتَنى غـفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالى.

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) عن عبـدالله بن مسعود ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك.

يَا بْن آدمَ ، لَوْ بلغَتْ ذُنُوبُك عَنانَ السَّمـاء ثُمّ اسْتغْفـرتَنى غَفرتُ لَكَ ولاَ أُبَالى.

يا بْنَ آدمَ ، إنك لو أتيتَنـى بقُراب الأرض خَطَايا ثم لَقيـتَنى لا تُشرك بى شيئاً لأتيتُكَ بقُرابها مَغْفرةً» (١).

والتوبة رحمة من الخالق سبحانه ينعم بها على مَنْ يشاء من عباده ، هذه الرحمة قريبة من المحسنين ، كما قال تعالى :

﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)** ﴾ [الأعراف]

ولكن ، مَن الذى يُحدِّد قُرْب الرحمة منه؟

إنه الإنسـان ، فإذا أحسن قـرُبَتْ منه الرحـمة ، والزمام فى يـد الإنسان ؛ لأن الله لا يفتئتُ ولا يسـتبدّ بأحد ، فإنْ كنتَ تريد أن تقـرب منك رحمة الله فعليكَ بالإحسان.

ولذلك قُلْنَا: إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: «لا أملّ حتى تملوا» .

وأنت تدخل بيوت الله تصلى فى أى وقت ، وتقف فى أى مكان لتؤدى الصلاة. إذن :فاستحضارك أمام ربك فى يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقـية الأوقات كلها فى يدك ، وتسـتطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة وتتوب إليه وتستغفره.

وسبحانه يقول:«ومَنْ جاءنى يمشى أتيته هَرْولة»

وهو جَلَّ وعلا يوضح لك: اسـترح أنت وسآتى لك أنا ؛ لأن الجـرى قد يُتـعبك ، لكنى لا يـعتـرينى تَعَبٌ ولا عىٌّ ولا عـجز ، وكـأن الحق لايطلب من العبد إلا أنْ يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه.

إذن: فالمسألة كلها فى يدك.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) والترمذى فى سننه (٣٥٤٠) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٢٢) من حديث أبى ذر الغفارى رضي الله عنه.

الله يحب المتقين:

يقول الحق سبحانه:

﴿**بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**(٧٦)﴾ {آل عمران}

قد يفهـم البعض هذا القول بأن مَنْ أوفى بعهـده الإيمانى واتقى الله فى أنْ يجعل كُلَّ حـركاته مطابقـة لـ «افعل» و«لا تفـعل» فإن الله يحـبه ، هذا هو المعنى الذى قد يُفهم للوَهْلة الأولى ، لكن الله لم يقُلْ ذلك. إن الحب لا يرجع إلى الذات ، بل يرجع إلى العمل.

لقد قال الحق سبحانه: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** (٧٦) ﴾ {آل عمران}

إن الإنسان قد يخطىء ويقول: «لقد أحبنى الله ، وسأفعل من بعد ذلك ، مـا يحلُو لى» ونحن نُذكِّـر صاحب هذا الـقول بأن الله يحب الـعمل الصـالح الذى يؤديه العبد بنيّة خالصة لله ، وليس للذات أىُّ قيمةْ.

لذلك قال:

﴿**مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** (٧٦) ﴾ {آل عمران}

إن الذين أوفى بعهده واتقى سيحب الله فـيه التقوى ، وإياك أنْ تفهمَ أن الحب من الله للعـبـد سيـصـبح حُبـاً ذاتيـاً ، لكنه حُبٌّ لوجـود الوصف فيـه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائماً ، لتظل فى محبوبية الله.

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أىِّ شىء يُغضب الله وقايةً ، وإن تعجَّب بعض الناس من قوْل الحق سـبحانه وتعالى ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**(١٩٤)﴾(البقرة) وقوله ﴿ **فَاتَّقُـوا النَّارَ**(٢٤)﴾(البـقـرة) فإننا نقـول : إن مـعنى «اتقـوا الله» أى : اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت لله وقـاية ، اتقوا صفات الجبروت فى الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فلله صفاتُ جـلال منها: المنتقم والجبار. والقهّار ، وله صفات جمال مثل: الرحيم والوهّاب والرزّاق والفتّاح.

إذن: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقايةً لكم ، وحمايةً من أنْ تتعرَّضوا لغضب الله تعالى ، والإنسان يتقى صفات الجلال فى الله بأن يتبع منهجه ويُطيعه فى كل ما أمر به ؛ لينال من فَيْض صفات الجمال.

وقوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا النَّارَ** (٢٤) ﴾(البقرة) أى: اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسّكم النار.

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ، ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية.

الله يحب الصابرين:

الصبر هو مَنْع النفس من الجزع من أىِّ شيء يحدث وهو يأخذ ألواناً شتى حَسْب تسامى الناس فى العبادة ، فمثلاً سُئِلَ الإمام على - ﷺ - عن حَقِّ الجار؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه؟ قالوا: نعم قال: وأن تصبر على أذاه.. فكأنه ليس مطلوباً منك فقط ألاَّ تؤذى جارك ، بل وتصبر على أذاه.. والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ، ولا تفعل ما نهاك الله عنه.

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس ، وأمرك بأشياء فيها مشقة ، وهذه محتاجة إلى الصبر ، وأنت إنْ أخذتَ منهج الله تعبُّداً ستأخذه فيما بعد عادة.

يقول أحد الصالحين فى دعائه: اللهم إنى أسألك ألاَّ تكلنى إلى نفسى ، فإنى أخشى يارب ألاَّ تثيبنى على الطاعة ؛ لأننى أصبحت أشتهيها.

فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا.. انظر إلى الطاعة من كثرة حُبِّ الله أصبحت مرغوبة مُحَبَّبة إلى النفس.

والحق سبحانه يقول:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١٥٣) ﴾ [البقرة]

أي: أنه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معية الله ، فأنت لو واجهت المشكلات فى معيّة مَنْ تثق فى قوته تواجه الأمور بشجاعة ، فما بالك إذا كنت فى معية الله ، وكل شيء فى الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله؟

إن الأحداث لا تملأ الخَلْق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم ، وأما مَنْ يعيش فى حضانة ربه فلا يجرؤ عليه الشيطان ، فالشيطان خنَّاس ، فإذا سهوْتَ عن الله اجترأ عليك ، وإذا ذكرتَ الله خنسَ وضَعُفَ ، فهو لا قوةَ له ، وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة ، وإنما يدخل مع خَلْق الله الذين ينسَونَ الله ويبتعدون عنه.

وما دام الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع الصابرين فلا بُدَّ أن نعشق الصبر ، وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا؟

يقول الحق ـ جَلَّ جلاله ـ فى الحديث القدسى :

«يا بْنَ آدم ، مرضتَ فلم تَعُدْنى. قال: ياربّ وكيف أعودك وأنت رَبُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنه لو عُدْتَهُ لوجدتنى عنده» (1).

يقول بعض الصالحين: اللهم إنى أستحى أنْ أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زُهْداً فى معيتى لك. إذن : لا بُدَّ أنْ نعشق الصبر؛ لأنه يجعلنا دائماً فى معية الله.

ويقول الحق سبحانه :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبى هريرة ﷺ.

وما دام سبحانه يقول: اصبروا ، فلا بُدَّ أن يكون هذا إيذاناً بأن فيه مشقةً ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ، لذلك لا بُدَّ أنْ تكون فيه مشقات.

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس مفصولةً عن المجتمع فإن الصبر يقتضى أنْ تصبر على تنفيذ أمر الله فى فعْل الطاعات ، وعلى تحمُّل الألم منه فى تَرْك المعاصى ، وإنْ كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها ، فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تُلِحّ عليك.

فمجاهدة المؤمن أنْ يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى يُحرِّمها الله.

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : إننى خلقتُك ، وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ؛ لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إنْ فعلتها ستُورثك مشقةً فى ذاتك ، اصبر عليها.

إذن: ففى الأوامر صَبْر على تنفيذها ، وفى المناهى صَبْر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات ، أما إذا تعدَّتْ المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى فالحق سبحانه يقول: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (١٧٧) ﴾ [البقرة]

الله يحب المتوكلين:

إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكُّل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكّل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يُتوكّل فيه.

ونقول للرجل الذى يدَّعى أنه يتوكّل ولا يعمل: أنت لستَ مُتوكّلاً ، ولو كنتَ صادقاً فى التوكل إياك أنْ تمدَّ يدك إلى لُقْمة وتضعها فى فمك ، كُنْ مُتوكِّلاً كما تدعى ، ودَعِ التوكلَ يضع لك اللقمة فى فمك ، واترك التوكل ليمضغها لك.

وطبعاً لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضاً: إن ادعاءك التوكل هو بلادةُ حسٍّ إيمانى ، وليس توكلاً.

والتوكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أننى استنفدت أسبابى ؛ ولذلك أرجع إلى مَنْ عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق.

فالتوكل معناه: تسليمك زمام أمورك إلى الحق ، ثقةً بحُسْن تدبيره ، ومن تدبيره أنْ أعطاك الأسباب فلا تردّ يد الله الممدودة بالأسباب ، والذى لا يتوكل على الله عليه أنْ يراجع إيمانه.

والحق سبحانه يقول﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)** ﴾ [الأنفال]

أى: أنهم يَكلُون أمورهم على مَنْ ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق - سبحانه وتعالى - القادر العظيم الذى خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدى إلى مُسبِّبات الأسباب مقدمة ، والمسببات هى النتيجة ، وبعد ذلك ترك أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعزّ عليك فى أسبابه ، إياك أن تيأس من أنه لا يحدث.

بل قُلْ: تلك هى قضية الأسباب ، أما أنا فلى رَبٌّ خلق الأسباب ، وهو القادر فوق كل الأسباب.

الله يحب المقسطين:

إن الله يحب الذين يزيلون الجوْر ، ومادام الحكم بالعدل يأتى ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جَوْراً مقنناً. إذن: فأقسط أى أزال جَوْراً مُقنّناً ، وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون ، والكون كله يسير بميزان ، الأرض تدور ، والشمس تؤدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر.

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

فإنْ أردتُمْ أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التى حولكم ، فإنْ كانت بنظام وميزان واعتدلتْ الأمور. اعدلوا ـ إذن ـ فى إدارة شئونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون.

ولذلك نقرأ قوله تعالى: **﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾** [الرحمن]

أمامكم الموازين العُلْيا فى الكون ولا تستطيعون إفسادها ؛ لأنها تسير بنظام لا دَخْلَ لكم به ؛ لذلك عليكم أنْ تتعلّموا منها ، وأن تدبروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية.

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

فإنْ رأيتَ حولك كَوْناً غير مضطرب وغير متصادم ، ويؤدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزاناً فى الأمور الاختيارية والمرجحات الاختيارية هى أحكام التكليف من الله ، فإنْ أردتَ أنْ تستقيم لك الأمور الاختيارية فسرْ بها على الميزان الذى وضعه الله.

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾ (المائدة)

أى: أن الله يحب الذين إنْ رأَوْا ظُلْماً أزالوه ، وأحلُّوا محلَّه العدل. والحق سبحانه يقول: **﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)﴾** {النساء}

وهذه ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إن كل إنسان مطالب بالعدل ، فلو كنتَ مُحكَّماً من طرف قوم ورضُوا بك أن تحكم ، فاحكُمْ بالعدل حتى ولو كان الحكم فى الأمور التى يتعلق بها التكريم والشرف والموهبة ، فليس ضرورياً أنْ يكونَ الحكم بالعدل فى أمر له قيمة مادية.

فسيدنا على - رضوان الله عليه وكرَّمَ الله وجهه - يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ، ليحكم بينهما: أى الخطين أجمل من الآخر؟

وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة ، لكنها مادامتْ شغلتْ الطفلين ، وأراد كل واحد منهما أن يكون خطُّه أجمل ، فلابُدَّ أن يكون الحكم بالعدل ، فقال الإمام على لابنه الحسن :يا بنى ، انظر كيف تقضى ، فإن هذا حُكْم ، والله سائلك عنه يوم القيامة.

إن هذا يعطينا صورة فى دقة العدل ، حتى ولو كان الأمر صغيراً.

قال العلماء: إذا عَلم المجتمع أن عَدْلاً يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يُجرِّىء ذلك ظالماً على أنْ يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم: فلان ظلم ولم يُحاكم ، فيغرى ذلك الظالم أن يزيد فى ظُلْمه ، لكن ساعة يرى الناس أحداً يأخذ حَقَّ غيره ، ثم جاء الحاكم فَرَدَعَهُ ، وردَّ الحق لصاحبه فلن يظلم أحدٌ أحداً.

فقولُ الحق سبحانه وتعالى: **﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ(٥٨)﴾** {النساء}

لا بُدَّ أن نأخذه على أنه مطلب تكليفى من الله للمسلمين حتى يشيع فى كل الناس ، ولا يخصّ المؤمنين ، يتعاملون به فيـما بينهم ، وإنما يشمل أيضاً ما بين المؤمنين والكافرين ، وما بين الكافـرين بعضهم مع بعض إنِ ارتضَوْا حُكْمَ رسول الله.

•••

الـفهـرس

الموضوع **الصفحة**

تمت بحمد الله